سلسلة قراءات فى التاريخ القديم ٣

تاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان

موضوعات مختارة



تأليف

د. محمود إبراهيم السعدنى

مكتبة الأنجلو المصرية

سلسلة قراءات فى التاريخ القديم

(٣)

تاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان

موضوعات مختارة

تأليف

د. محمود إبراهيم السعدنى

(أستاذ التاريخ والحضارة اليونانية -الرومانية)

كلية الآداب / جامعة حلوان

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

إسم الكتاب : تاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان

إسم الكاتب : د. محمود إبراهيم السعدنى

الناشر : الأنجلو المصرية

كمبيوتر وإخراج : ميجا سنتر

طباعة : محمد عبد الكريم حسان

رقم الإيداع : 2000/17088

الترقيم الدولى : I-S-B-N 977-05-1785-2

فهرس الكتاب

الجزء الثانى

تاريخ مصر فى عصر الرومان

قراءة فى "تاريخ مصر القبطية"

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم : التعريف بالعصر الهيللينستي :

باسم الله، وعلى بركة الله .

إنه ليسعدنى أن أتقدم للقارئ العربى، الفخور بتاريخه الطويل والعريق، وحجم إسهامه الكبير فى مشوار الحضارة الإنسانية العظيم، من البداوة إلى التمدن، بهذه الصفحات المعدودات، من تاريخ الشرق القديم، إبان حكم طغمة أجنبية طامعة فى خيراته، حاقدة على تراثه الطويل، وسبقه الحضارى البعيد، وثرائه اللامحدود. إنها فترة حكم الاسكندر الأكبر المقدونى للمنطقة، وحكم خلفائه من بعده لها، قرابة ثلاثة قرون من الزمان. عاصرت فيها المنطقة كل أصناف الاستغلال والاحتكار الغربى لحساب فئة حاكمة مهيمنة على مقدرات المنطقة كلها، هم «المقدونيون [1]» - **منذ عام ٣٣٢ وحتى عام ٣٠ ق.م : إنهم هم أنفسهم** الذين نعرفهم - فى مصادرنا ومراجعنا التاريخية، باسم :

- « البطالمة [2] » : فى مصر .
- « والسليوكيون [3] » فى سوريا وشمال العراق وكل بلاد الشام .

ولكننا - هنا - لن نسمى فترتنا هذه كما يفعل الأجانب تيسيراً على أنفسهم وتبسيطاً لطلابهم وباحثيهم، باسم : الشرق الهيللينستى: **Hellenistic Near East**، وذلك لعدة أسباب وجيهة، من وجهة نظرنا الأكثر موضوعية، وليس فقط بدافع الوطنية والأنفة والفخار الأجوف، كما يفعل البعض .. وها كم الأسباب التى رفضنا على أساسها ذاك المصطلح التاريخى التقليدى الشائع بين مراجعنا التى تردّد - دونما تمحيص يُذكر - أفكار وآراء الغرب ، لمجرد أنه سبقنا إلى دراسة

---

(١) ويعرفون - في اليونانية القديمة باسم "Makedones" ، من إقليم مقدونيا ، شمال اليونان الحالية، وقد ضمت سياسياً - إليها عقب الاستقلال الوطنى لليونان من الحكم التركى ١٨٢٢م .

(٢) وتكتب فى المصادر اليونانية كالآتى (oi Ptolemaioi) ، بحروف يونانية طبعًا .

(٣) وتذكر فى المصادر اليونانية كالآتى (oi Seleukoi)، بحروف يونانية كالعادة ، ولكننا هنا سنأتى بعملية - (Transliteration) لكل اسم يونانى ، نطقًا له بحروف لاتينية تسهيلاً للطباعة وتوثيقًا للأصول .

تاريخ منطقتنا ، لأغراض يعلمها الله وحده . والآن ، وقد زاد عدد المتخصصين العرب فى تاريخ منطقتهم – عبر العصور المختلفة، أما آن الأوان لأن يكتبوا هم بأقلامهم ، تاريخهم ؟!

وكما رفضنا – فى السابق – اصطلاح «الشرق الأدنى» ، لأسباب منطقية من وجهة النظر الشرقية، أصحاب المنطقة الأصليين، نرفض، أيضاً ، اصطلاح «الشرق الهيللينستى »، لعدة أسباب، وهى :

أولاً : لم يكن الشرق القديم، يوماً، أجنبياً، بسبب احتلال أجنبى، مهما طالت إقامته وجبروته، بل لم يتعد ذلك شكل وأسلوب الإدارة العليا للبلاد المحتلة، سواء أكان ذلك فى مصر أو سوريا القديمة، وتحديداً، داخل عاصمة الحكم، حيث كانت لغة، وأشكال أدوات ومناصب الإدارة المركزية آنذاك، أجنبية، وهنا نقول «مقدونية» **بينما ظل كل شئ – ما عدا ذلك – فى بقية أقاليم الشرق القديم على اتساع رقعتها وتنوع مناطقها ، شرقياً** (كما كان قبل الاحتلال المقدونى) .

– فى عاداته وتقاليده .

– فى دياناته ومعبوداته .

– فى أسلوب إدارته المحلية الداخلية .

– فى لغة تعامله اليومية ، بين فئاته الشعبية المختلفة .

إذن ، أبعد كل ذلك، ولم يتغير شيئ جوهرى فى المجتمع الشرقى، يحق لنا أن نطلق عليه «الشرق الهيللينستى» ؟!!

ثانياً : إن أقدم غزوة غربية منظمة ، حققت أهدافها باحتلال الشرق القديم واستغلاله اقتصادياً لصالحها، وهى تلك التى نحن بصددها : الغزو المقدونى ، **أى أنه برغم نجاحها العسكرى والسياسى، لم تفلح فى أن تصبغ الشرق القديم بصبغتها الكاملة .. لغة ، وديناً ، ونظماً إدارية .. بل ظل تأثيرها سطحياً ، لا يتعدى عواصمها ومراكز حكمها الرئيسية، مثلما كان الحال فى «الإسكندرية» – فى مصر ، «وإنطاكية» ، فى سوريا ، و«بابل» فى العراق..** والمفاجأة الحضارية الكبرى، كانت متمثلة فى تأثير الشرق العميق على معتقدات أولئك المحتلين .. ولم يحدث العكس، بقوة الفتح، إذ لم ينجح

المقدونيون فى فرض دياناتهم وعباداتهم على بلدان الشرق القديم، وأسلموا أنفسهم لتراث الشرق الضخم، وذابوا فى طياته، وراحوا يلتمسون فيه مخرجاً لامبراطورية مترامية الأطراف يحكمونها، بقوة السلاح، ولا يملكون الوسيلة لضمان سلطانهم وسيادتهم غير ذلك، ولهذا لجأوا إلى كل الأساليب السياسية الماكرة لتحقيق نوع من الوحدة السياسية تحت إمرتهم:

(أ) لجأ الاسكندر الأكبر – بتأثير عادات الشرق القديم فى تقديس ملوكه ورفعهم إلى مصاف الآلهة– فأقدم على تأليه نفسه (Apotheosis)، مما أثار عليه حنق رفاقه وحاولوا، مرات، التخلص منه وقتله .

(ب) أوجد لغة سهلة مبسطة، من اليونانية القديمة، سمّاها «الكوينى» : "Koiné"، أى : اللغة المشتركة »، ليجمع عليها شعوب كل امبرطوريته .

(جـ) اخترع بطلميوس الأول (أعز رفاق الاسكندر، بعد موت ذاك القائد الفذ عام ٣٢٣ ق.م، وبعد أن استقل بمصر ، دون بقية الإمبراطورية المقدونية) ديانة جديدة هى عبادة «سرابيس : Sarapis » (*)، وخرج بها على المصريين، الذين لم يقتنعوا بها وفشلت فشلاً ذريعاً فى الداخل، ولم نسمع بها إلا فى وثائق قليلة ونقوش خارج الحدود المصرية، أو فى سجلات الدولة الرسمية فقط .

ثالثاً : ليس هناك إجماع أو اتفاق تام بين العلماء على معنى كلمة «الهيللينية :(٤) Hellenism ، وها هو أحد كبار المتخصصين فى العصر الهيلليستى، يعترف صراحة بذلك فيقول «تارن» ما يلى:

Hellenism, though incorrect in form, has long done duty as the substantive of Hellenistic, Hellenisticism being an impossible

---

(*) وينطق هذا الاسم ، أيضًا (Scrapis) ، بالكسرة ، كما جاء فى النصوص البردية والنقوش ، فالقراءتان صحيحتان .

(٤) هذه الكلمة الانجليزية Hellenism ، من حيث الاشتقاق، مأخوذة من المفردة اليونانية : بمعنى جَعْل الشيئ يونانياً» ، أى (Hellenízo), (Hellenism) : بمعنى يأخذ شكلاً يونانياً، وقد استخدم الأجانب الصفة : هيللينستى Hellenistic : منها ، كمرادف لها ، وللدلالة على أشياء كثيرة ، لم يتفق العلماء حول تعريف واحد لها ، راجع :

Tarn, W. W., Hellenistic Civilisation, (revised by the author and G. T. Griffith), 3rd edition 1952, U. S. A. 1974, pp - 1 -3 .

word in any language. It is too late to coin another (5).

بمعنى «أن «الهيللينية»، بالرغم من عدم سلامتها شكلاً، إلا أنها قد أدت دورها كمرادف لكمة «هيللينستى» ذلك لأن كلمة «هيللينستيسيزم» ، لا يمكن أن توجد فى أية لغة. إنها (أى/الهيللينية) لا بديل عنها الآن، فقد تأخرنا كثيراً حتى نصيغ مصطلحاً آخر .

هذا، وقد عرض تارن، نفسه أربعة مفاهيم لكلمة «الهيللينية» ، هى :

(١) ربما تعنى للبعض ، ثقافة جديدة ، تشتمل على عناصر يونانية وشرقية .

(٢) وربما تعنى ، عند البعض الآخر، انتشار الثقافة اليونانية، بين الشرقيين .

(٣) وربما تعنى، لفئة ثالثة ، استمرار الحضارة اليونانية القديمة فى أنقى مظاهرها.

(٤) وربما تعنى ، أخيراً، عند فئة رابعة ، إنها هى الحضارة اليونانية نفسها وقد تشكلت، من جديد، فى ظل ظروف جديدة .

ولكن تارن ، يؤكد، للمرة الثانية ، على وجهة نظره المدققة ، والموضوعية، بقوله :

«إن كل هذه النظريات تقول حقاً ، ولكن ليس من بينها واحدة تقول كل الحقيقة، كما أنها ، كلها، لا يمكن التعامل معها عندما يتطرق المرء إلى التفاصيل(٦)» .

هكذا يمكننا، (بعد استعراضنا للأسباب الثلاثة السابقة، التى نراها نحن كافية ومقنعة) ، ألا نصف منطقتنا، فى تلك الفترة، محل الدراسة، بأنها هيللينستية ، أى أنها لم تكن يونانية، بل مجرد تحت حكم وسيادة المقدونين السياسية .

(5) Op. Cit., p. 1.

(6) Op. Cit., P. 2, " All these theories contain a truth, but none represents the whole truth; and all are unworkable the moment one comes down to details,.......".

حملة الإسكندر الأكبر علي الشرق
(أسبابها ونتائجها)

إنه لمن الصعب علينا أن نتفهم البواعث الحقيقية والنوايا الأصلية التى جعلت والد الاسكندر، فيليب الثانى المقدونى، يعلن الحرب المقدسة ضد الفرس، وهى تلك الحرب التى نفذها ابنه، من بعده، ووضعها موضع التنفيذ كأفضل ما تكون، وحقق من ورائها مكاسب طائلة، له شخصياً، ولوطنه مقدونيا، ولرفاقه ومرافقيه من الضباط والجنود اليونان الذين صاحبوه، بالآلاف، فى حملته على الشرق القديم، ومع ذلك فإننا، سنحاول أن نتلمس طريق الإجابة عن سؤال يؤرقنا، تخيلناه لأنفسنا، يقول :

* هل حقاً كانت حملة الإسكندر الأكبر على الشرق تستهدف، فقط تأديب الفرس والانتقام منهم ؟! أم ماذا ؟!

ويمكن صياغة السؤال نفسه بطريقة أخرى كالتالى :

* هل كانت حملة الإسكندر على الشرق حملة قومية، لحساب الشعب اليونانى كله دون استثناء، أم حملة شخصية لحساب العنصر المقدونى، صاحب الفكرة ومنفذها، وعلى رأسهم الإسكندر؟!

ولكى تصبح إجابتنا سهلة ميسورة، وعلى الأقل، مقبولة، فى غياب نص صريح، معاصر أو لاحق، يؤكد أو ينفى ذلك السؤال الذى طرحناه آنفاً، لابد لنا أن نعود بأذهاننا فى سياحة سريعة لمسرح الأحداث السياسية فى حوض البحر المتوسط الشرقى عدة قرون من الزمان قبل قيام الحملة نفسها، حتى يمكننا التعرف على الروح العالمية التى كانت تسود المنطقة آنذاك وعلاقات الدول والممالك المتجاورة، وما إذا كانت لتلك العلاقات الدولية من تأثيرات على صانعى القرار من ملوك وجنرالات عسكريين بيدهم الأمر آنذاك .

لقد كانت العلاقات المصرية – اليونانية القديمة ، (منذ منتصف الألف الثالثة ق.م وحتى منتصف القرن السادس ق.م، مروراً بكريت وموكيناى (٧)، ثم

(٧) راجع بحثى "العلاقات المصرية – اليونانية القديمة" ، المقدم إلي ندوة قسم التاريخ ، بآداب القاهرة [مصر وعالم البحر المتوسط]، المنعقدة فى ابريل سنة ١٩٨٥ ، والمنشورة أعمالها فى كتاب خاص باسم الندوة ، إعداد وتقديم د./رؤوف عباس ، الطبعة الأولى (القاهرة) ١٩٨٦، ص ص ٤١ – ٦١ .

الجزر اليونانية ساموس (٨)، ورودوس (٩) وقبرص (١٠)، ثم بمراكز القوة اليونانية العسكرية فى اسبرطة (١١)، وأثينا - كنهاية للمطاف ، فى مراحل تطور تلك العلاقات، ذات المصلحة المتبادلة، والاحترام والتقدير القائم على أساس تلك المصلحة) ، هى أبرز وأوضح وأطول علاقة بين شعبين، ليسا متجاورين، بل يفصل بينهما أكبر مانع مائى داخلى فى العالم، وهو البحر المتوسط .

ولم يتعكر صفو تلك العلاقات الودية، والمصالح المشتركة بين الشعبين، إلا مرة واحدة، مع نهايات القرن ١٣ ومطلع القرن ١٢ ق.م، عندما هاجمت جماعات القراصنة الجائعة، والطامعة، فى ثروات المنطقة، السواحل المصرية، وردهم رمسيس الثانى وابنه مرنبتاح على أعقابهم خاسرين، وأغرقهم، هم وسفنهم، فى مياه البحر المتوسط. وهى الإغارات المعروفة باسم «شعوب البحر (١٢) : Sea - Peoples . لقد كان من بين أولئك عناصر يونانية، فى الغالب، ميكينية .

ومع العصور التاريخية اليونانية، وبداية نهضتهم، جاءوا، بالآلاف، تجاراً

---

(٨) راجع بحثى "هدايا مصرية إلي جزيرة ساموس" ، الذى ألقى فى المؤتمر الأول للدراسات اليونانية والرومانية، المنعقد فى الاسكندرية، فى الفترة من ٢٢ إلى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٨٦ ، وتم نشره فى مجلة البحوث العلمية - المجلد الأول، العدد الخامس) نوفمبر سنة ١٩٨٧ ، الصادرة عن كلية الآداب، بجامعة المنيا .

(٩) راجع رسالتى للدكتوراة، بعنوان : (وهى باليونانية الحديثة) ، وتعنى «العلاقات اليونانية - المصرية : ٩٤٥ - ٥٢٥ق.م» ,(ai Helleno - aigyptiakai Skheseis, 945 - 525 B.C., Athénai 1982, pp. 66-84 .) لتأكيد تأثير النحت المصرى على الفن التشكيلى اليونانى فيما قبل العصر الكلاسيكى ، أي قبل عام ٤٨٠ ق . م ، وذلك على أساس التماثيل المصرية والمتمصرة المكتشفة فى الأراضى اليونانية نفسها كأحد وسائل التأثير المؤكدة والمباشرة .

(١٠) المرجع نفسه ، ص ص ١٢٢-١٣١ ، ١٥٠ - ١٥٥ ، ٩١ - ٩٤ .

(١١) راجع بحثى ، باليونانية -الحديثة "O Amasis éto Symmakhos tón Spartiatón", بمعنى : "هل أحمس (الثانى) كان حليفاً للإسبرطيين» ؟ ، والذى ألقى فى مؤتمر الدراسات اللاكونية المحلى الأول ، والمنعقد فى مولاى (باليونان) فى الفترة من ٥ - ٧ يونيو سنة ١٩٨٢، وتم نشره فى أعمال المؤتمر (Praktika) ، أثينا ١٩٨٣ ، ص ص ١٦٩ - ١٧٣ .

(١٢) هناك دراسة ممتازة وجريئة ، من خلال قراءة تحليلية للنصوص المصرية القديمة التى أشارت إلى أولئك ، لصاحبتها : Nibbi, A. The Sea - Peoples; A Re-examination of the Egyptian Sources, Oxford 1972 . & Cf. Sandars, N. K., The Sea - Peoples, London 1978 .

ومرتزقة، إلى مصر، بأمر من الفرعون أبسماتيك الأول، مؤسس الأسرة السادسة والعشرين، أى منذ عام ٦٦٤ ق.م، وأسكنهم مدينة خاصة بهم، هى نقراش (١٣) (ناوكراتيس : Naukratis) . كما استقطع الراغبين منهم أراضى يعيشون على ريعها، وبنى للمرتزقة منهم معسكرات فى المواقع الاستراتيجية لحماية الحدود المصرية الشرقية، عند تل دفنة (١٤). ولقد بلغ تقدير فراعنة مصر للعناصر اليونانية العسكرية، المرتزقة، حداً لدرجة أن جعل أحدهم (١٥) ميمنة قواته منهم، كما عهد إلى بعض مثقفيهم بتربية أبنائه وتعليمهم اللغة اليونانية (١٦)، كما جاب تجارهم أنحاء مصر كلها ووصل بعضهم، باعتراف هيرودت نفسه (١٧)، إلى إحدى الواحات المصرية وسكنوها .

هكذا تطورت ونمت وتشابكت مصالح الشعبين، بمباركة الفرعون المصرى، المؤسس، ومن جاءوا من بعده، حتى أواخر تلك الأسرة عام ٥٢٥ ق.م، مما يمكن أن نسميه – كما فعل أستاذنا القدير الدكتور مصطفى العبادى (١٨) – أنه أصبحت هناك ضرورة سياسية تربط مصالح البلدين . تلك الضرورة التى قويت بمرور الوقت ولا سيما بعد دخول مصر فى حظيرة الاحتلال الفارسى منذ عام ٥٢٥ ق.م، وفى ضوء المعطيات الدولية الجديدة التى نجمت عن أفول نجم القوة المصرية وخضوعها وازدياد قوة الفرس فى المنطقة، وتهديدها للمدن اليونانية المستقلة فى آسيا الصغرى.

ويمكننا أن نوجز مظاهر الظروف العالمية ومستجدات الأوضاع فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، فى القرن ٦ ومطلع القرن ٥ ق.م، كالتالى :

أولاً : زيادة أطماع الفرس وتوسعهم فى آسيا الصغرى واحتلالهم للمدن اليونانية واستنجاد تلك بالقوات اليونانية، فى البلد الأم، بهدف تحريرها منهم .

ثانياً : قيام الفرس بمحاولات لتأديب اليونانيين، داخل حدودهم، فوقعت حربان، فى عامى ٤٩٠، ٤٨٠ ق.م، كان الفرس، فيهما، هم المعتدون، وكان

(١٣) جنوب الاسكندرية بعدة كيلو مترات، وهي مدينة كوم جعيف الحالية التابعة لمركز إيتاى البارود ، بالبحيرة .

(١٤) جنوب مدينة دمياط الحالية ، علي فرع النيل الشرقى فى الدلتا .

(١٥) هو الفرعون أبسماتيك الثانى، مطلع القرن ٦ ق . م

(١٦) راجع هامش (٧) .

(١٧) الكتاب الثالث ، فقرة ٢٦، حيث ترد عبارة "Oasin pólin" ، والتي ربما تعنى "الخارجة" .

(١٨) العصر الهلينستى ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ١٠ .

جزاؤهم الهزيمة على أيدى اليونانيين .

ثالثاً : مساعدة اليونانيين لثورات المصريين ضد الاحتلال الفارسى فى عام ٤٨٥ ق.م، وعام ٤٦٥ ق.م .

رابعاً : اعتبار المصريين واليونانيين، على السواء، الفرس ، كعدو مشترك لهما، عليهما التحالف فيما بينهما لهزيمته، بكل الطرق وفى كل حين .

خامساً : كون مصر ، حتى ذاك التاريخ، أكبر مخزن غلال، لإنتاج القمح، فى العالم القديم، وهى أهم سلعة كان اليونانيون فى أشد الحاجة إليها، لقلة انتاجهم منها، فقد كان إنتاج أثينا، مثلاً ، يمثل - (عشر) احتياجاتها السنوية ، مما يجعل استيراد تلك السلعة أمراً حيوياً لها .

سادساً: زيادة حاجة مصر إلى مساعدة الجنود المرتزقة اليونانيين وكذلك الفضة، التى كانت متوافرة بكثرة لديهم، وبالتالى كان يتم التبادل السلعى بينهما، كما حدث فى أزمة أثينا عام ٤٤٦ ق.م (١٩).

سابعاً : اعتبار القمح المصرى سلعة استراتيجية ، أثناء الحروب البلوبونيزية (٤٢٧ - ٤٠٤ ق.م) بين أثينا وأسبرطة، ومحاولة كل منهما منع وصول ذاك القمح إلى الأخرى (٢٠).

ثامناً : زيادة حاجة العالم اليونانى، كأحد أدوات نهضته الثقافية فى العصر الكلاسيكى (القرنين (٥) و(٤) ق.م) ، إلى أوراق البردى المصرى للكتابة . ويكفينا للتدليل على ذلك عندما نقرأ أسف أحد الفلاسفة ، فى خطاب خاص . إلى الملك فيليب الثانى، والد الاسكندر، يعتذر فيه عن عدم قدرته على الاستطراد فى حديثه وذلك بسبب ضيق مساحة الورق المتاح ، وضرورة الإيجاز لندرة البردى ، ويختم حديثه قائلاً : «إلى هذا الحد أصبح الورق نادراً منذ أن احتل الملك الفارسى مصر» (٢١).

---

(١٩) أرسلت مصر أسطولاً محملاً بالقمح إلى ميناء أثينا، فى بيريه، عام ٤٤٥ ق.م . راجع . Plutarchus, parallel lives : Pericles. 37

(٢٠) وأيضاً ، في عام ٣٩٥ ق.م، ترسل مصر معونة تموينية إلي اسبرطة ، ولكن القوات البحرية الأثينية تستولى عليها، راجع : Diodorus Siculus, 14 :79. وراجع المؤرخ العسكرى لتلك الحرب Thoukydides, IV. 53; VIII. 35 .

(٢١) مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ١٣ .

وكنتيجة طبيعية لكل تلك المقدمات ومظاهر تشابك المصالح اليونانية – المصرية ، توصل أستاذنا الكبير الدكتور مصطفى العبادى إلى نتيجتين هامتين :

(١) تقليد المصريين للعملة اليونانية التى كانت منتشرة بين أيدى اليونانيين المقيمين فى مصر ، وصناعتهم لعملة ذهبية على غرار شكل وحجم العملات اليونانية المعاصرة (٢٢).

(٢) إدراك اليونانيين، بما لا يدع مجالاً لأى شك ، للأهمية الاقتصادية لمصر بالنسبة لهم ولبلدهم، بعد أن تعرفوا على كل مصادر الثروة فيها ، وثراء امكاناتها، ولا سيما انتاج القمح وورق البردى، **مما جعلهم يضعون مصر فى حساباتهم الاستعمارية ، كأول هدف لهم، بمجرد أن سنحت الفرصة الدولية والظرف العالمى بذلك .**

وكان تحقيق الحلم على أيدى الاسكندر الأكبر المقدونى ، الذى وجد فيه اليونانيون ضالتهم المنشودة، بعد طول صبر وصراع مع الفرس ، فراهنوا على ذلك الحصان الرابح والتقت مصالحهما معاً : هو ، يبغى الجاه والمجد الشخصى. وهم يريدون الثراء والغنى، بأى شكل (٢٣). وهذا هو ما يؤكده، أيضاً ، الدكتور العبادى، باعتبار الاسكندر سياسى موهوب وقائد عبقرى ، ولم يكن مستبعدا، أن يكون قد فكر فى كل ذلك العامل الاقتصادى الهام ، بالنسبة له ولجيوشه ، كتأمين لظهره، عسكرياً ، من ناحية، ولمزيد من الاطمئنان التموينى من ناحية أخرى ...(٢٤) ولذلك نرى الاسكندر لا يواصل سيره، وراء الملك الفارسى الهارب أمامه بعد معركة إسوس (٢٥) (Issos) ، عام ٣٣٣ ق . م ، بل يحرص على الاستيلاء على مصر (٢٦) والسواحل الفينيقية (صيدا وصور) ، مما يؤكد ، أنه جاء، ليس للانتقام من الفرس ، بل لأهداف أخرى غير ذلك ، ومن أوضحها الاحتلال والسيطرة لتحقيق أهداف ذاتية طمعاً وأملاً :

---

(٢٢) المرجع نفسه ، ص ١٥ .

(٢٣) حتي أنهم كانوا يحاربون – إلى صف الاسكندر – بنى جلدتهم المرتزقة اليونانيين الذين كانوا مأجورين فى صفوف الجيش الفارسى ، مع الملك دارا .

(٢٤) المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٢٥) تقع في اقليم كيليكيا ، شمال سوريا ، أو أقصى جنوب شرق آسيا الصغرى .

(٢٦) يذكر أريانوس، المؤرخ الذى أورد سيرة الاسكندر العسكرية [١١٧ – ١٣٨م] ، بأن هدف الاسكندر كان الاستيلاء علي مصر . (Anabasis Alexandrou), III 1. 1 ، وهذا ليس صحيحًا ، على اطلاقه ، بدليل استكمال الحملة صوب الشرق ، وإتخاذ بابل عاصمة لإمبراطوريته ، وليس مصر .

- طمعاً ، فى خيرات المنطقة وثرائها .
- وأملاً ، فى تحقيق انتصارات تُخلّد ذكراه .

فهل ، بعد ذلك كله ، يبقى لدينا شك فى التقاء المصالح بين القائد المقدونى الفذ ، وبين اليونانيين، الذين كانوا هم أدواته، وهم الأعلم بأحوال وأسرار مصر، فى تحقيق أطماعه وأطماعهم كذلك ؟!! وهنا تكفينا شهادة بلوتارخوس (٥٠ - ١٢٠م) بأن مشروعات الاسكندر كانت ترمى إلى بسط سيادته على العالم (٢٧)، فهل كان ذلك سبباً أم نتيجة ؟! إنّا نظنه الاتجاه الأول .

(27) Plutarchus, Alexandros, 27 : 4

خصائص العصر الهيللينستى

بين الدعاية الغربية والواقع التاريخى

فتح الإسكندر الأكبر الشرق القديم، غازياً له ، وزاد على ذلك بأن وصلت قواته إلى حدود الصين، مما يسقط دعواه بأنه كان قد جاء لتأديب الفرس ؟! لقد حقق الاسكندر، بفتوحاته الواسعة أكبر امبراطورية عالمية، فى التاريخ كله، تحت زعامة قائد شاب لم يبلغ – عند وفاته – الثالثة والثلاثين من عمره (٢٨). وكما حسده العالم أجمع، ولا سيما رفاقه وزملاء السلاح (Etairoi) ، فى حياته، حتى قادهم الحقد والحسد إلى تدبير المؤامرات لقتله ، فإن كثيراً من المؤرخين اللاحقين قد عدُّوه محظوظاً، حتى فى وفاته، لأنه – فى نظرهم – قد مات فى أوج انتصاراته، وقمة مجده، وقبل أن يواجه العبء الحقيقى لتنظيم امبراطوريته المترامية الأطراف (٢٩).

لقد تغيرت أشياء كثيرة فى العالم القديم، بمجئ الاسكندر، واستمر التغيير حتى بعد وفاته، وطيلة أربعة قرون من الزمان تقريباً ، حتى فيما بعد أوغسطس، أول امبراطور رومانى (٢٧ ق.م – ١٤م).

ويذكر أستاذ الأجيال الدكتور ابراهيم نصحى، محللاً لخصائص العصر الهيللينستى الحضارية، أن هذا العصر عرف مرحلتين اثنتين، هما :

المرحلة الأولى : وشهدت القرون الأولى لذاك العصر : وازدهرت فيه العلوم والآداب والفلسفات .(٣٠)

أما المرحلة الثانية : فقد شهدت نضوب الفكر الهيللينستى، من ناحية وقيام الشرق باضطرابات فى وجه الغرب، أى ضد حكامه الأجانب، من ناحية أخرى .

ويذهب أستاذنا – فى تحليله وتعليله لضعف الإنتاج العقلى فى تلك المرحلة

---

(٢٨) يؤرخ ليوم وفاة الاسكندر، بليله ١٠/١١ يونيو سنة ٣٢٣ ق.م ، فى بابل . راجع.

(28) CF. Samuel, A. E., Ptolemaic Chronology, p. 44 ff; Hamilton, J. R., Plutarch : Alexander, A Commentary p. 210

(29) Cambridge Ancient History, VI, |. 423 .

(٣٠) يستخدم أستاذنا كلمة "مميزات" ، اعترافاً منه بأنها فضائل وخيرات عمت العالم القديم، راجع/تاريخ مصر فى عصر البطالمة (الطبعة الخامسة)، الجزء الأول، القاهرة ١٩٨٠، ص ٤٠

الثانية – بأنه قد حدث لسببين :

(١) نقص عدد الإغريق (اليونانيين) الصميمين ، الخُلصّ، لا سيما بعد عام ٢٠٠ ق.م.

(٢) مجهودات روما ، القوة الغربية الناهضة، بمجهود متواصل لتحطيم الروح المعنوية للإغريق.

ثم يردِّد أستاذنا الآراء نفسها التى جاءت فى كتب ومراجع العلماء الأجانب، الغربيين [٣١]، وكيف أن العصر الهيللينستى امتاز بملامح جديدة، علي العالم القديم، ومن أهمها :

(أ) **ظهور فكرة العالمية** : (Cosmopolitanism) كمبدأ جديد ساد الشرق القديم وكل أرجاء امبراطورية الاسكندر، فى حياته، وبعد مماته، بعد اعتبار العالم وحدة واحدة (Oikouméné).

(ب) **ظهور لغة مشتركة** لكل شعوب الإمبراطورية، وهى «**الكُوينْى**» (Koiné)، ذات الأصل الأتيكى فى لهجتها .

(جـ) **انتشار التعليم** : انتشر التعليم، وتقدمت علومه ، وانتشرت مدارسه (؟!)[٣٢]، للبنين والبنات، حتى أن الأولاد الصغار كانوا يتلقون تعليمهم معاً، فى بعض المدن اليونانية، مثل ، تيوس (Téos) وكذلك خيوس (Khios)، أى أن تلك المدن عرفت التعليم المختلط(؟!) [٣٣] ويستدل أستاذنا على أهمية التعليم بوصول مدير معاهد التربية، الذى يسمى، عند اليونانيين، باسم : الجمناسيارخوس (Gymnasiarchus) إلى مكانة عالية، بارزة فى مجتمعه[٣٤]، حتى أصبح من أهم حكام المدن اليونانية . وكان الشباب الذكور يستكمل تعليمه، فى مرحلة أعلى هى مرحلة الفتوة الشبابية (Ephebeia)، من سن التاسعة عشرة فصاعداً، داخل معاهد التربية (البدنية والعقلية)،

(31) Tarn, W. W., Hellenistic Civilisation (Revised by the author and G. T. Griffith), U. S. A., 1974 . pp. 79 - 125 .

(٣٢) لم تكن هناك مدارس حكومية أو عامة للتعليم ، مثلما الحال الآن ، بل مدارس خاصة .

(٣٣) ابراهيم نصحى، المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٣٤) راجع بحثى «دور الجمنازيوم فى مصر اليونانية – الرومانية» ، المقدم إلى مؤتمر «تطور علوم الرياضة والتربية الرياضية» ، المنعقد فى كلية التربية الرياضية ، بجامعة المنيا ، فى الفترة من ٢٤ – ٢٦ مارس ١٩٨٧ .

المعروفة باسم : «الجمناسيا» (Gymnasia) (٣٥) .

(د) **شيوع روح الإخاء** : منذ القرن ٣ ق . م ، بدأت المدن الإغريقية فى حل مشاكلها ، فيما بينها ، عن طريق التحكيم، بدلاً من الحرب والقتال ، وبالتالى تم تخفيف ويلات الحروب التى كانت كثيراً ما تقع بين الدول - المدن اليونانية المتجاورة من جراء طمع إحداها فى ثروات الأخرى . وتذكر المصادر التاريخية اللاحقة ، أن الاسكندر أباح للمنتصر والغازى أن يبيع جميع السكان (٣٦) فى أسواق الرقيق ، بدلاً من قتل الرجال ، وسبى النساء والأطفال (؟!!) . ولكن خلفاء الاسكندر، فى الممالك الهيللينستية قضوا على تلك العادة الشائنة (٣٧) وسادت روح الاخاء بين البشر (؟!!) بفضل اعتراف المدن اليونانية بقدسية بعض أماكن العبادة وتحريم الاعتداء عليها(٣٨) .

وإذا كان علينا ، من منطلق البحث عن الحقيقة التاريخية ، التى غالباً ما يصعب استخراجها ، والتوصل إليها بين غياهب الماضى البعيد وأحداثه المبعثرة، أن نفند آراء الدعاية الغربية حول حقيقة كل تلك المميزات ، أو الخصائص ، التى ذكرناها آنفاً للعصر الهيللنيستى ، بما فى ذلك ملمحاً ، أو ميزة خامسة ، وهى تطور المجتمع الهيللنيستى نحو الأفضل (؟!!) [حيث علت مكانة المرأة واضطلعت بأدوار فى الحياة العامة : سياسية كانت أو (عسكرية) أو دينية ، تقليداً لنماذج المرأة المقدونية والأميرات العظيمات (٣٩) - وكذلك شاعت الأندية الخاصة ، بالرجال وبالنساء ، فى أثينا والاسكندرية، ونقابات مهنية وجمعيات اجتماعية ودينية (٤٠)] فيجب علينا ، بداية ، أن نقرر حقيقة عامة ، أو عاملاً مشتركاً بين كل تلك الخصائص ، وهى أنها كانت ، جميعها ، تخص طبقة الحاكمين ، المقدونيين، وموظيفهم من اليونانيين ، على اختلاف أعمالهم ووظائفهم فى النظام العالمى الجديد - إبان تلك الفترة من تاريخ العالم القديم . وبالتالى لم يكن للشعوب

---

(٣٥) تعتبر أشمل وأدق رسالة علمية عن التعليم اليونانى، من خلال المصادر البردية، في العصر اليونانى - الرومانى ، هى لصاحبها أستاذى الدكتور/محمد حمدى ابراهيم (باليونانية) : «التعليم فى مصر اليونانية - الرومانية» ، أثينا عام ١٩٧٢ ، وبصفة خاصة ص ص ٢٤٠ - ٢٥٥ .

(36) Polybios, II : 58 , 10.

(37) Ibid., XVIII : 3, 4 - 9 .

(38) Tarn, op. cit., p. 76 ff .

(٣٩) إبراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤٠) المرجع نفسه ، ص ٤٣ .

المحكومة ، المقهورة ، أى نصيب ، أو حتى أى قدر من المشاركة الإيجابية ، بمعنى أن شعوب الإمبراطورية المقدونية ، أو الممالك الهيللينستية الجديدة – فى الشرق – لم تستفد استفادة مباشرة ، أو حتى غير مباشرة ، من هذا الذى كان يجرى على أرضها .. **فهل عرفنا ، يوماً ، أن أفاد المحتل ، الغازى البلد المحتلة ؟!!**

إنه إذا كانت ، فى رأي البعض ، تلك الخصائص السابقة مميزات ، جديرة بالإشادة والمديح والطنطنة ، **فإنها – فى نظرنا – ليست سوى امتيازات طبقية جناها الفاتحون على حساب الشعوب المقهورة .**

ولسوف نتّبع المنهج السقراطى (٤١) ، فى الرد على الرأى السابق ، فى محاولة منا للوصول إلى نتيجة مؤداها هو الاختلاف التام معه ومعارضته ، وذلك من خلال أقواله هو نفسه ، وإقراره ببعض الحقائق .

يقول أستاذنا الدكتور نصحى ، فى تفصيله لمزايا العصر الهيللينستى ، وإجماله للتغير الاجتماعى وتبيان تطوره :

«وقد كان هذا العصر – حتى أوائل القرن الأول عصر رخاء ، بوجه عام للطبقات العليا ، ونستدل على ذلك من رواج التجارة ، وانتشار الأندية ، وإقامة الحفلات ، والترف فى المأكل والملبس ، والعناية بتخطيط المدن وبناء المنازل وأثاثها (٤٢)» .

إننا إذا قرأنا تلك الفقرة بإمعان وجدنا أن الرخاء كان يخص الطبقات العليا بإقرار استاذنا نفسه ، وهنا نسأله :

(*) هل هذا جديد وميزة للعصر الهيللينستى ، ينفرد بها عن غيره من العصور ، وفى كل الحضارات القديمة ؟!

إننا ، نعرف ، وليس هذا بسر يذاع لأول مرة ، أن رخاء الطبقات الحاكمة ، هو ظاهرة دائمة الحدوث فى كل الحضارات والمجتمعات ، حتى يومنا هذا ، مهما كان المجتمع فقيراً ، والشعوب (الرعايا) تتضور جوعاً . ثم إذا انتقلنا إلى جزئية

---

(٤١) هي المحاورة مع الطرف الآخر والاستناد إلى مقدمات متفق عليها وايقاع المتحدث فى التناقض بين آرائه حتى يتم اقناعه بعكس ما كان يقتنع به فى البداية، أى توليد المعانى أثناء الحوار (Dialogos) .

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٤٤ ، حيث نقل أستاذنا حرفياً ذلك عن «تارن» ، من صفحات عدة من المرجع الأجنبى.

أخرى ، في الفقرة السابقة ذاتها ، لنناقش مظاهر الرخاء ، كما يراها أستاذنا العظيم، نجدها أنها كلها ، أيضاً تخص فئة اجتماعية معينة ، بل وربما – إن جاز لنا التدقيق – تنحصر بين أفراد جماعة عرقية واحدة ، متقاربة الأصل ، وهي الأجانب (Xenoi)، وبصفة خاصة : المقدونيون (البطالمة) ، وأذنابهم في الإدارة المحلية والجيش ، اليونانيون .

(*) فهل لدى أستاذنا الفاضل أدلة أو قرائن تاريخية على ثراء الشعب المصرى ، مثلاً ، في ظل تلك الإدارة البطلمية ؟!! هل توجد هناك براهين مادية على رخاء المجتمع المصرى إبان تلك الفترة ، أو حتى عن طيب عيش جموع الأجانب ، اليونانيين ، الفقراء الذين كانوا منتشرين في الريف المصرى (٤٣) ؟! وهل يصح الحكم على الشرق القديم من خلال معارفنا التاريخية عن الغربيين (الأجانب) لمجرد أنهم موجودين على أرضنا ؟!!

إن كل ما جاء في الفقرة السابقة من مظاهر الرخاء ، الأجنبية [سواء رواج تجارة ، أو انتشار الأندية ، أو اقامة الحفلات ، أو شيوع الترف والبذخ في المأكل والملبس وبناء المنازل وتزويدها بالأثاث الفخم] ما هو إلا قشرة سطحية جميلة ، تكاد تنعم بها ، وتحتكرها ، الطبقة الحاكمة وأدواتها في حكم مصر في العصر البطلمى (٣٢٣ – ٣٠ ق.م) .

كما أننا إذا وضعنا في اعتبارنا بعض الحقائق التاريخية الثابتة من العصر البطلمى ، لأمكننا تصحيح فكرتنا ، وبالأحرى فكرة تارن ، ودعايته لهذا العصر . وترد يد أستاذنا الكبير الدكتور نصحى لها .

ونسوق ، إليك ، أيها القارئ الكريم ، بعضاً منها ، لعلك تستطيع أن تحكم ، بنفسك ، على ذاك العصر ، الذى كان البداية الحقيقية المأساوية في استنزاف ثروات مصر القديمة ، على أيدى الأجانب ، ولصالحهم ، وخروج تلك الثروات ، كلها أو معظمها ، من مصر إلى المدن المقدونية واليونانية في شبه جزيرة البلقان ، أو في آسيا الصغرى .

ويمكننا ، الآن ، أن نعرض وجهة نظرنا الخاصة بنا ، في تسلسل تاريخى ، منذ وفاة الاسكندر عام ٣٢٣ ق.م ، وحتى هزيمة كليوباترا ، آخر حفيدة مقدونية (بطلمية) حكمت مصر ، واضطرت إلى الانتحار حتى لا تقع أسيرة في أيدى الفاتح الروماني الداهية أو كتافيانوس عام ٣٠ ق.م .

(٤٣) راجع Westermann, W. L., "The Ptolemics and the Welfare of their Subjects", A ctes du Véme congrés International de Papyrologie, pp. 565 - 579 .

سلبيات العصر الهيللينستي
في الشرق

أولاً : قيام الحروب المستمرة بين المملكتين الجارتين ، السليوكية ، فى الشام ، والبطلمية فى مصر ، والتى ظلت مستعرة الأوار طيلة النصف الأول من القرن الثالث ق.م ، وتحديداً بسبب «جوف سوريا» (Koilé Syria) ، ذلك الإقليم الذى كان البطالمة ، منذ عهد بطلميوس الأول ، سوتير (Sotér) قد ضموه لأملاكهم ضمن حدودهم الشمالية الشرقية ، عام ٣١٩/٣١٨ ق.م.

ودخلت المملكتان المقدونيتان حروباً شرسة ، سميت بالحروب السورية (٤٣/أ) مثل (الأولى/٢٧٥ ق.م ، والثانية/ ٢٦١ ق.م ، والثالثة / ٢٤٥ ق.م) ولا سيما بعد أن تآمر القادة المقدونيون الآخرون ، وقرروا حرمان البطالمة فى مصر من ذلك الإقليم الحيوى لأمن الجهة الشرقية من حدود المملكة البطلمية ، مما أوغر صدر الملوك البطالمة الأول وقرروا انتزاعه بالقوة ، كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

(*) فأين ، إذن ، العالم الموحد ، المتصل ، وفكرة العالمية التى يتحدث عنها تارن والدكتور نصحى ، وهاهما المملكتان الجارتان تتصارعان من أجل اقليم صغير يقع بينهما ؟!!!

ثانياً : ظهور بدعة زواج الأخ بأخته بين أفراد البيت الحاكم :

كانت البداية بين بطلميوس الثانى ، فيلادلفوس (Philadelphos)(٤٤) وبين أخته «أرسينوى» (Arsinoe) ، التى تزوجها وكانت ذات تأثير كبير عليه ، حتى أنه صنع لها عملة خاصة بها ، تقديراً لها من ناحية ، ثم سمح بتأليهها وعبادتها (إلى جانبه) ، وفى حياتهما ، منذ عام ٢٧٢/٢٧١

(٤٣/أ) وصل عدد الحروب السورية إلى ستة حروب ، راجع / د. إبراهيم نصحى ، المرجع السابق، ص ص ١١١ - ١١٢ ، ١٢٤ - ١٢٥ ، ١٣٢ - ١٣٦ ، ١٥١ - ١٥٤ ، ١٧٤ - ١٧٦ ، ٢٠٣ - ٢٠٥ ولنا دراسة تفصيلية عن تصور العلاقات بين المملكتين المقدونيتين الجارتين السيليوكية فى سوريا والبطلمية فى مصر ، راجع « دراسات أثرية » ، العدد الثانى . الرياض ١٤٢٠ - ١٩٩٩.

(٤٤) لقب يونانى ، أطلق علي هذا الملك بسبب حبه وتقديره لأخته "أرسينوى" ، ويعنى : المحب لأخته .

ق.م.(٤٥) هذا بالرغم من أن اليونانيين كانوا يستنكرون الزواج من الأشقاء، كما نفعل نحن تماماً ، فى كل مراحل حضارتنا الشرقية ، ولكن الإدارة المقدونية الحاكمة - صاحبة الحول والطول - فعلت كل شيئ حتى تجعل ذلك مستساغاً وسخرت كل أبواق الدعاية ، من شعراء وكهنة ، لتحقيق هدفها الشاذ (٤٦) .

ثالثاً : شيوع ظاهرة قتل الإخوة والأخوات والأمهات والزوجات :

وكان ذلك ، أيضاً ، أهم سمات القصور الملكية المقدونية ، كوسيلة سهلة ، بالتصفية الجسدية هذه ، لكل المنافسين أمام طموحات ونزوات أفراد الأسرة الحاكمة . ولعل مقتل والدة الملك البطلمى فيلوباتور (٤٧) (Philopator) وأخيه ماجاس (Magas) ما يشير بأصابع الاتهام إليه أو إلى أعوانه . وكما يقول آيدرس بل :

«ولا بد أن كلتا الجريمتين قد باركهما هذا الملك ، إن لم يكن هو الذى حرض عليهما(٤٨) » .

وكذلك فإنه من المعروف أن قتل برينيكى (ابنه بطلميوس الثانى ، فيلادلفوس ، التى كان قد زوجها زيجة سياسية بالملك السليوكى ، أنطيوخوس الثانى فى عام ٢٥٣ ق.م.) ، ومعها طفلها ، فى سوريا ، كان أحد الأسباب الرئيسية لقيام الملك البطلمى ، بطلميوس الثالث ، يوارجيتيس (٤٩) (Euergetes)

---

(٤٥) هناك بردية من "الحيبة" تؤكد ذلك ، وليس بعد وفاة أرسينوى فى ٧ يوليو سنة ٢٧٠ ق. م، راجع/ايدرس بل، مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى، ترجمة وتعليق الدكتور/عبد اللطيف أحمد على، القاهرة ١٩٦٨، ص ٧٦ ، هامش (٢) .

(٤٦) راجع عن زواج الأخ بالأخت إبان حكم البطالمة والرومان لمصر ، الكتاب الألمانى الوثائقى الأول .

(46) Thierfelder, H., Die Geschwisterehe im Hellenistischen Römischen Aegypten, Münster 1960 .

(٤٧) وتعنى المحب لأبيه ، كلقب حمله بطلميوس الرابع (٢٢١ - ٢٠٣ ق.م) ، وكعادة كل الملوك البطالمة في مصر، الذين حملوا اسم "بطلميوس" ، بالإضافة إلي لقب يميزهم .

(٤٨) مصر من الاسكندر الأكبر حتي الفتح العربى ، ترجمة د/عبد اللطيف أحمد على (الطبعة الثانية) . القاهرة ١٩٦٨ ص ٧٨ ، هامش (١) .

(٤٩) وتعنى ، "الخيِّر" ، راجع نصحى ، المرجع السابق ، ص ص ١٣١ - ١٤٦ .

بالحرب السورية الثالثة انتقاماً لقتل أخته ، والأخذ بثأرها من قَتَلتها (٥٠) .

أما ما أقدم عليه الملك السليوكى ، أنطيوخوس الثالث ، فى عام ٢١٣ ق.م، عندما مثّل بجثة بن عمه (٥١) ، أخايوس (Akhaios) ، فيعتبر أبشع جريمة إنسانية، فيما قبل الميلاد، ولا يفوقها إلا ما فعله الأباطرة الرومان ، بعد الميلاد ، ولا سيما نيرون مع أمه (٥٢) ، فى منتصف القرن الأول الميلادى.

(*) فأين روح الإخاء التى سادت بين المدن الإغريقية ؟! ألم يكن أولى أن توجد بين أفراد البيت الواحد والأهل ؟!!!

وهكذا نكون من الآن فقط ، قد رأينا الوجه الآخر من العملة ، والصورة الأخرى والتى تدين ظروف وملابسات وأعمال العنصر الهيللينستى ، وبصفة خاصة تلك التى أقدم عليها الحكام المقدونيون فى ممالكهم فى الشرق القديم : السليوكيون فى سوريا ، والبطالمة فى مصر .

---

(٥٠) يذكر أبيانوس (Appianus) في تاريخه عن الحروب السورية : Syriaké, 65 «وانتقم بطلميوس ، بن فيلادلفوس، لهذه الجرائم، فقتل لاوديكى (الزوجة الأولى للملك السليوكى ، والعقل المدبر للمؤامرة علي برينيكى) وغزا سوريا وتقدم حتى وصل إلى بابل"

(٥١) ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ : نظراً لسوء حظه في الهروب وعدم وصول الإمدادات البطلمية، وخيانة البعض ، وقع أخايوس في أيدي الملك، فعامله معاملة الثوار الأسيويين بأن قطعّ أطرافه، وفصل رأسه عن جسده، وخيّطها إلي جلد حماره وصلّبَ الجثة!!!

(٥٢) سيد الناصرى، الإمبراطورية الرومانية ، القاهرة ، وذلك من أجل عشيقته "سابينا". وكذلك محمود إبراهيم السعدنى ، حضارة الرومان ، القاهرة ١٩٩٨ ، دار عين للدراسات والبحوث ، ص ص ١٧١ – ١٧٥ .

مصر فى عهد الإسكندر والأوضاع السياسية بعد وفاته

وإذا حددنا أنفسنا وخصصنا مصر بالحديث عن النظام البطلمى فيها : ما له وما عليه ، لوجدنا أننا لابد أن نقدم لذلك ، بإيجاز شديد ، وما كان عليه الحال فى عهد الإسكندر ، منذ دخوله إليها عام ٣٣٢ ق.م ، وحتى مماته ٣٢٣ ق.م، وتولى بطلميوس إدارة مصر ، كوالى لها (Satrapis) ، فى البداية ، ثم اعلانه لنفسه ملكاً عليها وارساء دعائم نظام ملكى ، وراثى ، له ولأسرته من بعده .

وجدير بالذكر أن قادة الاسكندر منذ وفاته ٣٢٣ وحتى ٣١١ ق.م. حينما، تم توقيع اتفاقية بينهم اشتملت على [٥٣] :

(أ) تنازل بطلميوس عن جوف سوريا ، سبب الصراع مع مملكة سليوكوس المقدونية الجارة ، فى سوريا وبابل .

(ب) اعتراف أنيتجونوس (والى آسيا الصغرى) بزعامة كاساندروس ، رفيق السلاح المقدونى ، على اليونان ومقدونيا ، حتى يبلغ ابن الاسكندر (من زوجته الفارسية روكسانا) ، والمسمى باسم : الاسكندر الرابع ، سن الرشد .

(جـ) التوقيع على هذه الاتفاقية ، الودية ، بأسمائهم ، ووصفهم لأنفسهم بأنهم : «القائمون على الأمر» .

(د) تأريخ وثيقة الإتفاق باسم : الملك الطفل الاسكندر الرابع .

إذن ، حتى ذلك التاريخ ، أى عام ٣١١ ق.م، لم يجرؤ حاكم مقدونى على أن يعلن استقلاله بالإقليم الذى يحكمه ، وكانوا قد ارتأوا ترك الأمور تجرى فى أعنتها وأكتفوا بالتمتع بالإمتيازات الجمة داخل ولاياتهم ، والسلطة اللامحدودة لهم، حتى كانت الشرارة التى أبطلت مفعول الاتفاقية السابقة ، بعد توقيعها بعام واحد ، وذلك عندما أقدم كاساندروس ، حاكم مقدونيا واليونان ، والأمين على عرش الاسكندر والوصى على بلوغ الاسكندر الرابع سن الرشد (؟!!) ، على أفظع جريمة سياسية ، ذات أطماع شخصية بحتة ، إذ قتل بن الاسكندر ، الملك الطفل ، وكذلك أمه !!!؟ **وهكذا انتهت أسرة الاسكندر الأكبر نهائياً عام ٣١٠ ق.م[٥٤]، بعد ما لايزيد عن (١٣) عاماً من وفاة صاحب الإمبراطورية**

---

(٥٣) عن هذه الاتفاقية وظروفها، يُعتبر المؤرخ ديودوروس الصقلى (أزدهر ٦٠-٣٠ ق.م) ، بالرغم من عدم معاصرته للحدث ، هو المصدر الرئيسى راجع Diodorus, XIX : 75, ١-٦ ,

(٥٤) مصطفى العبادى، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

المقدونية العالمية . وهكذا ، أيضاً ، كان الوفاء المقدونى من القادة لقائدهم . وصاحب الفضل الأول عليهم جميعاً ؟!!

ولم يكن ذاك التاريخ هو نهاية الصراع بين ورثة عرش الاسكندر وبين القادة المقدونيين، لأن إرداة الله قضت بألا يترك الاسكندر عند وفاته وصية محددة يعين فيها من يخلفه . وأغلب الظن أن كل ما ورد – عند المؤرخين اللاحقين – من روايات تزعم غير ذلك مشكوك فيها لأنها ، على الأرجح ، تخدم أهدافاً وأطماعاً سياسية لشخصيات مقدونية ماكرة (٥٥)، بل الحق يقال أن بداية صراعهم كانت غداة وفاته وظلت قرابة نصف قرن .

ويصف العلامة العربى الأول لتاريخ العصر الهيللينستى فى الشرق ، الأستاذ الدكتور ابراهيم نصحى (٥٦)، ما كانت عليه الأوضاع آنذاك. قائلاً :

«وسرعان ما أفضت المنافسة المسلحة بينهم إلى ذلك الصراع الذى بدأ فى عام ٣٢١ واحتدم مدة تزيد على الأربعين عاماً وتمخض عنه فصم عرى الامبراطورية المقدونية وقيام ثلاث ممالك على أنقاضها . وقد ساعد على بلوغ هذه النتيجة أن الامبراطورية كانت تتألف من أجزاء غير متجانسة ، لم يكن يربط بعضها ببعض إلا قيام سلطة مركزية موحدة . وبمجرد انقسام هذه السلطة على نفسها ساعد على تقطيع أوصال الامبراطورية تضارب الصوالح واختلاف العادات والحضارة(٥٧) » .

وهكذا تكاتفت عوامل كثيرة لانهيار امبراطورية الاسكندر ، من بعده ، منها كما جاء فى الفقرة السابقة – ما يلى :

١ – عدم تجانس أنحاء الامبراطورية الواسعة من ناحية العناصر السكانية .

٢ – اختلاف الحضارات داخلها ، إلى حد التناقض ، بين شرقية وغربية .

٣ – اختلاف الورثة فيما بينهم وزيادة أطماع كل منهم وتضارب مصالحهم .

٤ – عدم حرص الخلفاء ، فى ممالكهم (وبخاصة فى مصر وسوريا) ، على إقامة

(٥٥) لقد ناقش أستاذنا الكبير الدكتور/ابراهيم نصحى. مشكلة ولاية الفرس مناقشة شافيه مستعرضاً كل الآراء وموقف كل القادة المقدونيين منها . راجع : تاريخ مصر في عصر البطالمة، الطبعة الخامسة (القاهرة) ، ١٩٨٠ ، ص ص ٤٥ – ٥١ .

(٥٦) أستاذنا هو أول عربى يحصل على دكتوراة في هذا التخصص، من الخارج (انجلترا) عام ١٩٣٧ ورسالته في الفنون البطلمية، منشورة هناك بالإنجليزية .

(٥٧) المرجع السابق : ص ٥٠ .

دول قومية ، بمشاركة السكان الأصليين ، والتأكيد على الحكم الوراثى المقدونى ، بين أفراد البيت الحاكم للأسرة المؤسسة .

٥ - تفاوت أعداد وقدرات الجنود المقدونيين فى جيش كل مملكة مقدونية على حده ، مما أوضح وأظهر نقاط الضعف والقوة لكل منها(٥٨) .

٦ - اتخاذ القتل(٥٩) (كما ذكرنا آنفا) وسيلة سريعة لتحقيق المصالح والمطامع ، وكذلك اتخاذ الزواج السياسى ، وسيلة لضمان التحالفات السياسية (٦٠) .

ولقد كانت مساوئ النظام المقدونى، فى مصر ، ظاهرة ، منذ أن دخلها الاسكندر عام ٣٣٢ ق . م . ، ولكنها أقل سوءاً ، عما أصبحت عليه بعد ذلك فى عهد البطالمة ، منذ عام ٣٢٣ ق . م .

فماذا فعل الإسكندر بمصر ، وماذا فعل البطالمة بها ؟ !!!

أولاً : مصر فى عهد الإسكندر الأكبر :

يقول الأستاذ الدكتور العبادى :

«كان الاسكندر سياسياً ماهراً ، بقدر ما كان قائداً نابغة ، يُحسِن معاملة الناس وكسب ودهم (٦١)» .

هكذا كانت البداية الصحيحة ، وكانت بحق - فى رأينا - أهم عناصر نجاح الاسكندر ، على المستويين العسكرى والسياسى معاً . ففى مصر ، بمجرد وصوله وترحيب* المصريين له، كمنقذ لهم من الفرس ، بادلهم وداً بود ، وتقرب إليهم فى

---

(٥٨) كان برديكاس (Pérdicas) ، بوصفه القائد العام للجيش المقدونى ، بعد الاسكندر، هو أقوى الخلفاء ، وتمتع ، لذلك، بأكبر قدر من السلطان فى الأمبراطورية . راجع
Rostovtzeff, Social and Economic History of the Hellenistic World, 1941, p. 6 .

(٥٩) كان برديكاس، أول من استخدم تلك الوسيلة لتحقيق أغراضه في التسلط والانفراد بعرش الأمبراطورية المقدونية بعد الاسكندر، وأقدم علي قتل شخصيتين (زوجة وقائداً) بسبب عدم طاعتهما لأوامره منذ العام الثانى لوفاة الاسكندر. راجع /نصحى، المرجع السابق، ص ص ٦٢ - ٦٤ .

(٦٠) قام أنتيباتروس بعمل تحالف ضد برديكاس، من كراتيروس وبطلميوس، وزوّجَ الأول ابنته فيلا، وللثانى ابنته الأخرى يوروديكى. راجع /نصحى ، المرجع نفسه .

(٦١) المرجع السابق ، ص ١٩ .

(*) لم يكن ترحيب المصريين لغزو الإسكندر لبلدهم على إطلاقه ، وإلا لأصبح ذلك أغرب خبر فى تاريخ الأمم القديمة جميعًا ، وذلك الترحيب كان له أسبابه القوية أحصيناها فى تقديمنا لدراسة حديثة بعنوان « المصريون فى مواجهة البطالمة » ، فى ندوة : المصريون والسلطة عبر العصور ، بالجمعية التاريخية المصرية : ٢٨ - ٣٠ مارس ٢٠٠٠ م (تحت الطبع) .

منف وزار معبد الإله بتاح وقدم له القرابين ، وقيل أنه نصب نفسه فرعوناً وتزى بالزى الفرعونى ، حسب التقاليد المصرية القديمة (٦٢) . كما أنه أرضى اليونانيين كذلك فأقام لهم مهرجاناً موسيقياً ورياضياً وفقاً لتقاليدهم (٦٣) .

وعندما توجّه إلى شمال الدلتا ، بحذاء الفرع الغربى (٦٤) لها ، ووصل إلى الساحل الشمالى ، عند قرية مصرية قديمة تسمى «راقودة» (٦٥) وكانت تواجهها – فى البحر مباشرة –جزيرة صغيرة ، تسمى فاروس (٦٦)، أصدر الإسكندر أوامره بإنشاء مدينة جديدة ، هى (الإسكندرية Alexandreia) ، لتكون عاصمة (٦٧) أحدث لولاية مصر ، فى امبراطوريته الواسعة .

ولأسباب لا نعرفها ، ولا يمكن التكهن بها من الروايات الواردة حولها ، أقدم الاسكندر على مخاطرة ومغامرة غريبة ، فى قلب الصحراء الغربية ، عندما صمم على زيارة معبد الوحى (To Manteion) للإله آمون ، فى واحة سيوه . ولقد اختلفت الآراء اختلافاً كبيراً حول هدف الاسكندر من تلك الزيارة الشاقة والإصرار عليها(٦٧)، حتى أن بعض المؤرخين المحدثين ينكرها تماماً ولا يقر بحدوثها أصلاً(٦٨). أما علماؤنا ، الأستاذ الدكتور ابراهيم نصحى ، وكذلك الأستاذ الدكتور مصطفى العبادى ، فإنهما يقران تلك الزيارة ، وإن اختلف تعليلهما لبواعثها لدى الاسكندر . فالأول (٦٩) وجد فى تعاليم أرسطو، مربى الاسكندر حول ضرورة تأليه القائد ، أساساً لتلك الزيارة فى فكر ذاك العبقرى المقدونى الشاب . بينما اعتبر الثانى (٧٠) ، الثقافة الأسطورية البطولية ، لأبطال اليونان القدماء ، أمثال برسيوس

(٦٢) المرجع نفسه .
(٦٣) المرجع نفسه .
(٦٤) كان يسمي – كما ذكرت البردية البطليمة – الفرع الكانوبى ، نسبة إلي مدينة «كانوب» عليه.
(٦٥) راكوتيس (Rakotis) – كما أسماها اليونانيون آنذاك .
(٦٦) بدأ تأسيس المدينة في سنة ٣٣١ ق. م، وكان ذلك يوافق ٧ إبريل من كل عام. بينما في العصر الرومانى (طبقاً لرواية كاليسثينيس المزيف : Pseudo - Kallisthenes, 1, 31 : 2 أصبح ذلك يوافق ٢٥ طوبة (بالمصرى القديم) أى (٢٠) يناير (بالتاريخ الميلادى) أو حسب التقويم اليونانى . راجع. Arrianos, III - 1. ; Curtius Rufus, IV, 8 : 5
(٦٧) ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص ص ٢٢ – ٢٣ .
(٦٨) (68) Tarn, Alexander the Great, p. 347 ff
أو/ ترجمته العربية بقلم زكى على، الاسكندر الأكبر ، القاهرة (؟!) ، ص ص ٨٠ – ٨٤ .
(٦٩) ابراهيم نصحى، المرجع السابق ، ص ٢٣ .
(٧٠) مصطفى العبادى : المرجع السابق ، ص ٢١ .

وهيراكليس ، هما السبب فى تصرف الاسكندر ، وقال :

«والإسكندر بهذا العمل يضيف حلقة إلى تقليد دينى عريق يليق بشخصيته البطولية» .

وإننا، أخيراً، لا نجد ما يمنع أن يكون السبب مزيجاً من التفسيرين السابقين، ولا يمكن الفصل بينهما داخل الشخصية الواحدة ، فكلها تراث حضارى وكان قد فرض نفسه ، على مثقفى المنطقة، ولا سيما أنه يعزز المقومات الشخصية الفذة والروح الشبابية الطموحة ، لملك قادر، قادته الأقدار لكى يكون على رأس أعظم قوة عسكرية فى عصره ، فضلاً عن الخصال النادرة للاسكندر الذى جمع بين نقيضين ، حدة الذكاء والتعقل ، عن والده فيليب الثانى ، كما ورث حدة العاطفة والإيمان عن أمه أولمبياس (٧١) .

أما إذا نظرنا إلى النظام الإدارى والاقتصادى الذى وضعه الاسكندر لمصر ، فنجد أنه :

(أ) أقر نظامها الإدارى الرئيسى القديم كقسمين كبيرين :

الصعيد (Ano Aigyptos) والدلتا (Kato Aigyptos) .

(ب) عهد بادارة كل قسم فيها إلى موظف مصرى ، يتبعه مباشرة .

(جـ) أنشأ مقاطعتين جديدتين ، واحدة فى شرق الدلتا وسماها (العربية : Arabia ، والثانية فى غرب الدلتا وسماها «ليبيا» (Libyè) .

(د) عين على المقاطعتين (أوالمستعمرتين : apoikiai) حاكمين يونانيين من العناصر اليونانية المقيمة فى مصر لدرايتهم بها (٧٢) .

وعن الحامية العسكرية التى تركها الاسكندر فى مصر ، عند مغادرته لها لاستكمال فتوحاته الشرقية ، فالمراجع التاريخية ، استناداً إلى المصادر الكلاسيكية، تذكر أنه :

(أ) عين قائدين مقدونين لقيادة قوات المشاة والفرسان .

(ب) عين قائداً (يونانياً فى الغالب (٧٣)) لقيادة الأسطول .

(71) Renault, M., The Nature of Alexander, New York 1975.

(٧٢) مصطفى العبادى، المرجع السابق ، ص ص ٢١ - ٢٢.

(٧٣) وذلك لخبرة اليونانيين الطويلة فى البحار واستخدام السفن لنقل تجارتهم فى حوض البحر المتوسط الشرقى منذ مطلع القرن ٨ ق.م.

(جـ) عين قواداً آخرين للوحدات العسكرية الصغيرة ، في المعسكرات الدائمة ، في كل ممفيس[٧٤] (Memphis) – عاصمة مصر القديمة آنذاك وبلوزيوم (Pelusium) ، عند الفرما ، بالقرب من العريش .

وننتقل إلى أهم جانب يهم أولئك الأجانب ، الفاتحين لمصر ، ألا وهو الجانب الاقتصادى ، وثراء مصر الذى كان السبب الرئيسى وراء استعجال حملة الإسكندر عليها، قبل أن يستكمل عمليته فى تأديب الفرس ؟!!

ثانيًا : دور كيلومينيس التاريخى :

هنا ، نسمع من المصادر القديمة عن شخصية تدعى : كليومينيس (Kleoménes)، اليونانى النقراطيسى[٧٥]، وهو المسئول الذى كان الاسكندر الأكبر قد عهد له بالإشراف على الخزانة والشئون المالية (Tá oikonomiká) .

وذكر أستاذنا الجليل الدكتور مصطفى العبادى ، واصفاً خصال ذاك الرجل وأسلوبه الإدارى التجارى الجديد على مصر ، فقال :

« على أن كليومنيس لم يكن مجرد موظف كفء ، يتلقى تعليمات الملك لينفذها بإتقان ، وإنما كان تاجراً ومالياً ، من نوع فريد ، حتى لنعتبر فترة إشرافه على المالية المصرية ، تجربة فذة فى تاريخ الاقتصاد فقد أوتى هذا الرجل ذكاء حاداً ، وخبرة نادرة ، ليس بالسوق المصرية فحسب ، وإنما بالأسواق العالمية فى البحر (الأبيض) المتوسط حينئذ ، وعامل المالية المصرية كما يعامل التاجر الطموح ماليته الخاصة، وتاجر باسم الدولة [٧٦] » .

وكان هذا التاجر ، الداهية ، صاحب سياسة اقتصادية قوية تقوم على الإحتكار لأهم مصادر الثروة فى مصر ، آنذاك ، وهى القمح ، وجاءت خطواته ، لتحقيق هذا الهدف ، كالتالى :

١ – اتفق مع المزارعين ، الفلاحين ، على شراء القمح منهم ، مباشرة بالسعر الذى كانوا يصدرون به .

٢ – قضى على الوسطاء والتجار المنافسين له .

---

(٧٤) هى ميت رهينة، الحالية، وكانت تُختصر فى مراجعنا العربية، إلى «منف» حتي يومنا هذا .

(٧٥) أي من مدينة نُوكْراتيس (Naukratis) ، أقدم مستعمرة يونانية في مصر، منذ أواخر القرن ٧ ق.م ، حوالى ٦٣٠ – ٦١٥ ق.م .

(٧٦) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

٣ – استخدم شبكة متقنة من السماسرة والوكلاء ، تتبعه ، وتزوده بأخبار الأسعار العالمية للقمح ومكان ندرته .

٤ – استغل الضائقة الاقتصادية للشعوب، فى أى مكان، من حوض البحر المتوسط وباعه بأسعار – كما يقال – تراوحت ما بين ٣ – ٥ أضعاف سعره العادى(٧٧).

كما اشتهر بالخديعة والحيلة فى الحصول على المال من مصادره المضمونة وهذا ما تؤكده المصادر حول تصرفاته المريبة مع طبقة الكهنة الذين وصل به الإبتزاز والإرهاب معهم حداً ، لدرجة أنه اخترع الروايات والأكاذيب (٧٨) حتى يجبرهم على دفع الأموال التى يريدها منهم ، وبالتالى، يضعف مركزهم المالى، وتنتقل ثرواتهم إلى خزائنه هو .

وأخيراً يبقى سؤال ، طرحه – كما نفعل نحن كذلك فى مثل تلك الأمور – عالمنا الجليل الدكتور/العبادى ، هو :

«وهل قام كليومنيس بهذه التجارة لحسابه الخاص أم باسم الدولة ولصالحها(٧٩)» ؟

ويجيب أستاذنا عن ذلك بالإثبات، فى ضوء أدلة تاريخية لاحقة (٨٠)، تؤكد أن كليومنيس كان يتصرف على أنه رجل دولة، ويضع الدخل فى خزانة الحكومة التى سلمها ، مكرهاً ، لبطلميوس الأول، **عندما جاء ذاك القائد المقدونى، عقب وفاة الاسكندر، وقرر بينه وبين نفسه، استقطاع مصر له من الامبراطورية المقدونية حتى يتمكن هو وأسرته من بعده لتنفيذ مخططه الاستثمارى العظيم لمزيد من الأرباح والمكاسب .**

ويبدو أن سياسة كليومنيس الإقتصادية كانت قد أسعدت سيده ، الاسكندر الأكبر ، الذى (بالرغم من سوء سمعة موظفه كليومنيس، بين اليونانيين وغضبهم

(٧٧) المرجع السابق ، ص ٢٥ ، إذ بيع بـ(٣٢) دراخمة ، بينما كان سعره العادى ٥ – ١٠ دراخمة .

(٧٨) كان قد إدعى أن تمساحاً قد ابتلع أحد أتباعه، وانتقاماً منها ، أي التماسيح ، (والتي كانت مقدسة في أقليم الفيوم باسم «الإله سوبك» أمر بصيدها، مما أجبر الكهنة – في ذاك الإقليم – إلى تعويضه عن خسارته (؟!!) وجمعوا له مالاً كثيراً. راجع العبادى ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٧٩) المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(80) Diodorus Siculus (c. 60 - 30 B.C) , XVIII : 14 . 1 .

من أعمـاله واسـتـغلاله الجشع) أبقاه فى منصبـه طيلة حـياته ، ولم يخلعـه إلا بطلميـوس، الذى لفق له عدة تهم وتخلص منه ، طمعاً فى الأمـوال التى كان قد جمعها، خوفاً من مكانته ومقدرته فى مصر وتسلطه واحتكاره لتصدير القمح على المستوى العالمى القديم .

وكتقييم عام شامل لنظم الاسكندر فى مصر، سوف نستعير، عن اقتناع تام، كلمات الدكتور العبادى الذى يقول :

«ونظرة سريعة إلى هذا النظام تكشف لنا نقصاً ظاهراً فيه ، وهو عدم وجود منصب حاكم عام للبلاد، وإنما وزعت السلطة، بعناية شديدة، بين المشرفين على الإدارة والشئون العسكرية والشئون المالية (٨١) » .

وكـان الاسكندر، بذلك ، الأسـتـاذ الذى علم اوكـتـافيـانوس ، (الإمـبـراطـور الأول: أوجوسـتوس (Augustus) عندما احـتل مصـر ، عـام ٣٠ ق.م، لأن يفـعل الشيئ نفسـه ، وأدعى أنه ضمـها لأملاك الشـعب الرومـانى، وكانت ولاية خاصـة له(٨٢) .

(٨١) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(82) El Saadani Mahmoud : "Egypt as a "Provincia Romana : A Re consideration through Dio's Narrative , بحث فى ندوة العلاقات المصرية الايطالية، بعنوان «العلاقات الحضارية بين مصر وروما» ، القاهرة ١٩٩٠. لم ينشر بعد (!!؟) .

ثانياً : مصر فى عهد البطالمة

تقديم :

بداية ، لابد أن نقرر حقيقة تاريخية ثابتة ، اعترف بها علامة العصر الهيلليستى الأول تارن (Tarn) وهى أنه :

إذا كان الغزو المقدونى لكل من مصر وآسيا قد عاد على المقدونيين بمكاسب (مادية) جمة ، إلا أنه قد خلق لهم ، أيضاً ، مشكلات جديدة ، لم يكن لهم عهد بها(٨٣) . ذلك لأنه :

١ - بينما احتفظ المقدونيون ببعض حقوقهم ، كعنصر سيادى (بعد وفاة الاسكندر) وإبان الحروب التى تلت ذلك بينهم ، المعروفة باسم «حروب الورثة» ، إلا أنهم قد فقدوا تلك الحقوق بعد عام ٣٠٠ ق. م، لأنهم أصبحوا ، منذ ذلك الوقت أقليات صغيرة ، فى جيوش متفرقة ، تتكون من عناصر مختلطة عمادها الرئيسى الجنود المرتزقة الأجانب من جنسيات عديدة .

٢ - كما أن الملكيات المطلقة التى أقاموها فى الشرق القديم :

المملكة السليوكية ، فى سوريا ، والمملكة البطلمية فى مصر ، قد أنشئت كل منهما وفق قواعد دستورية لا تمت للنظم الملكية المقدونية بأية صلة ، فيما عدا حق المقدونين فى تقديم التماسات إلى الملك البطلمى ، وكان ذلك معروفاً فى مصر البطلمية(٨٤) .

وتجدر الاشارة فى هذا المقام إلى مظاهر الاختلاف هذه التى قصدها تارن بحديثه الشجى وأسفه الشديد وحسرته على ما آل إليه النظام الملكى المقدونى على أيدى الشرقيين ، داخل النظامين المقدونيين ، على أرض الشرق ، سواء ما كان

(83) Tarn, W. W., Hellenistic Civilisation, p. 48 .

(٨٤) حول مشاكل المقدونيين الخارجية عقب وفاة الاسكندر ، وقيام الممالك الهيلليستية فى الشرق ، راجع أيضاً: (84) I bid., pp. 48 - 49 . Cf . Goodenough, E. R., " The political philosohpy of Hellenistic Kingship. " , Yale Class. Studies, I (1928), p. 56 ; Mc E wan, C. W., The Oriental Origin of Hellenistic Kingship, 1934 .

وحول الدبلوماسية البطلمية فى مصر ومجالسها التشريعية ومكانة المقدونيين فيها . راجع : Collomp, P. Recherches sur la chancelleric et la diplomatique des Lagides, ch. III .

قائماً فى سوريا ، عند السليوكيين ، أو فى مصر ، عند البطالمة . ويهمنا – هنا – أن نحصى تلك الإضافات الشرقية ، التى تأثر بها المقدونيون وأقاموا عليها أركان ممالكهم . يقول تارن أنه إذا كان المقدونيون هم الذين كونوا المملكتين ، السابقتى الذكر ، فإن آسيا ومصر قد جعلا المقدونيين كما يشاءا :

(أ) فأصبح الملك ، هو الدولة ، ذو سلطة مطلقة ويقوم بكل الأعباء ، كما كان داريوس ، الفارسى ، وتحوتموس الثالث المصرى .

(ب) وأشرك الملوك السليوكيون والبطالمة ، فى الغالب ، ولى العهد ، إلى جوارهم فى الحكم ، أى مع والدهم الملك ، فى سنوات عمره الأخيرة .

ويختم حديثه هذا بجملة ، كنتيجة طبيعية لمثل ذاك النظام، فى رأيه الشخصى وحده لا شك ، فيقول تارن :

"....... among the Ptolemies dynastic murder was not uncommon , and for over a century prevented civil war .(85)" .

مما يعنى أن تلك الأنظمة الملكية المقدونية ، التى سادت فيها المعايير الشرقية ، أسفرت ، فى الدولة البطلمية فى مصر ، عن ظاهرة قتل شخصيات البيت الحاكم (للتنافس الشديد بينهم) وكان ذلك أمراً عادياً وشائعاً ، وأدى ذلك (فى رأى تارن ، كجانب إيجابى لهذه الظاهرة) إلى منع وقوع حرب أهلية لأكثر من قرن من الزمان (٨٦) . والحق ، أننى ، أحار فى موقف ذلك العلامة ، وتفسيره البراجماتى (٨٧) ، وتبريره لعمليات التصفية الجسدية كأقصر الطرق لتحقيق الأهداف الشخصية ، حيث يجدها عاملاً قوياً وأسلوباً عملياً لمنع حدوث الحروب الأهلية بين أدعياء العرش من أفراد البيت الحاكم . فنظريته ، إذن ، تقوم على ضرورة التضحية بفرد واحد ، حتى لو كان أميراً ، فى سبيل الإبقاء على وحدة الدولة وكيانها وعدم المخاطرة بزج المجتمع فى أتون حرب أهلية بين المؤيدين والمعارضين لهذا أو ذاك .. هذا هو منطق أوربى حديث ، ربما كان أكثر فهماً لتصرفات أجداده القدماء من المقدونيين !!

(85) I bid. p. 49 .

(86) I bid .

(٨٧) "براجماتى" ، مذهب فلسفى ، يعنى : الواقعية ، وفلسفة المصلحة ، أو الفائدة النفعية ، وهو اشتقاق من كلمة يونانية (Prágma) وتعنى : الشئ الواقع ، الموجود ، والقائم بالفعل على أرض الواقع .

ولكننا نختلف معه كليةً ، من وجهة نظرنا نحن الشرقيين ، الذين عرفنا ، في الماضى البعيد ، فى كل حضاراتنا القديمة (من بابلية وآشورية وسورية ومصرية) معانى الوفاء والتقدير والعرفان، وكثرة استخدام عبارات التبجيل والاجلال لدرجة النفاق والتملق ، ولم نعرف عبر آلاف السنين شيوع مثل تلك الظاهرة الخطيرة داخل أروقة القصور الملكية الشرقية ، وبين أفراد البيوت والأسر الحاكمة .

إذن من السبب وراء ذلك ؟!

إنه الزمان والإنسان ، ولا ذنب للمكان .. فالشرق كان هو الشرق بتراثه وتقاليده ، ولكن الزمن قد تغير ، واختلف معه كل شئ ، حيث ساد إنسان آخر ، على أرض المنطقة ، وكان العنصر المقدونى أمام تحدى حضارى صعب رسب فيه بجداره وبسبب طمعه وجشعه أحلّ لنفسه قتل الأخ والأم والأخت ، بل والإبن كذلك ؟!!.

هنا ، يثار السؤال ، وماذا عن سياسة البطالمة فى مصر ؟!! وتحديداً ، بعد أن عرفنا سياسة الاسكندر الذكية لأغنى إقليم فى العالم القديم ، وسعادته ورضاه عن انجازات كليومنيس السكندرى الذى ملأ خزانة الولاية ، بأسلوب اقتصادى حر، قام على الاستغلال وانتهاز الفرص واتباع كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لتحقيق هدفه وهدف سيده الأكبر ، قائد الفتوحات الأعظم ، الاسكندر المقدونى .

إن الدارسين للعصر الهيللينستى محظوظون حقاً وذلك بسبب توفر المادة البحثية وتنوع المصادر الوثائقية عن هذا العصر ، بصفة عامة ، وعن مصر البطلمية بصفة خاصة . فلقد تم الكشف عن آلاف البرديات اليونانية واللاتينية ، وغيرها - وإن كان أقل عدداً - مكتوبة بالخطوط المصرية القديمة للغة بلاد الفراعنة ، وذلك منذ النصف الثانى للقرن ١٨ الميلادى (٨٨) . وتعتبر مصر ، بفضل الوثائق البردية ، صاحبة أوضح صورة قديمة ، أفضل بكثير من أية دولة

(٨٨) عن قصة الاكتشافات البردية فى مصر والتعريف بصناعته ونشأة علم البردى وقيمته التاريخية ، راجع : أيدرس بل ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، تعليق وترجمة الدكتور/عبد اللطيف أحمد على . الطبعة الثانية - ١٩٦٨ ، ص ص ١- ٣٥ .كما لايفوتنا ذكر أشمل دراسة بقلم عربى ، عن البردى كمادة وثائقية مصرية أصيلة ، وهى لصاحبها العلامة الكبير الأستاذ / زكى على : البردى (علم مصرى أصيل) ، القاهرة ١٩٨٨ (طبعات متعددة) .

أخرى فى العالم الهيللينستى ، وإن كانت لا تزال هناك – حتى الآن – بعض التحفظات على ملامح تلك الصورة الكلية ومن هذه التحفظات ما يلى :

(١) أن الاكتشافات البردية جاءت صدفة ، وليس هناك ما يمنع من اكتشاف المزيد ، وبالتالى استكمال أو تعديل ملامح تلك الصورة .

(٢) أن مكان العثور على تلك البرديات تركز على الأقاليم المصرية ، خارج العاصمة البطلمية فى الاسكندرية القديمة ، مما يؤكد أن الاهتمام بالمحليات – آنذاك – ربما فاق مثيله فى العاصمة ، أو – بالقدر نفسه – أنه مازال هناك أمل فى العثور على برديات أخرى توضح السياسات العليا للحكومة المركزية فى العاصمة .

(٣) أن البرديات المصرية (ونقصد المكتشفة فى مصر) ، بالرغم من أنها تصور الحياة والمجتمع اليونانى فى مصر ، فإن مصر عالم كبير فى حد ذاته(٨٩) ، لها نظامها الاقتصادى الخاص بها منذ أقدم العصور ، ومع ذلك فإن تلك البرديات ، من ناحية أخرى، تلقى ضوءاً قليلاً على العالم الهيللينستى خارج حدودها .

(89) Tarn, op. cit., p. 178 : " Moreover Egypt is a world in itself,.........."

سياسة البطالمة الداخلية

يجب أن ننوه ، بادئ ذى بدء ، إلى أننا لن نتمكن من استعراض تاريخ مصر السياسى تحت حكم كل الملوك البطالمة واحداً واحداً ، بل سنوجز القول – هنا – فى خطوط عامة لا سيما سياسة مؤسس تلك المملكة كما كان يتمناها ، وكما نفذها فعلاً ، ثم نحاول التعرف على طرائق حكم الخلفاء ، الإبناء ، من بعده ، وعلى انجازاتهم وظروف البلاد فى عهدهم ، واضعين أيدينا على أهم الأحداث والتطورات التى فرضت نفسها على مسرح السياسة المحلية والدولية آنذاك . وبصفة خاصة علاقة الدولة البطلمية مع روما ، ومراحل تطور تلك العلاقة ، مع ابراز كل الجوانب الإيجابية والسلبية لتلك السياسات جميعها .

يقول تارن (٩٠)

To describe the ptolemaic system is to describe a body without a head, for all threads ran to Alexandria, and of the central bureaux there nothing is known; the extant information comes from the country" .

بمعنى أن النظام البطلمى ، فى مصر ، هو أشبه بجَسَد بلا رأس . ذلك لأنه فى الوقت الذى تتجمع فيه كل خيوط الإدارة البطلمية لمصر فى الإسكندرية ، فإننا لا نعرف شيئاً عن ذلك المراكز الرئيسى فى الحكم ، بينما تأتينا كل المعلومات التفصيلية من الأقاليم (الأرياف) !!!؟

فماذا فعل المؤسس ، بطلميوس بن لاجوس ، بمصر وماذا فعل خلفاؤه من بعده ؟!

إن المصادر الوثائقية ، البردية بصفة خاصة ، لا يؤرّخ معظمها بفترة حكم بطلميوس الأول (٩١) (٣٢٣ – ٢٨٥ ق.م.) ، مما يجعل المصادر اللاحقة هى صاحبة الفضل فى تنوير الدراسين بانجازات ذلك المؤسس ، حتى ولو كانت غير معاصرة للأحداث التى تناولتها ، لأنها ليست بعيدة كثيراً عن تاريخ وقوعها ،

(90) Op. Cit., p. 186 .

(٩١) كان يلقب – في المصادر البردية اللاحقة – باسم «سوتير» (Sōtér) ، بمعني «المنقذ ، وقد أطلق أهل جزيرة رودوس عليه هذا اللقب لنجدته لهم ، ضد أحد القادة المقدونيين الآخرين، الطامعين ، الذى حاصر الجزيرة وأراد السيطرة عليها .

فأغلبها يعود إلى حكم بطلميوس الثانى [٩٢] ، حيث تزداد عدداً وتنوعاً ، ابتداء من منتصف القرن الثالث ق . م. [٩٣] .

بطلميوس الأول

[(واليــاً : ٣٢٣ ← ٣٠٥ / ٣٠٤ ق.م.)
+ ملكاً : ٣٠٥/٣٠٤ ← ٢٨٣/٢٨٢ ق.م.)] [٩٤]

أولاً : السياسة الداخلية :

يُعتبر المؤرخان ديودوروس الصقلى (٦٠ - ٣٠ ق.م.) ، وأريانوس (١١٧ - ١٣٨م) من أهم المصادر الكلاسيكية - وإن كانا غير معاصرِين - حول سياسة البطالمة الخارجية ، ولكن حول السياسة الداخلية فإن نتائج الحفائر وغيرها ، من مادة أثرية ، أمثال النقوش والعملة وأوراق البردى ، هى التى تكون مادتنا الوثائقية، اليقينية تقريباً ، والتى تعكس لنا الصورة ، من الداخلِ ، لحياة المجتمع البطلمى واهتماماته العديدة ، ولكننا لسنا محظوظين إذ أن المكتشَف - حتى الآن - من تلك الوثائق ، والتى تؤرخ بفترة حكم بطلميوس الأول - بصفة خاصة - نادر ومشتت الموضوعات .

(أ) : السلطة الملكية :

وهنا تبرز أولى هزائم النظم المقدونية أمام أنظمة الحكم الشرقية للحكم . . ليس لأن الثانية أفضل من الأولى ، بل لأن نظم الحكم الشرقية ، فى مصر القديمة وكذلك فى العراق القديمة ، وحتى فى فارس القديمة ، تحقق طموحات أولئك جميعاً فى الاستغلال والتحكم والسيطرة المطلقة فى رعاياهم ، أكثر مما كانت تضمنه لهم تقاليد وأعراف الحكم المقدونى فى مقدونيا ذاتها .

---

(٩٢) كان يُلقب باسم «فيلادلفوس» (Philádelphos) ، بمعني «المُحب لأخته» «أرسينوى» ، التي تزوجها ، خروجاً علي العرف والتقاليد آنذاك ، وكانت هي المقصودة ، أولاً ، بذاك اللقب ، أي: «المحبة لأخيها» .

(٩٣) راجع /عبد اللطيف أحمد علي، الجزء التاريخي بقلمه هو إضافة إلي ترجمة كتاب أيدرس بل ، مصر من الإسكندر الأكبر حتي الفتح العربي، الطبعة الثانية (القاهرة) ١٩٦٨ ، ص ٢٠٢ .

(٩٤) هذه التواريخ ليست تواريخ ميلاد ووفاة ، بل تواريخ الحكم المطلق (كملك) فى الثانية ، وكوالى ، بإتفاق الخلفاء (Diadochoi) السرى فيما بينهم ، عقب وفاة الإسكندر ، فى المرحلة الأولى .

ذلك لأن تعيين الملك كان حقاً مطلقاً للجيش المقدونى وحده ، وليس وراثياً، ولا يتدخل الجيش فى السياسة، بينما، آنئذ في الشرق القديم، كان النظام الملكى : مطلقاً ، ووراثياً ، والإهياً .. فهل بعد كل ذلك من حسنات ، ولماذا لا يأخذ به القادة المقدونيون وهو يحقق ويضمن لهم كافة أطماعهم واستقرار سلطانهم ؟!!

ولذلك نجد تارن (Tarn) يعترف بتلك الحقيقة المخزية والفاضحة لأطماع الفاتحين ، الذين تناسوا أعراف بلادهم وتقاليدهم وضربوا بها عرض الحائط ، عند أول اختبار حقيقي لنواياهم .. ونقول لعالمنا الجليل «تارن» الذى ظهر أسفه واضحاً فى كلماته : «فلا تأس عليهم ، يا تارن، إنها حقيقة النفس الإنسانية الأمارة بالسوء دائماً ، ولا سيما لو كانت طامعة وحاقدة وسارت آلاف الكيلومترات ، انتظاراً وشوقاً لمثل ذلك اليوم ، يوم السيادة والتحكم .. فماذا تنتظر منهم إذن؟!!» .

يقول تارن أسفاً :

If Macedonia made the monarchies of the Seleucids and the ptolemies, Asia and Egypt made them what they were; These kings were the State, absolutely and for all purposes, as much as Darius I or Thutmose III ; (95)

حقاً لقد وجد خلفاء الاسكندر ضالتهم المنشودة فى نظام الحكم الشرقى : الملكى – المطلق – الوراثى ، وم ثم أخذوا به ، وأصبحوا هم الدولة ، ذاتها ، يملكون كل شئ : ما على الأرض ، ومن على الأرض ، ويتصرفون فى كل شئ ، فى كل الأوقات ، وبكافة الطرق والوسائل التى تروق لهم . هذا ، بالإضافة إلى درجة أخرى من التكريم والتبجيل ، لم تعرفها مقدونيا ولا اليونان طيلة تاريخهما، وهى التأليه (٩٦) (Apothéosis) فقد ضمن الملوك المقدونيون فى الممالك الآسيوية وفى مصر ذلك لوجوده عندهم من القديم .

وفى مصر ، تحديداً ، كان الملك البطلمى ; ملكا ، وفرعونا وابن إله ، بالرغم من أنه ، من الناحية الأسمية البحتة كان يسمى ، قبل عام ٣٠٥ ق.م «نائب الملك» ، إلا أنه بعد ذلك أصبح الحاكم يسمى بالملك ، الإله ، ابن الاله ، وكان هو الرئيس الفعلى للبلاد سياسياً ، وعسكرياً ، ودينياً ، واجتماعيا (٩٧) .

(95) Op. cit., p. 49 .
(96) I bid.,

(٩٧) مصطفى العبادى ، العصر الهللينستى ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ٤٦ .

(ب) : أغرقة (٩٨) الإدارة البطلمية فى مصر :

لم يجد بطلميوس بدُاً من استخدام آلاف اليونانيين الموجودين ، من قبله فى مصر ، وكذلك الذين جاءوا معه بالآلاف فى جيشه ، ولا سيما بعد أن تأكد من أنهم هم الأعلم بأحوال مصر وأهلها . عندئذ اتخذ سياسة ثابتة له ، ولخلفائه من بعده ، تمثلت فى تنظيم وتشجيع الهجرة اليونانية إلى مصر ، ومساعدة العناصر اليونانية التى كانوا ، حتى فى مدنهم الأصلية ، داخل اليونان .

ففى مصر ، منح الجنود اليونانيين أراضيٍ ليقيموا عليها ويعيشوا من ريعها باستثمارها بطريقتهم الخاصة ، وقت السلمٍ وعمم هذا النظام على موظفي المملكة فى وقت لم تكن فيه المرتبات الشهرية قد عرفت بعد .

ويقول أستاذنا الفاضل الدكتور مصطفى العبادى ، فى هذا الصدد ، ما يلى : «على أى حال لم يجد بطلميوس عناء فى الحصول على أعداد كبيرة من الإغريق، فإن اشتهار مصر بالغنى ، واشتهار بطلميوس بالكرم ، جعل جماعات كبيرة منهم تأتى إلى مصر(٩٩)» .

ولعل رواية ديودوروس الصقلى(١٠٠) حول وصول (٨٠٠٠) ثمانية آلاف جندى يونانى ، مرتزق ، كانوا فى جيش ديمتريوس ، عقب هزيمته فى معركة غزة عام ٣١٢ ق. م ، أمام بطلميوس الأول ، الذى أمر بتوزيعهم فى بقاع مصر المختلفة ، تؤكد تلك السياسة منذ البدايات الأولى لوجود بطلميوس بن لاجوس فى مصر، وحتى قبل أن يعلن نفسه ملكا مستقلاً عليها . كما أن روايته الأخرى حول حرص الجنود اليونانيين (الذين يقعون أسرى أو يهزمون فى جيش بطلميوس أمام الجيوش الأخرى، ومحاولاتهم المستميتة لكى يرجعوا إلى مصر ، فراراً من الانضمام إلى قوات المنتصر ، وذلك بفضل حسن معاملة بطلميوس لهم وكثرة امتيازاتهم : من أرض وممتلكات ، فضلاً عن وجود أهليهم وذويهم بمصر) لهى خير دليل على طيب مقامهم فى مصر مقارنة بفقر بلادهم اليونان . وليس هناك

(٩٨) سأسمح لنفسي فقط باستخدام هذه الصفة المصدرية من لفظة «الإغريق» و التي لا أوافق عليها لأسباب لغوية وتاريخية كبديل عن لفظة اليونانيين ، الأصلية ، لأنه لا يوجد مثلها من لفظة «اليونان» ، يمكن أن تشتق من الحروف نفسها ، وإلا فإن اشتقاق « هَلّينة » من "Hellénes" ، أقدم إسم لليونان ، سيكون أدق فى الإستخدام ، ولكن « أغرقة » أكثر شيوعًا لدى القارئ العربي .

(٩٩) المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(100) Diodorus Siculus, Bibliothéhé, XIX : 85. 4.

أبلغ من قول تلميذ أرسطو ، ثيوفراستوس (Theophrastus) ، وعجبه الشديد من بلد يكرم وفادة العلماء والفلاسفة من كل مكان : فيقيمون ، مجاناً ، ويأكلون ، مجاناً ، ويأخذون رواتب شهرية ، لقاء أن يتفلسفوا (يتسفسطوا)(١٠١) !!! ذلك لأن الاسكندرية ولا سيما فى عهد بطلميوس الثانى ، فيلادلفوس ، كانت منارة علمية فى معهدها العلمى (الموسيون : Mouseion) ومكتباتها ، وما حوت ، لأكبر دليل على نهضتها آنذاك ، فجاءها العلماء والأدباء والفنانون من كل أرجاء العالم اليونانى ، طمعاً فى خيرها ورخائها وتكريم ملكها(١٠٢) .

ومع كل ذلك ، لا يجب أن ننسى أبداً أن هذا الثراء المادى الذى حرص البطالمة الأوائل على إظهاره والحصول عليه بشتى الطرق ، لم يستفد منه الشعب المصرى شيئاً :

صحيح أن البطالمة الأوائل حرصوا على تجميع الثروات فى أيديهم فاحتكروا كل شئ لصالحهم ، وفرضوا الضرائب على كل شئ بنسب ضريبية عالية (وصلت إلى ٣٣,٣ ٪) ، مثلاً ، على انتاج الكروم (١٠٣)) ، ولكن كل هذا المال الذى جمعوا من مصر وأهلها ، لم ينفقوه على صالح ذلك الشعب المسكين الذى أعطاهم إياه ودفعه لهم (١٠٤) وإذا كانوا قد أحسنوا استغلال الأراضى المصرية وقاموا باستثمارها أفضل استثمار ، فإن ذلك كان لصالح الحاكم البطلمى وبطانته المقدونية وأذنابه الموظفين اليونانيين ، ولم يستخدمه البطالمة ، لتحسين أحوال الشعب المصرى . كما أنه ربما لم يكن لدى البطالمة النية فى ظلم المصريين قاصدين ، ولكنهم أيضاً ، لم يكن لديهم النية لمساعدتهم(١٠٥) .

(جـ) إيجاد ديانة جديدة :

لما كان المجتمع المصرى ، آنذاك، فى أواخر القرن الرابع ق.م، يتكون من خليط عجيب من غالبية عظمى من المصريين ، فى كل أنحاء البلاد ، ولا سيما قرى مصر العديدة ، وكذلك كم هائل من الأجانب ، يتركزون فى المدن الكبرى ،

(١٠١) أي يقولون أي شئ في أي شئ (Sophistai) ، أي ليخوضوا في قضايا فلسفية (سفسطة) لا تغني ولا تسمن من جوع لصاحب الشأن .

(١٠٢) العبادي ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(103) Tarn, op. Cit., p. 193 .

(104) I bid., p. 208 .

(105) I bid., p. 209 : "There was no desire to oppress the Egyptians ; but there was no desire to help them."

ولا سيما بعد استقلال الدولة البطلمية عن بقية ممالك الامبراطورية المقدونية، منذ عام ٣٠٥ ق.م، كان صعباً على السلطة الحاكمة أن تلم شعث كل أولئك ليتعبدوا إلى إله واحد ، تحقق الإدارة العليا البطلمية للبلاد به هدف الاستقرار الدينى العقائدى للجميع حتى تضمن ولاء كل فئات الشعب المختلفة لزعامة دينية واحدة يسهل توجيهها من قبل الملك ، كما يسهل إرضائها وإخضاعها عند الضرورة . كانت المشكلة عويصة أمام وجود : مصريين ، ويونانيين ، وسوريين ، وفينيقيين ، وفرس، ويهود ، وفوق كل أولئك كان المقدونيون ، كل أولئك بدياناتهم وآلهتهم ورموزهم المقدسة . ومع ذلك حاول الملك البطلمى بإصرار على أهمية الهدف أن يجد حلاً تحقيقاً للوحدة الدينية لشعب المملكة الناهضة ، ضماناً لاستمرار الوحدة السياسية (١٠٦) .

ولقد وجد بطلميوس الأول (سوتير : Sotér) ضالته فى الإله المصرى أوزير آبيس ، الذى كان له أتباع أجانب كثيرون وله من الصفات ما يرشحه للقيام بدور الإله الجديد للملكة البطلمية الجديدة ، ولكن بعد إضافة بعض التعديل : **أولاً** – تم تغيير اسمه فأصبح سيرابيس (١٠٧) ، وليسهل نطقه على الأجانب ، من ناحية ، وليبدو جديداً مغايراً للأصل المصرى . **ثانياً** : تم تصويره على هيئة إنسانية ، كرجل ملتح ، جميل القسمات ، على غرار التماثيل اليونانية للألهة ، وذلك بدلاً من رمزه المقدس عند المصريين ، وهو العجل !!! ، ثم تم إنشاء معبد كبير له الاسكندرية ، فى الحى الشعبى . وظل ذلك المعبد هو المعبد الرئيسى والر لعبادة هذا الإله الجديد (١٠٨).

ويتضح ، جلياً ، من الأدلة الأثرية لمعابد ذلك الإله، وكذلك من النقوش والنصوص ، أنه كان معروفاً ومنتشراً وذائع الصيت خارج مصر ، أكثر من عبادته داخل مصر (١٠٩) .

لقد كان الثالوث المعبود ، فى العالم الهيللينستى ، وبصفة خاصة فى حوض

(١٠٦) راجع/ابراهيم نصحى، تاريخ مصر فى عصر البطالمة، الجزء الثانى ، ص ص ١٨٥ – ٢٧٠ لمزيد من التفاصيل حول سياسة البطالمة الدينية .

(١٠٧) "Serapis" أو "سرابيس (Sarapis)" ، كما جاء فى النصوص المؤرخة بالعصر البطلمى ، وكذلك الرومانى من بعده .

(١٠٨) العبادى ، المرجع السابق ، ص ص ٥١ – ٥٢ ، مما يؤكد النوايا السياسية للإدارة البطلمية وتوظيف الدين خدمة لأغراضها هى .

(١٠٩) هناك رسالة دكتوراة ، باليونانية الحديثة ، تمت فى مطلع السبعينات ، فى أثينا لصاحبها د. السمان ، عن "العبادات المصرية فى اليونان، فى العصرين البطلمى والرومانى ، بعنوان: Ai Aigyptiakai Latreiai en Helládi, Athenai 1970 (?)

البحر الإيجى ، هو سيرابيس ، وإيزيس ، وأنوبيس (وليس حربوكراتيس . الطفل ، بن ايزيس) ، وذلك لمنح ، هذا الإله الأخير ، الخلود لكل من يعبده وهو أعظم هدية لكل الموتى فى العالم الآخر (١١٠) .

كما يلاحظ ، من كثرة النصوص البردية المكتشفة داخل مصر أنه كانت هناك دعاية رسمية حكومية كبيرة لهذا الإله ، سيرابيس ، فى القرن الثالث ق.م. (١١١) كما تم إحصاء (٤٢) معبداً باسم هذا الإله فى كل مصر (١١٢) وربما كان ذلك من قبيل المبالغة أو عدم الدقة فى صحة الأثر (١١٣) .

ومع كل ذلك ، فقد كانت عبادة إيزيس (Isis) هى الأقوى والأكثر ذيوعاً وانتشاراً ، ولولاها ما دخل سيرابيس إلى عالم البحر المتوسط .. وقراءة سريعة لبعض نصوص الإهداءات إلى تلك الربة المصرية ، تكشف لنا عن الروح الطيبة والقوية التى غزت بها إيزيس العالم الخارجى ، حتى عبدت فى أثينا نفسها (١١٤).

وكمثال ، نسوق تلك السطور المترجمة عن نصوص بردية مكتشفة فى مصر ، حيث تقول الربة عن نفسها :

«أنا إيزيس . أنا التى يُسَمِّينَنى النساء إلاهة . إنّى أمرتُ بأن يحب الرجالِ النساءَ وجمعت بين الزوجة وزوجها . واخترعت عقد الزواج . وأمرت بأن تضع النساءُ أطفالاً ، وأن يحب الأطفالُ والديهم» (١١٥) .

وكانت ايزيس على حق حينما وصفت نفسها (؟!) بأنها هى : «فخر للنساء» لأنها هى التى أعطتهن «قوة مساوية للرجال» (١١٦) ومن هنا كان اكتساح تلك الربة وزيادة عدد المؤمنات والمؤمنين بها فى كل العالم القديم، لأنها ببساطة تلبى متطلبات الإنسان العادية ، رجلاً كان أم امرأة ، فى حياة عائلية مستقرة، يرفرف عليها السلام والأخلاق الحميدة ، ولذلك نجد «تارن» ، يحقد على انتصارها الإيماني هذا (بالرغم من كونها عبادة وثنية قديمة) فيقول :

"In That strength Isis swept the Mediterranean. (117)"

(110) Roussel, Les Cultes Égyptiens á Délos, Nr. 277 . & Papyri Oxy., Nr. 1380 .

(111) E. g., P. Cairo Zenon, Nr. 59034 .

(112) Aristides, Eis tón Sarápin, 1, p.96.

(113) Tarn, op. Cit., p. 357.

(114) I bid., p. 356 .

(115) Tarn, op. cit., p. 359 .

(116) P. Oxy., Nr. 1380 II . 130, 214.

(117) Op. cit., p. 359 .

سياسات البطالمة الأوائل

(فى سطور)

إنه إذا كان الملوك البطالمة الأوائل (وتحديداً : الأول ، المؤسس [١١٨] ، ثم بطلميوس الثانى[١١٩] ، فيلادلفوس ، ثم بطلميوس الثالث [١٢٠] ، يوارجتيس ، أى منذ عام سنة ٣٠٥ وحتى عام ٢٢١ ق.م، أى لمدة تقارب القرن والربع من الزمان) هم أصحاب الإنجاز الحقيقى لمملكة البطالمة على أرض مصر الفرعونية ، فإن بقية البطالمة ، منذ ذاك التاريخ وابتداء من بطلميوس الرابع (فيلوباتور : ٢٢١ - ٢٠٥ ق.م.) لم يستطيعوا الحفاظ على ما أنجزه أولئك الأوائل وبدأت بوادر الضعف والانحلال تدب فى أركان تلك المملكة، لأسباب عديدة متفرقة ويمكن ايجازها فى عدة نقاط رئيسية هى :

(١) الضعف السياسى داخل البيت البطلمى الحاكم ووصول ملوك أطفال إلى العرش ، واطلاق يد الأوصياء من الوزراء ورجالات الجيش فى التصرف كل حسب هواه ومصالحه .

(٢) اشتداد واستمرار طمع القوى الخارجية فى أملاك البطالمة ، سواء الخارجية منها (جوف سوريا) أو حتى المملكة ذاتها داخل الحدود المصرية ، كما أكدت ذلك ، من ناحية ، الحروب السورية الخمس ، ومن ناحية أخرى، فرض الوصاية الرومانية على مصر والعرش البطلمى بدعوى فض نزاعات الإخوة على حكم المملكة .

(٣)كثرة الثورات الوطنية المصرية لاحساسها بالظلم الشديد وعدم مساواتها ببقية الأجانب[١٢١] ، ولا سيما بعد تأكيد الوجود المصرى وانتصاره فى معركة رفح

---

(١١٨) ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، (الطبعة الخامسة) ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ص ٥٢ - ١٠١.

(١١٩) المرجع نفسه ، ص ص ١٠١ - ١٠٢ .

(١٢٠) المرجع نفسه ، ص ص ١٣١ - ١٤٦ .

(١٢١) بالرغم من أن العلامة أيدرس بل (مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى) ، نقله إلى العربية وأضاف إليه الدكتور/عبد اللطيف أحمد علي ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ص ٤٤ - ٥٢ ، يدافع عن سياسات البطالمة الداخلية تجاه القوميات المختلفة في مملكتهم ، ولا يوافق على اتهامهم باتباع سياسة التمييز العنصري بين فئات المجتمع أنذاك ، إلا أنه يقر بوجود أحساس لدي المصريين ، عند المعاملة معهم ، بانهم أدنياء ، مغلوبين علي أمرهم ، ويصرح قائلاً : (ص ٤٩) : «وازداد احساسهم هذا وضوحاً نتيجة لانعدام المساواة (بينهم وبين الإغريق) في الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ......»

٢١٧ ق . م ، بفضل عدة آلاف من الفلاحين المصريين الذين دافعوا باستماتة عن بلدهم ضد الملك السورى (السليوكى) ، أنطيوخوس الثالث ، الطامع فى المملكة .

فماذا كانت سياسة هؤلاء الثلاثة الأوائل ، وبصفة خاصة ، على الصعيد الخارجى ، الذى فرض نفسه عليهم جميعاً ، وهى مرحلة تكوين المملكة وتحديد علاقاتها الخارجية وترسيم حدودها مع جيرانها ، كل ذلك فى منطقة لا تعرف – بعد وفاة الإسكندر – سوى لغة القوة والمقدرة ، باعتبارهم جميعاً ، أى خلفاء الإسكندر (Diádokhoi) ، قادة عسكريين لكل منهم أطماعه وطموحاته قدر إمكاناته الشخصية ؟!!

تقييم شامل لسياسة البطالمة الأوائل الخارجية
(من ٣٢٣ ق.م حتي ٢١٧ ق.م.)

اختلف العلماء المتخصصون فى تقييمهم لسياسة البطالمة الخارجية ولا سيما فى مرحلة مملكتهم الأولى (مرحلة التكوين والتدعيم) اختلافاً بيناً وصل إلى حد التناقض فى الرأى .

أولاً : فها هو العلامة كورنمان (Kornemann) ، يرى بأن البطالمة الأوائل ، وشأنهم فى ذلك شأن الاسكندر الأكبر ، كانوا يطمحون إلى تكوين امبراطورية عالمية (١٢٢)

ثانياً : بينما يرى عالم آخر وهو ڤيلكن (Wilken) ، الرأى نفسه تقريباً ، مع التركيز على اتخاذ البطالمة لمصر ، كقاعدة اقتصادية حيوية وأساسية لتدعيم مركزهم ولتحقيق سياساتهم الاستعمارية الهجومية الخارجية، أملاً فى تكوين امبراطورية بحرية فى البحر المتوسط (١٢٣) أى أن مصر ، بالنسبة للبطالمة . لم تكن سوى وسيلة – للحصول على الثروة اللازمة لتحقيق أهداف خارجية ، وهى القيام بالدور الأول فى سياسة حوض البحر المتوسط (١٢٤)

ثالثاً : أما رستوفتزف (١٢٥) (Rostovtzeff) ، فيرى أن البطالمة كانوا

---

(122) Klio, XVI (1916) , p. 229 .

(١٢٣) إبراهيم نصحى، المرجع السابق ، ص ص ٥٢ – ٥٣ .

(١٢٤) ايدرس بل ، المرجع السابق ، ص ٤٨ – ٤٩ ، إضافة هامشية للمترجم (٢) .

(125) Journal of Egyptian Archaeology 1920 , p. 172 .

يعتبرون مصر هدفًا في حد ذاته لبناء مملكة قوية وغنية ، بتأمين طرق تجارتها الخارجية ، البرية والبحرية أى أن سياسة الملوك الأول البطالمة كانت استعمارية دفاعية وليست هجومية ، كما يعتقد ڤيلكن (١٢٦) .

رابعاً : ويرى عالمنا الكبير الدكتور ابراهيم نصحى ، أن أعز أمانى البطالمة الثلاثة الأول كانت هى المحافظة على استقلال مملكتهم التام ، وضمان ثرائها ، بتصريف منتجاتها للأسواق الخارجية واستيراد ما يلزمها بسهولة . وليس نشاطهم الخارجية فى حضو البحر المتوسط إلا وسيلة لتحقيق هدفهم المحلى فى الاستقلال بمصر (١٢٧) والحقيقة ، كما يقول ، هى أن مصر كانت العماد الأول لقوة البطالمة وثروتهم وأهم جزء فى امبراطوريتهم (١٢٨) .

وهكذا يتفق الرأى الرابع مع الثالث ، وإننا لنراهما – من وجهة نظرنا نحن – أقرب إلى وقائع التاريخ الثابتة والتى نعرفها من المصادر اليونانية ، وعلى رأسها پوليبيوس ، لأحداث القرن الثانى ق.م. ، ثم ديودوروس ، المؤرخ اللاحق (من القرن الأول ق.م) ولكنه كان قد أشار – ولاندرى مصادر معلوماته تلك إذ أنه لم يشر إليها من قريب أو بعيد – إلى الأحداث التى تلت وفاة الاسكندر وعلاقات الخلفاء وحروبهم ، بالرغم من عدم معاصرته لكل ذلك مما لا يقل عن (٣) ثلاثة قرون تقريباً ، فهل نصدقه تماماً (؟!!) أو أن نتشكك فيه دوماً (؟!!!) .. الأمر يحتاج إلى غربلة – متأنية لتلك الأخبار والروايات الكثيرة عنده . ولكن هيهات لنا – هنا – أن نقوم بذلك فهذا عمل دراسات تاريخية متخصصة .

ومن أمثلة تلك الروايات الطريفة عند ديودوروس وغيره من المؤرخين اللاحقين.

(أ) القول بأن بطلميوس الأول كان قد حاول أن يشترى (؟!!) إقليم جوف سوريا من واليه البطلمى(Laomédon) ولما لم يوفق فى ذلك ، استولى عليه بالقوة المسلحة (١٢٩)

(١٢٦) المرجع نفسه ، ص ٤٩ . وكذلك راجع/نصحى ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(١٢٧) المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(١٢٨) المرجع نفسه ، ص ١٤٥ .

(129) Diodorus, Biblioléhke, XVIII : 43; Appianus, Syriaka, 52 é

وأپيانوس هو مؤرخ سكندرى ازدهر في منتصف القرن الثانى الميلادى، بكتاباته عن تاريخ روما (Romaïka) وتاريخ مصر (aigyptiacá) .

(ب) القول بأن بطلميوس الأول ، أيضاً ، كان قد استولى على بيت المقدس، ؟؟؟؟، يوم سبت (؟!!!!) ، استغلالاً لعدم إمكانية اليهود لحمل السلاح دفاعاً عن مدينتهم فى هذا اليوم من كل أسبوع ، لأنه محرم عليهم ذلك فى عقيدتهم (١٣٠)

والحدثتان تؤرخان بعام ٣١٩/٣١٨ ق.م (١٣١) ، إن صَحّت الروايتان !!! .

(جـ) القول بأن حملات أنتيجونوس على البتراء (Petra) ، لحرمان مصر البطلمية من تجارة القوافل الجنوبية ، وعلى البحر الميت ، لحرمانها من القطران ، الضرورى لعمليات التحنيط للموتى، قد باءت بالفشل (؟!!!) (١٣٢)

(د) حكاية إطلاق لقب «المنقذ» (Sotér) على بطلميوس الأول ، من قبل أهل رودوس (Rhódos) ، اليونانيين ، لمساعدته لهم ضد ديمتريوس ، وإقامتهم لهيكل لبطلميوس وعبادته كإله (؟!) ، بعد موافقة الوحى فى سيوه (١٣٣)

والآن سنحاول أن نقدم موجزاً لأحداث التاريخ السياسى للبطالمة الأوائل الرواد . أما وصول كليوباترا إلى عرش المملكة البطلمية عام ٥١ ق. م فسنفرد لها دراسة خاصة بها .

(٢) فى عهد بطلميوس الثانى(١٣٤) (٢٨٥ - ٢٤٦ ق. م.) :

سار على سياسة والده ، ولكنه انغمس فى حياة الترف إلى حد أن يصف الدكتور العبادى عصره بأنه :

(130) Josephus, Contra Apion, I, 209 - 212 ; Ant. Jud., XII : 3 -6 .

وما أشبه الليلة بالبارحة – إن كان ذلك صحيحاً – عندما قامت القوات المصرية ، عام ١٩٧٣ ، بعبور قناة السويس والهجوم على القوات الاسرائيلية ، أيضاً ، ظهر يوم السبت ، الموافق ١٩٧٣/١٠/٦م العاشر من رمضان عام ١٣٩٣هـ ، عندئذ كان التخطيط الدقيق لكل شئ ، وكان نصراً عبقرياً عظيماً .

(١٣١) يؤرخ لهما – عند آخرين – بعام ٣١٢ ق. م. راجع /نصحى ، المرجع السابق ، ص ٧١ ، هامش ٦ .

(132) Diodorus , XIX ; 94 - 100 .

(133) Diodorus , XX : 81 - 88, 91 - 99, 100 : 3 - 4 & Paus,, I : 6, 6 - 7 .

(١٣٤) فيلادلفوس (Philádelphos) ، أى المحب لأخته ، والتى تزوج بها ، وهى أرسينوى (Arsinóe) ذات الشخصية القوية الطموحة ، والأصل فى اللقب أنه كان لها هى ، أولاً ، أى "المحبة لأخيها" ، ثم أطلق عليهما معاً .

«لم يشهد الحكم البطلمي بأسره الذى امتد (٣) قرون كاملة ، حكماً أكثر بذخاً ، وأكثر دعةً ، وأكثر إقبالاً على التنعم ، بأسباب الحضارة السلمية ، من حكم بطلميوس الثانى [١٣٥] . هذا بالرغم من كثرة الحروب الخارجية التى خاضها ضد أعدائه : فى جوف سوريا ، وفى برقة . كما لجأ إلى زيجة سياسية لإبنته برينيكى (Bereniké) ، عام ٢٥٥ ق.م. ، إلى الملك السليوكى أنطيوخوس الثانى ، ليضمن ولاءه وعدم اعتدائه على الحدود المصرية ».

كما يُنسب إليه بأنه هو أول من أرس قواعد «عبادة الملوك البطالمة» ، لوالده، أولاً ، ثم لزوجته وأخته أرسينوى الثانية ، بعد وفاتها ، حتى أشارت المصادر وجمعت بينهما معاً «كآلهة شركاء فى المعابد : Synnaoi Theai) [١٣٦]

(٣) وفى عهد بطلميوس الثالث [١٣٧] (٢٤٦ - ٢٢١ ق.م.)

أعاد للمملكة البطلمية هيبتها وقوتها بحملته على سوريا لتأديب السليوكيين لمقتل أخته برينيكى ، وكان ذلك عام ٢٤٦ ق.م. كان ملكاً جاداً ، ملتزماً فى أخلاقه ، ومستنيراً ، حيث أضاف يوماً سادساً لأيام النسئ المصرية حتى تكتمل أيام السنة الشمسية ، فى التقويم المصرى، ٣٦٥ يوماً . كما اتبع سياسة متعاطفة مع المصريين وتقرب إليهم . ولعل نص قرار الكهنة المصريين ، المعروف بقرار كانوب لعام ٢٣٧ ق.م. ، يوضح سياسة ذلك الملك الداخلية المتوازنة .

وهاكم ترجمة نص القرار الكهنوتى [١٣٨] :

«لقد أعاد الملك وأخته الملكة . الإلهان الخيران ، مجموعة التماثيل المقدسة ، التى كان قد أخذها الفرس خارج البلاد ، وذلك أثناء حملة عسكرية قام بها الملك ، وأعاد كل تمثال لمعبده الذى أخذ منه . ولقد حفظ البلاد فى سلام ، يذود عنها بسلاحه ضد كثير من الأمم والملوك . ولقد أقاما حكومة صالحة ، بالنسبة لجميع السكان فى مصر، وللأجانب فى الإمبراطورية . وحينما تخلف النيل ، عن أن يرتفع بالقدر الكافى ، وشمل اليأس الجميع بسبب ما حدث . فتذكروا الكوارث التى حدثت فى عهد بعض الملوك السابقين وحينما قاسى الأهالى بسبب عجز الفيضان، شمل الملك والملكة بحمايتهما الجميع ، سواء أهل المعابد أو سائر السكان .

(١٣٥) المرجع السابق ، ص ص ٦١ - ٦٢ .

(١٣٦) المرجع نفسه ، ص ٦٣ .

(١٣٧) يوارجتيس (Euergétés) ، أى «المحسن» ، أو «الخيِّر» .

(١٣٨) نقلاً عن مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .

وأعلنا فى عطف كبير ، تنازلهما عن قدر ، غير قليل ، من الضرائب ، من أجل إنقاذ الحياة ، واستوردا القمح للبلاد من سوريا وفينيقيا ، وقبرص ، وبلاد أخرى كثيرة بأغلى الأثمان ، وهكذا أنقذا أهل مصر» .

(٤) وفى عهد بطلميوس الرابع [١٣٩] (٢٢١ - ٢٥٠ ق. م.)

- ملك خامل ، ضعيف ، منحل اخلاقياً ، جاء فى غير أوانه ومكانه ، وكان كلفاً بالمجون والعبث مع أفراد من حثالة مجتمع الاسكندرية [١٤٠]

- كانت بطانته «جماعة الأنس» (Gelioastai) ، والأوصياء عليه هي السبب المباشر لقيام ثورة عارمة ضده ، ولا سيما بعد معركة رفح ٢١٧ ق. م. ، وهزيمة الجيش البطلمى الرئيسى ونجدة القوات المصرية من الفلاحين للموقف [١٤١] .

- ظهرت فى عهده - وبطريقة غير مباشرة - أولى مؤشرات التذمر الشعبى المصرى ، علي هيئة نبوءة دينية ، اتخذت غطاء لها اسم الملك تاخوس [١٤٢]، تفادياً لعقاب الملك البطلمى ، حيث راحت النبوءة (التى كانت بلغة ديموطيقية) تبشر أهل البلاد بقرب الخلاص من الفساد والمفسدين على أيدى وطنى من إهناسيا (مصر الوسطى) ، سيحرر مصر من الأجانب والإيونيين ، أى اليونان [١٤٣] .

---

(١٣٩) هو الملقب باسم «فيلو پاتور : Philopátor » ، اى المحب لأبيه» خداعاً للشعب الذى أحب الوالد وازاد الأوصياء استثمار ذلك لصالح الابن .

(140) Polybius, V, 24 : 3 - 5 ; 35 : 6 ; XIV , 12 .

(141) I bid ., V , 107 .

(١٤٢) هو ملك فارسي (والي) كان يحكم مصر في الفترة من ٣٦٦ - ٣٦٠ ق. م. ، قبل حضور الإسكندر وتخليص البلاد من الوجود الفارسي بها .

(١٤٣) العبادى ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

ثالثاً : العلاقات المصرية - السورية في العصر الهيللينستى

(قصة الصراع الدامي بين ملكتين مقدونيتين ، جارتين ، أجنبيتين)

[١] مقدمات الصراع :

كان موقف الإسكندر الأكبر الغامض (وهو على فراش المرض أو الموت البطئ ، فى صيف عام ٣٢٣ ق. م. ، وعدم تحديده بوضوح تام . لخليفته على عرش الإمبراطورية المقدونية الواسعة ، وإجابته عن سؤال مباشر حول تلك القضية الهامة ، بكلمة واحدة - حسب الرواية اللاحقة وهى (To aristo) ، أى «للأفضل» ، هو بداية النهاية لمشوار الجشع والطمع والاحتكار لثروات الشرق القديم بين أيدى فئة من الضباط والقادة المقدونيين المغامرين ، وحفنة من أذنابهم اليونانيين ، فى الجيش والإدارة ، تعيش على أمل الإثراء السريع وجمع الأموال ، والإغتراف من خزائن الشرق الأسطورية .

مات الاسكندر وانفرط عقد الإمبراطورية المقدونية من بعده ، وكان وفاء قادته عظيماً (؟!!) ، إذ قتلوا زوجته الفارسية روكسانا (روشنك)(١) وابنه منها ، الاسكندر الرابع ، بعد طول انتظار ، وتظاهر منهم بالولاء لهما ، وهكذا كانت بداية تصفية الحسابات والمواقف وإعلان النوايا الحقيقية للنفوس الضعيفة الطامعة الانتهازية .

إن أول ما يلاحظ على قادة الاسكندر الأكبر وخلفائه من بعده هو محاولة كل واحد منهم ، بشتى الطرق ، أن يستقطع لنفسه أكبر جزء ممكن من أشلاء الإمبراطورية المقدونية .

(١) وكانت خطواتهم الأولى لتحقيق أهدافهم ، غير المُعلنة رسمياً، هى عقد المحالفات بين بعضهم البعض ضد أحدهم . فها هو بطلميوس بن لاجوس ،

(١) هكذا ترد فى المصادر الفارسية اللاحقة فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، في أعمال وملاحم خالدة ، باسم (إسكندرنامة) عند أشهر شعراء الفرس أنذاك أمثال الفردوسى والنظامى الكنجوى . راجع . مثلاً : عبدالنعيم محمد حسنين ، نظامي الكنجوي القاهرة (ط١) ١٩٥٤ وكذلك رسالة الدكتوراه لصاحبتها / شيرين عبدالنعيم ، قصة الإسكندر في الأدب الفارسى ، القاهرة ١٩٧٩ .

منذ مؤتمر بابل عقب وفاة الاسكندر، يحرص دائماً على إفشال سياسات توحيد عرى الإمبراطورية ، وقام فعلاً بعمل أربع تحالفات ضد رموز السلطة المركزية المقدونية . فتحالف ضد برديكاس(٢)(Pérdikas) ، الوصى العام والقائد العام للجيوش المقدونية حتى تم القضاء على الأخير عام ٣٢١ ق.م. كما تحالف ضد پوليپرحون (Pol´yperkhon) ، الوصى على الملكين(٣) ، ثم قيامه وحرصه على عقد المحالفات الأخرى ضد كل قوة مقدونية تزدهر وتمثل وتمثل خطراً على أفكاره الاستقلالية بمصر وحكمه المنفرد لها ، فتحالف مع كاساندروس (Kassandros)(٤) ضد عدوهما العنيد أنتيجونوس (Antigonos) ، وذلك بالإتفاق مع سليوكوس (Seleukos) ، والى بابل وسوريا ، الذى كان قد فر لاجئاً إلى مصر البطلمية عام ٣١٦ ق. م. ، خوفاً من عقاب أنتيجونوس الذى كان قد تدخل فى شئون ولايته الشرقية وكان تحالف القادة الأربعة المقدونيين(٥) عام ٣١٥ ق.م. قوياً فرض نفسه على عدوهم ، الذى رفض شروطهم (٦).

(٢) وكانت **المصالحات** : هى الظاهرة الطبيعية التالية للمحالفات التى غالباً ما تخلف عداوات وحروب .

فها هو صلح عام ٣١١ ق. م. ، الذى تم بين أنتيجونوس وكاساندروس وليسيماخوس وبطلميوس : مما عطل الفرصة للبعض منهم لاستغلال الموقف التفاوضى لصالحه مثلما عمل أنتيجونوس بمهارة(٧) وكانت شروطه كالتالى :

---

(٢) راجع /نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة (الطبعة الخامسة) ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ص ٦٣ – ٦٥ .

(٣) بن الاسكندر من روكسانا ، حتي يصل سن الرشد ، وكذلك أخو الاسكندر الأكبر ، غير الشقيق أرهيدايوس ، المعتوه .

(٤) وكان يطمع (كما جاء عند ديودوروس (XVIII) في تعيينه وصياً على الملكين، وبالتالى علي الامبراطورية ، بدلاً من پوليپرخون ، فناصب الأخير العداء .

(٥) هم بطلميوس ، وكاساندروس ، وليسيماخوس ، وسيليوكوس ، الذين خيروا أنتيجونوس بين الحرب أو الاستجابة لمطالبهم .

(٦) الاعتراف بسيادة بطلميوس : علي مصر وسوريا جميعاً وليسيماخوس : علي آسيا الصغرى وفريجيا وكاساندروس : علي كاپا دوكيا وليكيا راجع/ ديودوروس ، الكتاب ، التاسع عشر : XIX, 55-56 957 :1-2

(٧) حاول استمالة الإغريق إلى جانبه فإدعى إنه تصالح مع أعدائه حرصاً علي الهدوء والسكينة في منطقة البلقان (من أجل خير اليونانيين) . راجع النصوص الخاصة بذلك Welles, B., Royal Correspondence in the Hellenistic Period, 1943 , no. 1 .

أولاً : أن يحتفظ كاساندروس بسيادته على مقدونيا ذلك حتى عام ٣٠٥ ق.م.(٨)

ثانياً : أن تستمر سيادة ليسيماخوس . على ثراقيا(٩) وبطلميوس على مصر وأنتيجونوس على آسيا.

ثالثاً : أن يتم تحرير المدن الإغريقية ، من كل القوات المقدونية التابعة لأى منهم (أى من القادة المتصالحين) : ولا تظل فيها حاميات أو معسكرات أجنبية على أرضها . (١٠) .

والغريب أنه ليست هنا – فى هذه المصالحة بين الكبار – أية إشارة إلى سيليوكوس ، وموضعه على خريطة الممالك المقدونية المقتسمة بين كبار ضباط وقادة الاسكندر المقدونى ؟!!!

وحول هذا الموقف الغريب من حلفاء الأمس ، الذين ضحوا بحليفهم سيليوكوس ، فى مصالحة اليوم (أى/ عام ٣١١ ق . م.) ، من أجل إرضاء أنتيجونوس القوى ، الذى كان هو الفائز الأوحد فى تلك المصالحة يقول العلامة رستوفتزف(١١) برأى مقبول جداً يمكن أن يكون تفسيراً مقبولاً لهذا الإختيار الصعب للحلفاء فى صلح فرض عليهم فرضاً . وهو الرأى الذى يلخصه لنا ، باقتدار ، أستاذنا الكبير الدكتور إبراهيم نصحى فيقول(١٢) :

«وإذا كان من اليسير أن نفهم لماذا رحب أنتيجونوس بالصلح، فإنه من العسير أن نتكهن لماذا قَبل أعداؤه هذا الصلح ، وضحُّوا بحليفهم سلوقس(١٣) ، اللهم إلا إذا كانوا قد أدركوا أنه لم يكن فى وسعهم عندئذ خوض غمار حرب فاصلة»

(٣) ولكن المؤامرات كانت هى الصيغة العملية الوحيدة لتنفيذ الرغبات المكبوتة ، التى ظلت مستورة بفضل السياسة والدبلوماسية المكشوف ، فى ضوء النهار ، وكانت هى الغطاء الجميل المزخرف ، من كل أطراف الصراع فى شرق

(٨) وهو تاريخ بلوغ الاسكندر الرابع (بن الاسكندر المقدوني – الثالث – من روكسانا) سن الرشد.

(٩) هى تراكى (Thrákē) الحالية .أقصى شمال شرق اليونان .

(10) Diodorus, XIX , 105 .

(11) Social and Economic History .... , pp. 12 - 13 .

(١٢) تاريخ مصر في عصر البطالمة (الطبعة الخامسة) ، القاهرة ١٩٨٠ ، الجزء الأول ، ص ٨١.

(١٣) هو نفسه «سيليوكوس» ، كما نشير نحن إليه ، وفقاً للنطق اليونانى الأصلى لهذا الاسم .

المتوسط، بين خلفاء الاسكندر ، كأفضل وسيلة لخداع شعوب المنطقة بمعسول الكلام والمواقف الرسمية بينما الجميع ، يعمل فى الظلام ودونما أدنى وازع من ضمير .

وهاكم نماذج ثلاثة على تلك الأعمال القذرة والمؤامرات الدموية والإقدام على جرائم قتل للتخلص من المنافسين :

(أ) قيام كاساندروس بقتل الاسكندر الرابع وأمه ، الفارسية ، حتى يغلق الباب نهائياً على موضوع وراثة عرش الإمبراطورية المقدونية ، وكان هذا الصبى قد بلغ الثالثة عشرة من عمره تقريباً آنذاك حوالى عام ٣١٠/٣٠٩ ق.م. – أى بعد مرور عام واحد ، فقط ، للأسف ، عقب الصلح الشامل السابق . فبماذا نفسر خرق أحد المستفيدين لبنود ذاك الاتفاق ؟!! إنه الطمع والجشع والغرور الآدمى ؟!!!

(ب) قيام أنتيجونوس ، وهو أول المستفيدين من صلح عام ٣١١ ق.م. ، بالتآمر مع بوليپرخون ، الوصى على العرش المقدونى ، ضد كاساندروس ، وكانت الضحية هى قتل الصبى ، هرقل (١٤) ، المزعوم بأنه هو ابن الاسكندر الأكبر ، لإحراج كاساندروس ، عام ٣٠٩ ق.م.، عقب قيامه بقتل الوريث الشرعى الحقيقى ، الاسكندر الرابع .

(جـ) قيام أنتيجونوس بقتل كليوباترا (١٥) ، أخت الاسكندر الأكبر ، وذلك ليفوت الفرصة على بطلميوس الأول ، حاكم مصر ، الذى حاول الزواج منها وبالتالى يكسب (سيراً على نهجه السابق)(١٦) قدراً من الشرعية ورضاء العامة ولا سيما اليونانيين والمقدونيين .

(٤) وأخيراً كانت **الاعتداءات العسكرية** المباشرة ، أو الغزو السافر للممالك المقدونية ، هى اللغة التى سيطرت على التعامل بين خلفاء الاسكندر الذين أسموا أنفسهم ملوكاً ، منذ عام ٣٠٥ ق.م تقريباً(١٧) .

(14) Diodorus , XX , 28 .
(15) I bid., (XX , 37) .
(١٦) بعد أن استولى على جثمان الإسكندر الاكبر ، وقام بدفنه فى ممفيس ، أولاً ، ثم نقله إلى الأسكندرية ، في المقابر الملكية وسط العاصمة ، كما قال بذلك سترابون . لمزيد من المعلومات عن هذه القضية : راجع كتابى : قبر الاسكندر الأكبر : احتمالات موقعه وشكله ، القاهرة ١٩٩١ ، الذي يعاد طبعه الآن متضمناً سيرته كذلك .
(١٧) ابراهيم نصحجي ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

فها هو أنيتجونوس ، وأبنه ديمتيريوس ، يحاولان غزو مصر بقوات برية وبحرية كبيرة[18] ، ولكنها يفشلان فشلاً ذريعاً فى تحقيق هدفهما أمام دفاع بطلميوس الأول دفاعاً مستميتاً عن مملكته.

وإذا حاولنا أن نقتفى أثر سيليوكوس على الساحة السياسية أو حتى العسكرية فلا نجد أو نسمع عنه شيئاً طيلة الأعوام التى تلت الصلح السابق الذكر ، ويبدو أنه كان ، على الأرجح ، لا يزال فى ضيافة بطلميوس ، حاكم مصر ، حتى تحين الفرصة لضرب عدوهما المشترك ، وهو أنتيجونوس .

وفجأة ، يظهر سيليوكوس على الساحة العسكرية متحالفاً مع كاساندروس وليسيماخوس ، وبالطبع بمساعدة بطلميوس وكان ذلك عندما جددوا (أى/ هؤلاء الأربعة) تحالفهم القديم السابق عام ٣١٥ ق. م. ، فى عام ٣٠٢ ق. م. ، أى بعد حوالى (١٣) عاماً من الحذر والترقب واختيار الوقت المناسب لهم لضرب ضربتهم القاضية لعدوهم جميعاً ، ووضع نهاية لتدخلاته فى شئونهم وفرض هيمنته عليهم وزيادة أطماعه فى ممالكهم[19].

وكانت آسيا (الصغرى) مسرحاً للعمليات الحربية لحصار قوات أنتيجونوس وعزله عن قوات ابنه ديمتريوس الموجود فى ثساليا (شمال اليونان) آنذاك . أى ربيع عام ٣٠٢ ق. م. وقد كان لهم ما أرادوا وخططوا له . وعند إپسوس (Ipsos) ، فى إقليم فريجيا ، بعد أن انضمت قوات سيليوكوس إلى ليسيماخوس ، دارت رحى المعركة الفاصلة «معركة الملوك» . وكان النصر حليف الحلفاء وخر أنتيجونوس صريعاً ، فى أرض المعركة ، صائحاً : «سيأتى ديميتريوس لإنقاذى .....!!!» وتشير المصادر اللاحقة[20] التى فصلت كثيراً فى أحداث تلك المأساة الملكية المقدونية ، خلفاء الإسكندر الأكبر ، وبأيديهم ، إلى أن هزيمة أنتيجونوس كانت بسبب

(أ) مطاردة ديمتريوس لفرسان سيليوكوس واسرافه فى ذلك مما عطّله عن انقاذ والده .

(ب) اقتحام قوة الفيلة ، فى جيوش الحلفاء ، لفيالق الفرسان فى جيش أنتيجونوس.

(18) Diod., XX , 73 - 76 . ; Plutarchus, Demetrius, 19.

(19) Diodorus, XX. 106 .

(20) I bid ., 107- 113 ; Plutarchus, Demetrius, 29 - 30 .

[٢] بداية الصراع وتطوره :-

إنه إذا كانت سنة ٣٠١ ق. م. قد شهدت القضاء على أكبر قوة مقدونية ، حاولت الإبقاء أمبراطورية الاسكندر من التمزق والانقسام ، وقتل أنتيجونوس بأيدى رفاق السلاح ومؤامراتهم ضده حرصاً على مصالحهم الذاتية وأنانيتهم الشديدة ، فإنها أيضاً وللأسف ، كانت بداية لعداوة شديدة وصراع مرير بين سيليوكوس وبطلميوس حلفاء الأمس القريب ، حول ، منطقة جوف سوريا (Koilé Syria) ، استنفد منهما ومن جاء من بعدهما من خلفائهما ، المال والأرواح . إنها هى القصة التى عرفت فى المصادر التاريخية باسم «المشكلة السورية» ، أو/الحروب السورية ، وهى التى استغرقت حوالى قرن ونصف تقريباً من الزمان كانت ضحاياها ، من الجانبين ، كثيرة وأنهكت قواهما فعلاً .

وحقاً كان تقدير أستاذنا الكبير الدكتور/ابراهيم نصحى حينما قال :

«ويُعتبر عام ٣٠١ بدايةِ عهد جديد ، فقد انْحلّت امبراطورية الاسكندر بحيث لم يعد هناك أى أمل يرجى فى احيائها ثانية(٢١)» .

وذلك : فيما يهمنا من أحداث ذاك الصراع ، بسبب سياسة بطلميوس غير الحكيمة ، أثناء معركة الملوك ضد انتيجونوس ، وانسحابه من سوريا (خلافاً للخطة العسكرية الموضوعة بين الحلفاء الأربعة) ، بمجرد سماعه لإشاعةٍ قالت بهزيمة أحد الحلفاء وتوجه أنتيجونوس صوبِ سوريا(٢٢) وكان موقفاً غير مشرّف ويتسم بالأنانية الشديدة وقصر النظر . وهنا تشير المصادر القديمة الكلاسيكية إلى إجماع بقية الحلفاء ، بعد انتصارهم ، على ضرورة مجازاة ومعاقبة بطلميوس على ذلك ، فقرروا حرمانه من جوف سوريا ، الذى كان حريصاً عليه دائماً . واقتسم كل من سيليوكوس وليسيماخوس معظم أملاك امبراطورية الاسكندر ، لأنهما – وفق رواية أبيانوس السكندرى (٢٣)– قد نفّذوا الجزء الأكبر من العمليات العسكرية فى حربهما ضد أنتيجونوس .

وهكذا خرج بطلميوس ، برغم مساعداته ومساندته لسيليوكوس ، وهو الخاسر الوحيد بعد عام ٣٠١ ق. م، وأصبحت منطقة «جوف سوريا» موضع خلاف دائم بين البطالمة فى مصر والسيليوكيين ، فى سوريا ، الذين آل إليهم هذا

(٢١) المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(22) Diodorus, XX . 113 .

(23) Appiánus, Syriaké 55 .

الإقليم بموجب عملية تقسيم الأسلاب عقب معركة الملوك عام ٣٠١ ، عتاباً له على موقفه المخزى فى الإنسحاب المبكر من المعارك . وقد صدق الدكتور إبراهيم نصحى ، ثانية حينما أكد على خطورة تلك البداية العدوانية بين مصر البطلمية وسوريا السيليوكية (وهى التى أعادت إلى الأذهان العداوات التقليدية الأقدم بين مصر الفرعونية وأمراء الإقليم السورى) قائلاً :

«ولذلك نرى أنه ليس من التعسف فى الرأى القول بأن بطلميوس ، الذى وضع دعائم مملكة البطالمة فى مصر ، قد أورث خلفاءه ، فيما أورثهم ، أحد المعاول التى قوضت تلك الدعائم(٢٤)»

وهنا يظهر السؤال ، وماذا جرى بعد ذلك ؟ أو/ ما هى تفاصيل ذلك الصراع الدموى بين المملكتين المقدونيتين الجارتين؟

لقد كان رد بطلميوس ، غير المتوقع ، على قرار الحلفاء بحرمانه من جوف سوريا ، وهم الأصدقاء الجشعون(٢٥) ، هو بأن عاد بقواته واستولى ، بالقوة المسلحة، على ذلك الإقليم ورفض التنازل عنه ، مما فتح الباب ، على مصراعيه ، لعداء واشتباك مع سيليوكوس ، كما أجبر الحلفاء على إعادة حساباتهم ، واتجاه محالفاتهم، فى ضوء نتائج معركة الملوك .

عندئذ ، ظهرت على السطح، اتجاهات جديدة وعلاقات غريبة ، عن طريق الزيجات السياسية ، كأفضل وسيلة لعقد محالفات أقوى . بين الملوك المقدونيين ، ففى عام ٣٠٠ ق.م. :

(أ) زوّج بطلميوس ابنته ليساندرا (Lysandra) إلى الإسكندر بن كاساندروس : ملك مقدونيا وبعض بلاد اليونان .

(ب) كما زوّج ابنته الصغرى أرسينوى(٢٦)(Arsinóe) إلى الملك ليسيماخوس ، ملك تراكى وآسيا الصغرى .

وكرد فعل لمثل هذا التقارب ، اضطر سيليوكوس ، متناسياً عداوة الأمس القريب ولتقوية مركزه فى المنطقة ، إلى التقرب ، أيضاً عن طريق المصاهرة السياسية ، إلى ديمتريوس ، بن أنتيجونوس ، الذى كان لا يزال قوياً بقواته البحرية

---

(٢٤) المرجع السابق ، ص ١٩ .

(25) Diodorus, XXI . 1,5 .

(٢٦) من زوجته الثانية برينيكى (Bereniké)

ويتمتع بسيادة مطلقة على جزر الكيكلاذيس(*) وعصبة كورنثوس وجزيرة قبرص ومدن أخرى فى اليونان وآسيا الصغرى وحتى فينيقيا(٢٧) . ولهذا نجد سيليوكوس يخطب لنفسه ، ابنة ديمتريوس «ستراتونيكى» (٢٨) ومع ذلك ، فقد لعب سيليوكوس دوراً حيوياً فى القضاء على حميه ، ديمتريوس بعد أن نشب الخلاف بينهما لرفض الأخير لطلب سيليوكوس في الحصول على صيدا وصور عام ٢٩٧ ق.م. ، وبعد أن شارك حاكم سوريا فى التآمر ضده ولاسيما بعد ما أصبح ديمتريوس ، فى عام ٢٩٤/٢٩٣ ق.م. ، ملكاً على مقدونيا . وأخيراً نجح التآمر الثلاثى (سيليوكوس وبطلميوس وليسيما خوس) عندما حاول ديمتريوس الانتقام لنفسه ولأبيه منهم وغزا آسيا عام ٢٨٩ ق.م. ، وكانت نهايته أن اضطر إلى تسليم نفسه إلى سيليوكوس ، فألقى القبض عليه وسجنه حتى مات(٢٩) عام ٢٨٣ ق.م. . وهذه هى إحدى حالات زيجات المصالح المؤقتة ؟!!! ولعل أشهر حالات الزواج السياسى، فى البيوتات المقدونية الملكية كانت زيجات أرسينوى (الثانية) لثلاث مرات(٣٠) .

ولما كان سيليوكوس داهية عسكرية وسياسية خطيرة ، فإنه نجح فى استثمار فضائح بيت ليسيماخوس لصالحه وهرع إلى نجده الممالك الآسيوية واستولى على برجاموس وسارديس (٣١). وما فيهما من كنوز . ثم فصل عام ٢٨١ ق.م. فى حرب فاصلة مع ليسيماخوس عند منطقة كوروپديون (Koroupédion) ، فى ليديا(٣٢) ، وكانت هذه المعركة هى آخر المعارك الكبرى بين الملوك المقدونيين ، حيث هزم فيها ملك تراكى ومقدونيا ليسيماخوس ، وقتل (٣٣) .

(*) هى جزر وسط البحر الإيجى ، التي تأخذ شكل الدائرة (Kyklos) .

(27) Tarn, op. cit., pp. 10 - 12.

حول قوة ديمتريوس (محاصر المدن) : وكان ديمتريوس قد حرر معظم بلاد الأغريق من كاساندروس وأحيا عام ٣٠٣ق. م. مع والده ، عصبة كورينثوس كرؤساء لها خلفاء للإسكندر، وظلت له السيادة علي صيدا وصور بالرغم من قتل والده انتيجونوس عام ٣٠١ ق.م.

(28) Plutarchus, Demetrius : 30 - 31 ; C. A. H, VI, pp. 76-77.

(29) I bidem, 46 - 25 ; Rostovtzeff, op. cit., pp. 19-21.

(٣٠) راجع/ابراهيم نصحي، المرجع السابق ، ص ص ١٠٢ – ١٠٤ .

(٣١) أواسط الساحل الغربي لآسيا الصغرى . أنظر خريطة اليونان القديمة فى العصر الكلاسيكى.

(33) Tarn, op. cit., pp. 12 - 13 .

وعندئذ ، حانت لسيليوكوس ، لأول وآخر مرة ، الفرصة سانحة لاقتناص عرش الاسكندر الأكبر ، الشاغر الآن ، وليس هناك من منافس ، من بين البقية الباقية من خلفاء الإسكندر سوى بطلميوس فى مصر (٣٤) . ولكن يد القدر كانت أسرع إلى روحه ، فقبضتها (٣٥) ، قبل أن يقبض هو على عرش مقدونيا .

وجاء أنطيوخوس بن سيليوكوس إلى عرش المملكة السيلوكية فى آسيا الصغرى وسوريا : ولم يمر عام واحد فقط إلا ونراه قد دخل فى معارك مع المملكة البطلمية فى مصر . وهكذا بدأت حلقات الصراع الدامى بين المملكتين المقدونيتين الجارتين عام ٢٨٠ ق. م.

ويسجل التاريخ أن أولى معاركهما كانت حرباً غامضة ، لا ندرك أسبابها الفعلية ، وتعرف باسم حرب كاريا (Karia) أو دمشق . ولكن المملكتين الجارتين سرعان ما وقعتا صلحاً فى عام ٢٧٩ (٣٦) ق. م. وكان ذلك أقرب إلى هدنة مؤقتة بينهما . فى ضوء:

(أ) إنشغال أنطيوخوس بالدفاع عن مملكته وحدودها الشمالية الغربية ، فى آسيا الصغرى ، ضد الغال (Galati) وقيام ثورة داخلية فى سوريا .

(ب) وانشغال بطلميوس الثانى فيلادلفوس ، بحملات عسكرية ذات أهداف إقتصادية تجارية ضد الأنباط ..

ومنذ ذلك العام ظلت العلاقات بين مصر البطلمية وسوريا السليوكية ، بين مد وجزر ، وشد وجذب ، تنتابها لحظات ترقب وانتظار ، أشبه بعلاقة القط والفأر. ولم يأت عام ٢٧٥ ق. م. (٣٨) حتى عادت العمليات العسكرية بينهما إلى سابق عهدها ، ووقعت أحداث الحرب السورية الأولى ، عندما استغل بطلميوس الثانى انشغال أنطيوخوس الأول بحروبه مع الغال ، وقام بحملة لغزو سوريا . وبمجرد انتصار الملك السيليوكى على الغال عاد مسرعاً إلى قلب مملكته وهزم القوات

(34) I bid ., fortunate of Alexander's companions, saw all Alexander's, empire except Egypt at his feet.".

(٣٥) إذ من سخرية الاقدار أن مقتل سيليوكوس جاء بأيدي «الصاعقة» (Keraunós) ، الذي كان قد أجاره الملك السورى وأكرم وفادته عند فراره من بيت والده ليسيماخوس ، ملك مقدونيا .

(36) Tarn, op. cit., pp. 13.

(37) Ibid cm, p. 14 .

(٣٨) ولكن تارن يؤرخ لتلك الحرب «الغامضة» - كما وصفها نقلاً عن أوتو-بعام ٢٧٦ ق.م ، راجع Tarn, op. cit., p.15.

البطلمية واسترد دمشق وحاصر ميليتوس (Miletus) ، التى كانت قد أصبحت مصرية – بطلمية منذ عام ٢٧٩ ق . م .

ويعتقد تارن بأن أثار تلك الأزمة البطلمية ، فى سوريا ، قد تحولت إلى انتصارات عظيمة ، فاقت كل التوقعات ، بفضل إصرار وتخطيط أرسينوى الثانية ، تلك الأرملة الطموحة ، التى زوّجت نفسها ، لأخيها (٣٩) ، الملك البطلمى ، بطلميوس الثانى ، فيلادلفوس وعاشت مصر البطلمية ، فى عهدها وحتى مماتها فى عام ٢٧٠ ق . م . ، أزهى عصورها (٤٠) لدرجة أن كاليماخوس ، أمين مكتبة الاسكندرية آنذاك ، راح يتنبأ ويحلم بإمكانية سيادة مليكه ، بطلميوس فيلادلفوس ، على كل العالم القديم من مشرق الشمس إلى مغربها (٤١) فهل كانت هناك روح ثقة، فى إمكانات البلاد والملك، أكبر من هذا التصور؟!! ذلك لأن ممتلكات مصر الخارجية آنذاك ، أشتملت على كل فينيقيا ومعظم الساحل الآسيوى من ميليتوس وكيليكيا . وكان طبيعياً أن تنال تلك الملكة ، أرسينوى الثانية ، تكريما لا مثيل له ، من أخيها وزوجها الملك ، فيلادلفوس ، سواء كامرأة أو كإلاهة (٤٢).

وتهدأ الجبهة السورية – المصرية لعدة سنوات قلائل ، ويموت أنطيوخوس الأول السيليوكى عام ٢٦٢ ق . م . . ويرثه على عرش البلاد ، فى المملكة السورية، ابنه أنطيوخوس الثانى (Antiochus II) وكانت مدينة إفيسوس الكبيرة (Ephesus) (٤٣) – قد سقطت فى أيدى الملك البطلمى فيلادلفوس ، ضمن أملاكه الخارجية العديدة .

ولكنه ، هيهات أن تستقر الأمور ، هكذا ، للملك البطلمى : بعد أن تحالف الملك السيليوكى الجديد مع أنتيجونوس جوناتاس للانتقام من بطلميوس الثانى .

---

(٣٩) بعد أن فشلت فى زيجتيها الاثنتين السابقتين ، خارج مصر ، فعادت وتخلصت من أرسينوى الأولى ، إبنتها ، والتى كانت الزوجة الأولى لهذا الملك !!!

(٤٠) يذكر نصحى (المرجع السابق ، ص ١١٦) بأنها فى ١ يوليو عام ٢٧٠ ماتت أو «صعدت إلى السماء» !!! نقلاً عن تارن . . (40) Op. cit., p. 16

(41) Hymn to Delos, 166 .

(42) Tarn, op. cit., p. 16 .

(٤٣) تقع إلى جنوب آسيا الصغرى ، على الساحل الشمالى للحوض الشرقى للمتوسط . راجع/خريطة اليونان القديمة فى العصر الكلاسيكى ، فى كتابنا الحديث : تاريخ الحضارة الهيللينية ، الرياض (ط١) ١٩٩٧ ، ص ٣٠٤.

وأسفر هذا التحالف الشيطانى عن الحرب السورية الثانية : من ٢٥٩ – ٢٥٥ ق.م.(٤٤) ، وهى الحرب التى وضعت أوزارها كالتالى :

(١) استعاد أنطيوخوس الثانى ، الملك السيليوكى ، مدينتى إفيسوس وميليتوس وجزءاً كبيراً من ساحل آسيا الصغرى .

(٢) كما استولى ، ثانية ، على فينيقيا من أيدى البطالمة وحتى بيروت .

(٣) تمت هزيمة الأسطول البطلمى فى الجزر اليونانية عند كوس(Kós)(٤٥)

(٤) تمت سيادة جوناتاس على البحر الإيجى وفقدت مصر إيونيا وساموس عندئذ سارع بطلميوس الثانى ، فيلادلفوس ، إلى حيلة الضعفاء ، ألا وهى المصاهرة – أو ما سبق أن ذكرناه بأسم «الزيجات السياسية» – ولكنها حيلة مأمونة العواقب ومضمونة النتائج(٤٦) فقام فيلادلفوس بتزويج ابنته بيرينيكى (Bereniké) للملك السيليوكى أنطيوخوس الثانى لعله – بذلك – يأمن جانبه . وكان الملك السورى قد أقصى زوجته الأولى لاوديكى (Laodiké) تمهيداً لإتمام ذاك الزواج الأسطورى فى تفاصيله(٤٧) ، ولا سيما فى حجم مهرها الذى حملته معها إلى الملك السيليوكى ، لدرجة أنها عرفت بأسم «الـ فرنيفوروس»: (٤٨) "Fernefóros" .

ونحن نتفق مع أستاذنا الكبير الدكتور/إبراهيم نصحى فى رأيه حول احتمالات شروط ذاك الزواج السرية، والاتفاقات التى ربما تكون قد تمت بفضله . ومنها أنه ربما تنازل بطلميوس فيلادلفوس عن كيليكيا وپامفيليا ، أقصى الطرف

(٤٤) وليس حتى عام ٢٥٣ ق. م. – كما يعتقد بذلك أوتو – بناءً على عدة اعتبارات تجدها في موسوعة كامبريدج للتاريخ القديم C. A. H. ، الجزء السابع (VII) ، ص ص ٧١٤ – ٧١٥.

(45) Tarn, op. cit., p. 17 .

(٤٦) ذلك لأن الضعف الإنساني، عند الذكور أمام المرأة مؤكد ، لا محالة ، وإن اختلفت درجات الاستجابة من رجل لآخر لمطالب زوجته . فهذه هي نقطة الضعف الرئيسية التي تستغلها النساء أسوأ استغلال لتحقيق مآربهن بسهولة ويسر.

(٤٧) نصحى ، المرجع السابق ، ص ص ١٢٧ – ١٢٩ . ويقال أن فيلادلفوس قدم لأنطيوخوس صداقاً عظيماً ، وكانت بيرينيكى لا تشرب إلا مياه النيل طوال الرحلة حتي سوريا لاعتقاد القدماء أن مياه النيل تضمن الحمل ، وهو المطلوب إثباته .

(٤٨) وهى كلمة يونانية وتعنى : «حاملة الهدايا» ، أو / الصداق ، وفق العادة اليونانية القديمة التي كانت تفرض على البنت أن تقدم هي المهر للرجل حتى تغريه بالزواج منها فياله من تكريم للمرأة ؟!!! إنها المهانة والذل بكل معانى الكلمة !

الشمالى الشرقى لحوض البحر المتوسط ، للملك السيليوكى، أنطيوخوس الثانى ، لقاء تنازله ، بصورة نهائية ، عن المطالبة بجوف سوريا ، لأهمية هذا الإقليم الإقتصادية بالنسبة لمصر (٤٩).

ولكن ، وهى سنة الله فى خلقه ، ليس كل ما يتمناه المرء يدركه كما لا تأتى الرياح بما تشتهى السفن . فقد مات (٥٠) أنطيوخوس فى نهاية عام ٢٤٧ ق. م. ، بعد أن أنجبت له بيرينيكى إبناً ، وعندها ، هبت العواصف التى كانت كامنة، والتهبت جذوة الحقد والحسد بين أفراد البيت الحاكم ، وتحديداً بين الملكتين ، الزوجتين للملك المرحوم(؟!) وكانت نهاية الصراع الأسرى السيليوكى لصالح الزوجة الأولى لاوديكى ، التى أقدمت على جريمة قتل بشعة للزوجة الثانية ، بيرينيكى وابنها ، وحاولت إخفاء ذلك .

وبمجرد تولى بطلميوس الثالث ، يورجيتيس (٥١) (Euergétes) عام ٢٤٦ ق.م. ،كان عليه حيال أخته برنيقة (٥٢) ، التزام أدبى مزدوج ، فعليه أن يحميها هى وابنها ما داما على قيد الحياة ، ويحاول أن يمكّن الإبن من تولى العرش السورى، وفى حال وفاتهما بفعل لاوديقه (٥٣) ، وكان عليه أن ينتقم لهما (٥٤)، .

وانتقم الملك البطلمى الهمام لأخته وابنها المقتولَيْن شر انتقام ، واحتل بقواته المنتصرة شمال سوريا، وكيليكيا ووصل حتى سيليوكيا (Seleukeia) عاصمة المملكة السيليوكية المقدونية على نهر دجلة . ولم تواجهه ، فى تلك العملية العسكرية الخاطفة ، إلا مقاومة ضئيلة ، ووصف غنائمه ، من تلك الحرب، بأنها كانت أسلاب إخضاع وضم وتأديب آسيا السيليوكية (٥٥) .

وإذا رجعنا إلى أحد المصادر التاريخية القديمة التى أشارت إلى تلك المعركة، لوجدنا أپيانوس يقول :

(٤٩) المرجع السابق ، ص ص ١٢٣ ، ١٢٩ .

(٥٠) يذكر الدكتور مصطفى العبادى (المرجع السابق ، ص ٦٥) أنه مات مقتولاً فى ظروف غامضة فى أفيسوس، بتدبير من زوجته الأولى لاوديكى .

(٥١) هي كلمة يونانية مركبة من لفظين : الأول (eu) وتعنى : حسن ، طيب . ثم الثانى (ergétes) من (ergon) بمعنى (العمل) ، وبالتالى فالكلمة كلها معناها : فاعل الخير : أو المحسن ، الخيِّر .

(٥٢) هى نفسها برينيكي ، السابقة الذكر ، فقد عربها أستاذنا العبادى وفضل ذلك .

(٥٣) هى نفسها ، أيضاً ، لا وديكى ، كما ذكرنا نحن سابقاً إلتزاماً بنطق الأسم الأصلى.

(٥٤) مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(55) Tarn, op. cit., p. 18 .

«وأنضم بطلميوس ، بن فيلادلفوس ، لهذه الجرائم ، وقتل لاوديكى ، وغزا سوريا ، وتقدم فيها حتى وصل إلى بابل (٥٦)» .

وهنا نعرف ، بيقين ، لأول مرة ، أن بطلميوس الثالث حقق هدفه الأساسى من حملته وهو قتل القاتلة ، لاوديكى، وذلك إستناداً إلى شهادة أبيانوس ونص عبارته : (Laodíkén te éktine)

فهل كان ذلك كذلك فعلاً ؟ أم أنه مجرد مجاملة تاريخية لاحقة وتعاطف من المؤرخ للحملة وصاحبها وتشفى من الفاعلة المجرمة ؟!!! إننا ، بللأسف ، لا نملك دليلاً قاطعاً ، اليوم ، غير تلك الشهادة القديمة من القرن الثانى الميلادى حول تلك الواقعة .

وتجرى الأحداث سراعاً ، فى المنطقة ، فى شرقنا القديم لغير صالح أى من المملكتين الجارتين المقدونيتين ، ويتبادلان النصر والهزيمة .

ولم تكد تمر سنوات قليلة حتى استطاع سيليوكوس الثانى(٥٧) ، إبان الحرب السورية الثالثة (٥٨) ، أن يسترد كيليكيا وشمال سوريا الداخلى ، ولكنه فشل فى أن يسترجع سيليوكيا وفينيقيا ، وفقد ، ثانية ، ساحل آسيا الصغرى . حيث كانت القوات البطلمية البحرية تمد نفوذها وسيطرتها بقوة ، وواصلت سيادتها البحرية ونفوذها فاحتلت ساحل ثراكى (Thráke) . وكانت تلك العمليات ، بين الجانبين ، السيليوكى السورى ، والبطلمى المصرى ، مستمرة حتى عام ٢٤١ ق . م.(٥٩)

وقد كانت النكبات قد بدأت تحل بالقوات البطلمية الخارجية فى حوض البحر المتوسط . ومنها :

(أ) هزيمة الأسطول البطلمى ، عند جزيرة أندروس (Andros) – فى البحر الإيجى اليونانى– على يد أنتيجونوس جوناتاس ، بن ديمتريوس (ملك مقدونيا واليونان(٦٠)) عام ٢٤٦/٢٤٥ ق . م .

(٥٦) هذه هى ترجمة حرفية للنص اليونانى (56)Appianus, Syriaké : 65..
(٥٧) هو بن لاوديكى ، قاتلة برينيكى وابنها .
(٥٨) راجع/نصحي ، المرجع السابق ، ص ص ١٣٢ – ١٣٦ .
(٥٩) ويعتقد استاذنا الكبير الدكتور نصحى (ص ١٣٥) بأن برينيكى وابنها لمُ يقتلا الا فى عام ٢٤٥ ق. م. ، وأن يورجيتس قام بحملته على سوريا لنجدتها ودعم حقوقها آنذاك .
(٦٠) ولا سيما شبه جزيرة البلوبونيز .

(ب) إستعادة أنتيجونوس لجزيرة ديلوس ، السوق التجارية الرئيسية فى وسط البحر الإيجى ، واحتلاله لبعض الجزر الأخرى .

ومنذ تلك اللحظات فقدت مصر البطلمية ، إلى غير رجعة ، سيادتها البحرية فى المتوسط(٦١).

وتشاء الأقدار أن تشهد الساحة السورية السيليوكية تدهوراً ملحوظاً فى قوتها، بسبب عاملين :

(أ) تحطيم الأسطول السيليوكى ، فى عام ٢٤٣ ق. م. ، بسبب العواصف، على السواحل الشرقية للبحر المتوسط ، وهزيمة الجيش البطلمى له، وانسحابه إلى أنطاكية(٦٢).

(ب) قيام صراع داخلى فى البيت السيليوكى ، بين الأخوين سيليوكوس الثانى وأنطيوخوس (الصقر =Hierax) ، لدرجة قيام حرب أهلية بينهما مما شلّ حركة الأمبراطورية السيليوكية وأجهز على قوتها بيديها(٦٣) وعلى أيدى قوات الحلفاء الخارجيين ، أمثال الغال (Galati)، وأتاللوس ملك برجاموس .

وعند هذه الأخبار نتوقف قليلاً ، حوالى ربع قرن من الزمان ، قصة الصراع الدامي بين مصر البطلمية وسوريا السيليوكية ، وذلك بسبب عدم تغطية المصادر القديمة لها ، سواء ما كان لاحقاً ، عن قرب بعض الشئ ، أمثال ديودوروس واسترابون وديوكاسيوس . أو جاء متأخراً ، فيما بعد البلاء بفترة ، مثل أبيانوس وبلوتارخوس وباوسانياس هذا من ناحية ، أما السبب الثاني ، من ناحية أخرى ، هو أن المصدر المعاصر الوحيد للأحداث التالية مباشرة ، وهوپوليبيوس لم يذكر تلك الفترة – فى الربع الثالث من القرن الثالث ق.م. (٢٥٠ – ٢٢٥ ق.م.) ، تقريباً ، ولا ندرى لماذا فعل هذا ؟! إذ يبدأ تأريخ پوليبيوس للأحداث – فى المنطقة – بوصول ثلاث ملوك جدد للممالك المقدونية الثلاثة الموجودة على الساحة السياسية آنذاك وهم :

(61) Tarn, op. cit., p. 18 : " ...... and Egypt was never again supreme at sea,..........."

(٦٢) نصحى ، المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٦٣) المرجع نفسه ، ص ص ١٣٨ – ١٣٩ : "حرب الأخوين" .

(١) أنتيوخوس(٦٤) الثالث (Antiochus III) ، فى سوريا ، عام ٢٢٣ .

(٢) بطلميوس الرابع (Ptolemaios IV) ، فى مصر ، عام ٢٢١ ق. م.

(٣) فيليب الخامس (Philipus V) ، فى مقدونيا ، عام ٢٢٠(٦٥) ق. م.

وإذا حاولنا أن نعطى صورة أشمل لما كان يجرى على الساحة الدولية ، فى حوض المتوسط ، مفسرين تجاهل المؤرخين لأحداث الشرق القديم إبان تلك الفترة السالفة الذكر ، حوالى منتصف القرن الثالث ق. م.، لكان علينا أن نضع فى أعتبارنا بعض الوقائع الأخرى ، ذات العلاقة بتاريخ تلك المنطقة ، مثل :

(أ) عقد صلح «تحصيل حاصل» ، فى عام ٢٤١ ق. م.(٦٦) ، بين سيليوكوس الثانى وبطلميوس الثالث لتأكيد اعتراف كل منهما بممتلكات الآخر فى المنطقة وكذلك فى البحر الإيجى .

(ب) إنحسار الدور البطلمى المؤثر فى سياسات الدول - المدن اليونانية ، واقتصاره على الدعم المالى والإعانات لهذا أو ذاك وفق المصالح المتغيرة .

(حـ) قيام تحالفات يونانية محلية - فى اليونان ذاتها - بالدور الرئيسى فى تسيير دفة الأمور السياسية والاقتصادية ، مثل العصبتين : الآخية(٦٧) ، الأيتولية (٦٨)، والتى دخلت فى حرب مع ديميتريوس الثانى (٢٣٨ - ٢٢٩ ق.م.)(٦٩) بمجرد اعتلائه عرش مقدونيا .

- وقد امتلأ التاريخ اليونانى ، بكل مصادره المختلفة ، بأحداث تلك المصادمات الدامية بين المدن اليونانية وبعضها البعض، وتدمير قوتها الذاتية بنفسها ، تارة ، وبأيدى حلفاء أجانب، من خارج اليونان، تارة أخرى (٧٠).

---

(٦٤) ونفضل ، نحن كذلك كما فعل الدكتور العبادى ، تلك الصياغة لهذا الأسم ، بدلاً من "الطاء" كما فعلت من قبل .

(٦٥) لم يذكر تارن السنة التي تولي فيها هذا الملك عرش مقدونيا ، ولكن هذا التاريخ جاء عند الدكتور/نصحي ، المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٦٦) نصحي ، المرجع نفسه ، ص ١٣٧ .

(٦٧) نسبة إلى إقليم اخاييا (Akhaïa) فى شمال غرب البلوبونيز باليونان .

(٦٨) نسبة إلى إقليم أيتوليا (Aetolía) شمال أتيكي ، في وسط اليونان .

(٦٩) نصحى ، المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

(70) E. g. , Tarn, op. cit., pp. 19 - 21 .

ويبدو أن الشرق الهيللينستى ، آنذاك ، كان قد استرخى واستراح إلى تا المصالحة الشكلية ، عام ٢٤١ ق.م. بين المملكتين الجارتين ، الطامعتين ف أملاك بعضهما ، وعاش فترة من السلم الظاهرى ، من جراء ما وصلت إليه قو المنهكة ، فآثر الجميع السلامة ، وركنوا إلى المهادنة السلبية . وعاشت المملكتا فى استرخاء ، وفتور تجتر آلام الماضى القريب ، بدعوى الاكتفاء بالحد الإقليمية، ومن ثم ، لم يحركا ساكنا إزاء ما يجرى حولهما ، وبالقرب منهما ، ف البحر الإيجى باليونان .

فهل ، لهذا السبب ، لم يهتم پوليبيوس ، المؤرخ المعاصر الوحيد للأحداث بتلك الفترة السابقة على بداية تأريخه الفعلى لصراعات المنطقة ؟ ربما كان الأ كذلك ؟ وربما – أيضاً – أراد أن تكون بداية تأريخه لأحداث المنطقة من أسوأ فتر فى تاريخها ، حتى تبدو تلك المنطقة كأحوج ما تكون إلى التدخل الرومانى القادم، بمجرد الانتهاء والقضاء على القوة القرطاجية ، المنافس الأقوى لروما طي القرن ٣ ق.م. أى أن مؤرخنا بدأ تاريخه ، من تلك النقطة التى حددها لنفسه عامداً متعمداً ليبرر الوصاية الرومانية ، وتدخل روما فى شئونها ، فيما بعد ، وه المؤرخ المفتون بعظمة روما ، والناطق الرسمى بلسانها ، والعارف بفضلها عليه(٧١) .

ويكفى أن نقرأ شهادة آيدرس بل (H.I. Bell) وتعليق أستاذنا العظي الدكتور/عبد اللطيف أحمد على عليها، لنتعرف على سوءات ومظاهر الانهيا الشديد للحكم البطلمى فى مصر مع بداية حكم بطلميوس الرابع عام ٢٢١ ق.م. والتى جعلها پوليبيوس بداية لتأريخه لأحداث المنطقة !

يقول آيدرس بل (٧٢)، عن فيلوپاتور (Philopátor) (٧٣) «.. كان فى الواق ملكاً ضعيفاً ، خليعاً ، وألعوبة فى يد وزيره الفاجرسوسيبيوس ، وخليلته الفاسق أجاثوكليا ، وأمهما الرهيبة أويناثى . وتلك عصابة من الأوغاد الأفاقين، لم تبتل بمثلهم إمبراطورية حتى قيام العهد النازى.»

---

(٧١) راجع كتابنا /معالم تاريخ روما القديم ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ص ٢٦ – ٢٩ .

(٧٢) مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي، ترجمة وتعليق د. عبد اللطيف أحمد على القاهرة ١٩٦٨، ص ص ٧٧ – ٧٨ .

(٧٣) لقب يونانى ، مكون من كلمتين : Philos (حبيب/صديق) و Páter (والد/أب) وبالتالي فهي كلمة تعنى : المحب لوالده/أو/حبيب ابيه .

كمـا أننا لا نستطيع أن نوافق توندريو[٧٤] (J. Tondriu) على رأيه بأن جلسات الشراب والاحتفالات الملكية فى عـهد فيلوپاتور لم تكن مجرد لهو وعبث ، وإنما كانت جزءاً من سياسة مرسومة وذات طابع دينى ! وذلك فى ضوء شهادة إحدى شخصيات أثينايوس[٧٥] (Athenaeus) - نقلاً عن إراتوسثينيس (أستاذ فيلوپاتور) - حول ملابسات حفل الدنان (الكؤوس) ، فقالت :

«إنه يبدو حـفلاً مبتذلاً ، ولابد من أن المدعـوين فئات مختلطة كل منهم يتناول طعاماً عفناً من أحط الأصناف[٧٦]» .

والحق ، أننا اليوم ، لا نملك أدلة أخرى يمكننا أن ندافع بها عن موقف ذاك الملك الضـعيف ، غـير تلك الموجـودة الآن ، والتى ربما كـانت بهـا مـبالغـات مقصودة، عن عمد ، كما قلنا ولا سيما من قبل المؤرخ پوليبيوس[٧٧] ، مصدرنا الأول والأخير، عن تلك الفترة محل الخلاف.

كان هذا الوضع ، أو تلك المقدمات ، على الساحة المصرية البطلمية ، وكان هناك شيئ شبيه بذاك الوضع وتلك المقدمات على الساحة المقدونية مع فليب الخامس . وهى بوادر لعلاقات عدائية مع روما ، كان النصر ، فيها ، حليفاً لروما ، مما يجعلنا - على يقين تام - من نوايا پوليبيوس الواضحة لتحديد تأريخه لأحداث المنطقة بوصول أولئك الملوك ، بالذات ، إلى عروش بلادهم وبقليل من التفصيل يمكننا فهم تلك الملابسات :

أولاً : كانت روما منشغلة بحربها البونية الأولى مع قرطاجة طيلة الفترة الواقعة بين ٢٦٤ - ٢٤١ ق. م. ، وبالتالى لم نحس بوجودها فى الشرق القديم آنذاك .

ثانياً : وبمجرد خروج روما منتصرة على قرطاجة ، بفضل التكتيك المضاد فى معركة «زاما» ٢٠٢ ق. م. - فى الحرب البونية - الثانية ، انتقلت

---

(74) "Les thiases royaux de la cour ptolemaïque", chronique d'Egypte, XXI,41 (1946), pp. 149 - 171.

(75) The Oxford Classical Dictionary, (2nd edition) Oxford 1970 , p. 139 .
وهو فيلسوف يونانى - مصرى المولد (نقراش) ، ازدهر عمله «فلاسفة الموائد» Deipnosofistai حوالى عام ٢٠٠م.

(76) Athenaeus, Deipnosofistai, VII, 267. b - c.

(77) Préaux, C. " Polybe et Ptoleméc philopator," chronique d'Egyptc,XXI, 40 (1965), pp. 364 - 375.

حركتها – من الدبلوماسية إلى الفعل العسكرى المباشر والمساندة الحربية السافرة إلى جانب البعض ضد الآخر فى صراع المنطقة :

(أ) فبعد أن كانت تساعد الأيتوليين ، بقوات متواضعة ، ضد فيليب الخامس ، الذى كان قد عقد تحالفاً مع هانيبال القرطاجى ، نجد القوات الرومانية ، بعد عام ٢٠١ ق.م. ، تدخل فى معركة فاصلة مع فيليب بقيادة فلامينيوس ، وبمساعدة قوة فرسان آيتولية يونانية ، وتهزمه هزيمة نكراء فى موقعة رؤوس الكلب (Kynós Kefalaí)– بساحل ثساليا عام ١٩٧ ق.م.

(ب) أعلن فلامينيوس تحرير اليونان – من القوات المقدونية وانسحاب القوات الرومانية كذلك – عام ١٩٦ ق.م. ، وتم إجبار فيليب على تحالف مع روما منذ ذلك التاريخ(٧٨).

وفيما يخص المملكة المقدونية الثالثة ، وهى المملكة السيليوكية ، نجد أن الرومان ، وبتحالفهم مع برجاموس (Pergamos) استطاعوا ، فى عام ١٩٠ ق.م.، أن ينزلوا بأنتيوخوس الثالث ، الملك السيليوكى (الذى كان قد أعاد تنظيم مملكته وبسط سلطانه على پارثيا (Parthia) وباكتريا (Bactria) ، شمال آسيا الصغرى) أشد الهزائم وأن يحطموا قواته الرئيسية ويجبروه على أن يتنازل عن كل أطماعه وتطلعاته غرب جبال طوروس (Taurus) إلى الأبد .

وهنا ، أيضاً ، استطعنا أن نتأكد من النية المبيتة لخدمة الغرض النهائى من كتابته التاريخية عندما حدد پوليبيوس، كما ذكرنا من قبل ، عامداً متعمداً ، تلك البدايات الثلاثة – الآنفة الذكر – ليؤرخ لعلاقات أولئك جميعاً بالرومان . ذلك لأنه ، منذ مطلع القرن الثانى ق. م. أصبحت روما سيدة العالم القديم كله ، وبلا منازع . وبالضبط كما قال Burn :

(Rome was clearly the mistress, even without direct occupation, ...(79)) .

(78) Burn, A. R., The Pelican History of Greece, England 1965 (Rep. 1979), pp. 379-380 .

(79) I bid., p. 381 .

وعلى الجانب الآخر، غدت اليونان (الحُرة ، يوماً ما) تتسول تأييدها ومساندتها ، ضد أعدائها ، بالشكاية واستعطاف القوة العالمية الوحيدة، ألا وهى روما(٨٠) ولا سيما فيما قبل عام ١٦٨ ق. م.(٨١) .

وإذا عدنا إلى تتبع قصة الصراع الدامى بين المملكتين الجارتين : مصر البطلمية وسوريا السيليوكية ، لوجدنا أن أهم وأخطر المعارك بينهما كانت هى معركة رفح ، عام ٢١٧ ق. م. ، وذلك فى ضوء عدة اعتبارات ، نحصى بعضها كالتالى (٨٢) :

١ - تجنيد الفلاحين المصريين ، لأول مرة فى ظل الاحتلال البطلمى منذ عام ٣١٢ ق. م. ، بأعداد كبيرة وصلت إلى ٢٠,٠٠٠ جندى ضمن فرق الجيش البطلمى .

٢ - زيادة ثقة المصريين بأنفسهم ، باعتبارهم السبب الرئيسى فى النصر على القوات السيليوكية .

٣ - استرجاع فيلوپاتور ، الملك البطلمى الرابع ، لجنوب سوريا وكذلك لإقليم فينيقيا ، الساحلى ، ضمن أملاك مصر الخارجية وكانت معركة ٢٢ يونيو ٢١٧ ق. م. ، أى معركة رفح هذه آخر انتصار للقوات البطلمية على القوات السيليوكية ، سجله لنا التاريخ ، كما كانت فاتحة لكل ما تلى من ثورات محلية ، للعناصر الوطنية المصرية فى مشوار كفاحها ضد البطالمة بعد أن زاد احساسهم بضرورة المساواة – فى كل شئ – مع بقية العناصر الأجنبية على

(80) I bid .

(٨١) وهو التاريخ المؤسف لنهاية حرية اليونان وسيادة روما عليها ، وأسر حوالى ١٠٠٠ (ألف) ، رهينة من الآخيين ، الذين كانوا يناؤون الوجود الرومانى على أرض اليونان ، ويحلمون بانتصار المقدونيين على روما ، وكان مؤرخنا پوليبيوس أحد هؤلاء الأسرى ، المحمولين إلى ، روما ، كرهينة ، وكان إبناً لأحد جنرالات الحلف الآخي المهزوم . ولما كان الرومان في بيت سكيبيو (Scipio) أكبر البيوتات العريقة فى روما – قد أحسنوا إليه ، فأعجب پوليبيوس بهم ولا سيما طريقة معالجة ضباط الجيش للشئون العامة ، وقت السلم ، بغيرة وأمانة – دونما الحاجة إلى أختام وشهود فيما يخص المال العام . ولذلك أراد أن يرد الجميل وخطط لذكر تاريخ روما طيلة الـ (٥٠) عاماً السابقة على عام ١٦٨ ق. م. وإن كان قد اضطر إلى الاستمرار لفترة أخرى مدتها (٢٢) عاماً ليضمنها تدمير الرومان لمدينة كورنثوس تدميراً كاملاً عام ١٤٦ ق. م. كتحذير منهم للمدن اليونانية الأخرى.

أرض مصر ، ولا سيما اليونانيين (٨٣) . وبالرغم من أن بوليبيوس قد فصّل الحديث عن معركة رفح (٨٤) ، إلا أنه أوجز كلامه فيما يخص ثورة المصريين العامة ضد الحكم البطلمى واندلاع لهيب تلك الثورة حتى صعيد مصر ، وفى مدينة طيبة على وجه الخصوص (٨٥) .

وفى عام ٢٠٥ (٨٦) أو ٢٠٣ (٨٧) ق.م. توفى (؟!) (٨٨) الملك البطلمى فيلوباتور ، وأصبح سوسيبيوس وأجاثوكليس أوصياء على العرش ، على الملك الطفل (لم يكن يتجاوز الخامسة من عمره) ، بموجب وصية مزيفة ، إدعيا فيها أن الملك المرحوم (المقتول!!) كان قد تركها .

---

(٨٢) فى دراسات بحثية مستفيضة قام المرحوم الأستاذ الدكتور/محمود عواد حسين، الأستاذ بكلية الآداب، بجامعة عين شمس، بتناول الثورات المصرية الوطنية ضد البطالمة وذلك منذ عام ١٩٤٩، ونشرها فى ؟؟؟ الكلية منذ مجلدها الأول سنة ١٩٥١.
كما قام المرحوم الزميل الدكتور/عبد العظيم الراعى، بآداب القاهرة ، بعمل رسالة دكتوراة عن هذا الموضوع ولا سيما معركة رفح ونتائجها على السياسة البطلمية . الرسالة باليونانية الحديثة ، من جامعة سالونيكى - باليونان - عام ١٩٧٤ .

(83) Tarn, op. cit., p. 22 .

(84) Polybios, V . 107 .

(٨٥) يذكر الدكتور العبادى (المرجع السابق ، ص ٧٥) أن أهالى مدينة طيبة استطاعوا أن يعلنوا استقلالهم حتى عام ١٨٥ ق. م. ، إبان حكم بطلميوس الخامس ، ويبدو أنهم كانوا قد تلقوا عوناً من إثيوبيا . كما يؤكد أن بردية تاخوس الديموطيقية التى تبشر المصريين بيوم الخلاص القريب من الأجانب الإيونيين (اليونان) ، هى حديثة التأليف قبل الثورة مباشرة ، أى بعد معركة رفح ٢١٧ ق. م. ، ونُسبت قبلها فى عهد تاخوس (٣٦٦ - ٣٦٠ ق. م.)

(٨٦) هناك غموض حول تاريخ وفاة بطلميوس الرابع ، ووصول ابنه ، الطفل ، إلى العرش ، راجع

- Walbank, F. W., Journal of Egyptian Archaeology XXII (1936), p. 20 .
- Bikerman, E., chronique d'Egypte, XXIX (1940), p. 124 ff .
- Skeat, T. C., The Reigns of the Ptolemies, 1954, p. 32 .

وكذلك أنظر تارن & Tarn , pp. cit., p. 23 حيث يذكر كلمة من المحتمل probably مما يعني عدم تأكده من ذلك .

(٨٧) نصحي ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ ، حيث يرجح كتمان نبأ وفاة الملك لفترة قصيرة قبل ٢٨ نوفمبر ٢٠٣ ق.م. .

(٨٨) يميل الدكتور العبادى إلى إعطاء انطباع مقتل فيلوباتور وزوجته ، وإن كان لم يقل ذلك صراحة ، (المرجع السابق ، ص ٧٧) إذ يقول : «وبطبيعة الحال لم تنطل التمثيلية على الحاضرين وسرت همسات الاستنكار بين الجميع .»

وليصف لنا المؤرخ القدير ، الوفى جداً لمصالح الرومان ، ما كان عليه الحال ، آنذاك ، بتفصيل كبير ، فيذكر پوليبيوس ما يلى :

(أ) حاول الأوصياء كسب تأييد الجيش فوزعوا على الجنود راتب شهرين(٨٩) .

(ب) عيّنا أصدقاءهما فى المناصب الرئيسية فى الإدارة العليا للمملكة .

(حـ) زيادة مشاعر الكراهية والبغض من عامة الشعب لهما ولجماعة الاصدقاء من حولهما ، كطغمة فاسدة تآمرت على القصر والدولة لصالحهما الخاص .

(د) قيام قائد حامية پلوزيوم «تليپوليموس : Tlépólemos » بثورة على النظام وانضمام حامية الاسكندرية إليه وتأييد الشعب له .

(هـ) لجوء أجاثوكليس إلى إعدام الكثيرين للتخلص من مناوئيه(٩٠) .

(و) محاكمة مويْراجيديس (Móeragénés) الظالمة (٩١) وبراءته من تهمة نقل الأخبار إلى تليپوليموس ، القائد الثائر .

(ى) أتفاق كل شعب الإسكندرية على الثورة ضد الأوصياء ، فى أقل من أربع ساعات(٩٢) (!؟) .

وجاءت ساعة الانتقام ، وحاصرت جموع الشعب الغاضبة القصر الملكى ، وأجبرت المختبئين فيه : أجاثوكليس وأخته وأمه وأقاربهم وخدمهم ، ومعهم الملك الطفل ، على الخروج إلى مضمار السباق (هيپودروموس) ، وحيّا الناس الملك وأرسلوه ، فى أمان إلى قصره ، ثم راحت الجماهير، بغل وغضب ، فانقضت على الخائنين وقطعتهم إرباً إرباً (٩٣).

وفى أثناء كل تلك النكبات التى حلت بالبيت الحاكم البطلمى وثورة الحاميات العسكرية القريبة منه ، عليه ، وقيام المصريين بثورات مشابهة ، فى

(89) Polybios, XV : 25 , 3 - 11 -
(90) I bidem, 26 : 10 - 27 , 33 - 36 .
(91) I bidem, 27 : 6 - 11 .
(٩٢) نصحى ، المرجع السابق ، ص ١٧٣ .
(93) Polybios, XV, 31 - 32 .

جنوب مصر استمرت سنوات طويلة(٩٤) كان طبيعياً أن تزداد المخاطر الخارجية وتنتعش آمال الطامعين فى مصر وممتلكاتها الخارجية . فجاءت الأخبار باعتداء أنتيوخوس الثالث على جوف سوريا ، وشبت بذلك الحرب السورية الخامسة .

كان متوقعاً ، والحال كذلك ، أن تسقط غزة ، بعد كفاح طويل ومقاومة عنيفة ، ويقوم أنتيوخوس بتخريبها عام ٢٠١ ق.م. ، وتهزم القوات البطلمية ، بقيادة سكوپاس (Skópás) هزيمة فادحة عند پانيون (Pánion) ، بالقرب من مصب نهر الأردن : عام ٢٠٠ ق.م. ، مما أجبر سكوپاس على التسليم (٩٥) ، ومن ثم واصل أنتيوخوس انتصاره واسترد بيت المقدس ونشر نفوذه على فلسطين وحتى صحراء سيناء(٩٦) وكانت مصر البطلمية ، حتى عام ١٩٨ ق.م. ، «قد فقدت كل جوف سوريا إلى غير رجعة ، وكان أنطيوخوس فى مركز يسمح له بغزو مصر ، لكنه وجه نشاطه ناحية أخرى ، حيث استدعته مهام عاجلة(٩٧)» .

ويبدو أن الأمر ، آنذاك ، لم يكن بهذه البساطة التى بها يغير ملك طموح ، نهاز للفرص والظرف الداخلى السيئ فى مصر ، خط سيره ويوقف مشوار انتصاراته المتتالية ولم يكن يمنعه من غزو المملكة البطلمية أية قوات . ويبدو - على الأرجح ، أن البعثة السياسية ، الدبلوماسية ، من أشهر قادة الرومان (عقب انتصارهم المدوى على قرطاجة فى زاما عام ٢٠٢ ق.م.) إلى الشرق القديم لتحقيق الوفاق بين المملكتين الجارتين المتحاربتين ، قد حققت غايتها وأوقفت التهديد السيليوكى لمصر ، التى كانت قد سارعت بطلب النجدة من روما (٩٨) هذا وإن كان الدكتور نصحى يرى غير ذلك . وينتهى من دراسته لعلاقة روما بأنطيوخوس الثالث ، وهدف تلك السفارة الرومانية العاجل - عام ٢٠٠ ق.م. إلى النتيجة التالية :

---

(٩٤) قام زعيمان مصريان هارماخيس وأنخماخيس بثورة ظلت حوالى (١٩) عاماً ، من ٢٠٥ حتي ١٨٦ ق.م. وسيطرا علي منطقة ، في صعيد مصر ، تمتد من إدفو حتي قفط ، وكانت طيبة (الأقصر حالياً) عاصمة تلك الثورة . راجع /حول ذلك المقالات الآتية :

- Uebel, F., "Taraché tón Aigyptíon" , Archiv 17 (1960 - 62), pp. 147 - 162 .
& Pestman, P.W., " Harmachis et Anchmachis, deux Rios du temps des ptolemées", Chronique d' Egypte, 40 (1965), pp. 157 - 170 .

(٩٥) نصحى، المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(96) Polybios, XVI : 39, 3 - 4 .

(٩٧) نصحى، المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(98) Livius, Ab urbe condita, XXXI : 2

«والحقيقة أن روما تركت مصر تلقى مصيرها ، لأنها إذا كانت قد أمرت فيليب بألا يمس الممتلكات المصرية ، فإنها لم تتخذ أى اجراء لمنع أنطيوخوس من أن يفعل فى تلك الممتلكات ما يشاء (٩٩) »

ومع ذلك – فإننا نرى عكس تلك النتيجة ، ونفسر توقف أنتيوخوس عن غزو مصر ، بأنه نتيجة طبيعية لتهديد رومانى مباشر للملك السيليوكى ، وإن جاء على أيدى بعثة دبلوماسية ، ولم تأت عن طريق تدخل رومانى عسكرى مباشر ، وذلك فى ضوء :

(١) كان انتشار شائعة تقول بقيام تحالف (١٠٠) بين فيليب الخامس وأنتيوخوس الثالث هو المتسبب الأول فى الهرج السياسى. والنشاط الدبلوماسى فى المنطقة كلها ، تحسباً لتلك الخطوة الخطيرة التى ربما تجمع أعظم قوتين عظميين فى الشرق القديم ، فى تحالف واحد ، مما فتح شهية روما وأثار فضولها . ولا سيما بعد انتصارها المدوى على قرطاجة ٢٠٢ق.م.، على إثر طلبات النجدة والاستغاثة من دول المنطقة راجية العون من روما : المعادل الغربى الوحيد لتلك القوى الشريرة فى الشرق

(٢) جاء وصف أبيانوس للوضع القائم آنذاك ، فى مطلع القرن الثانى ق. م. على إثر انتشار تلك الإشاعة ، موضحاً التحركات السياسية الخارجية لقوى المنطقة، فيقول :

" ektarássousan ápantas Rhódioi mén Romaious eménysan...., présbeis d'es tous Basiléas épempon, hoi proegóreuon autois Antíochon mén Aigypto mé epicheirein, ... (101)"

(٩٩) المرجع السابق ، ص ص ١٨٠ – ١٨١ .

(100) Appianus, ek tés Makedonikés, IV,

حيث يذكر النص عبارة : « hypóskhointo allélois »

بمعنى : ويذل كل منهما الوعود للآخر

(101) I bid .

بمعنى :

« وقد أذهل ذلك الجميع وأربكهم ، فتظلّم أهل رودوس إلى الرومان ، من ناحية ، ... وأرسلوا ، هم (أى الرومان) ، من ناحية أخرى سفارات إلى الملوك ، آمرين إياهم بأن يمنعوا أنتيوخوس من غزو مصر ..... »

(٣) إذن ، نحن أمام نص صريح من مؤرخَيْن أحدهما أقرب وأدق ، وهو ليڤيوس (Livius) الرومانى ، (حوالى منتصف القرن الأول ق. م.) ، والثانى أبعد منه ، ولا حق على الأحداث (من القرن الثانى الميلادى) ولكل منهما مصادره القديمة التى نقل عنها نعرف منها تفاصيل تلك الأخبار السياسية الخطيرة فى تاريخ روما القديم ودورها النشط فى تاريخ الشرق القديم .

الأول : يؤكد طلب الملك البطلمى النجدة من روما ، عقب قيام أنتيوخوس بعمليات عسكرية فعليه ضد ممتلكات مصر الخارجية فى سوريا .

والثانى : يؤكد أمر الرومان المباشر لملوك المنطقة لتبليغ أنتيوخوس بألا يغزو مصر .

(٤) أما ماذا دار وماذا تم بين السفارة الرومانية والملك السيليوكى ، أنتيوخوس ، فإننا لا نملك أى دليل على تفاصيله سوى ما سجله لنا المؤرخون القدماء فى هذا الخصوص ، وحتى هذا الذى وصلنا ولاسيما ما سطره لنا أقرب المؤرخين للأحداث ، وهوبوليبيوس . لا نستطيع أن نسلم به تسليماً تاماً ، لوقوعه فى دائرة الإعجاب والافتتان بقوة روما وإعجازها الحضارى والعسكرى ، وإعلانه ذلك صراحة . ونلمس ، نحن ، أحد مواطن ضعف الرواية التاريخية عند بوليبيوس . فيما يخص العلاقات المصرية – السورية القديمة ، آنذاك ، عندما أشار إلى إنذار روما لفيليب ، فى صيف عام ٢٠٠ ق. م. بأنها أمرته بألا يمس الممتلكات المصرية فأية ممتلكات مصرية كانت روما تقصدها ؟ هل كانت تقصد رودوس ، اليونانية ؟!! البعيدة داخل البحر الإيجى اليونانى(!!!) أم الممتلكات المصرية الحدوية ، فى سوريا ، التى أستولى عليها فعلاً الملك السيليوكى ؟!! أيهما كان أهم لمصر ، عندما طلبت نجدة روما ؟! فهل يمكننا أن نشعر بالمراوغة السياسية – إذا كان هذا الكلام قد حدث فعلاً ، وكيف أن فيليب البعيد عن مصر ، كان أخطر على أملاكها من أنتيوخوس السيليوكى ، الذى ضم فعلاً معظم أملاك مصر فى سوريا وكان يستعد لغزوها هى نفسها ؟!!!

وهل إحساساً ، بهذا الخطأ السياسى ، من جانب روما آنذاك ، صحح المؤرخون اللاحقون الروايات وقالوا بأن روما كانت قد أمرت الملك السيليوكى (وليس فيليب) بألا يغزو مصر ؟!! أم أن هناك - مواقف أخرى غامضة لا ندرى عنها شيئاً ، حتى اليوم ؟!!! وإذا كان الأمر مجرد مراوغة سياسية من الرومان - كما يريد أستاذنا الدكتور نصحى أن يقول - فلماذا إذن كانت زيارتهم الفعلية لأرض المعارك الدائرة بين القوات المصرية - البطلمية والقوات السورية السيليوكية ؟! ثم لماذا زاروا الاسكندرية من بعد ذلك ؟! هل كل ذلك ضمن سياسة الضحك على إلذقون البطلمية ؟!!! ثم ، أخيراً ، لماذا القول بأن أحد أفراد البعثة الدبلوماسية الرومانية ، وهو لبيدوس (Lepidus) كان قد بقى - فى الاسكندرية - إلى جوار الملك البطلمى ليحميه باسم روما (١٠٢) ؟! إننا - بعد كلذ لك - لا يمكننا أن نوافق الدكتور نصحى على ما ذهب إليه على أن الأمر على الجبهة السورية المصرية المشتعلة لم يكن يعنيهم ولا سيما أنهم - أى الرومان قاموا بالشئ نفسه ، ولإيقاف الملك السيليوكى ، التالى مباشرة ، وهو أنتيوخوس الرابع ، عندما وصل إلى مشارف الاسكندرية وأعلن نفسه ملكاً على مصر ، فأرسلوا له مجرد سفارة عسكرية على رأسها أحد ألمع قادة الرومان الشبان ، آنذاك ، وهو پوبيليوس لايناس (P. Laenas) الذى أذل الملك السيليوكى وأجبره على العودة من حيث أتى ، إلى بلاده وداخل مملكته فى سوريا وكان ذلك عام ١٦٨ ق. م (١٠٣) ، أى بعد تلك الواقعة التى نحن بصددها بحوالى (٣٢) عاماً فقط .. أفليس اليوم كالأمس ؟!!! وأليست روما هى نفسها ، سيدة العالم القديم (١٠٤) دون منازع منذ عام ٢٠٢ ق. م. ؟!! وألم تكن مصر ، آنذاك ، هى أغنى مملكة مقدونية فى الشرق ، وضعفها آنذاك ، يجعلها لقمة سائغة فى فم الأسد (روما) أم تجعلها هى ، طواعية ، تضيع من بين يديها إلى فم الذئب (الملك السيليوكى) ؟!!!

وتجرى الأحداث سراعاً لصالح الملك السيليوكى، مؤقتاً ، إذ أنها كانت تقوده، إلى هلاكه ، ذلك لأن الطمع والتطرف غالباً ما يفضيان إلى التهلكه ، وكان طمعه ، فى جنوب مملكته وغربها من ممتلكات الآخرين قد أسلمه إلى تنافس غير متكافئ مع قوة غربية ، أكثر طمعاً منه فى ثروات الشرق ، وأكثر قدرة

---

(102) Livius, XLV : 44, 13 ; Tacitus , Annales, II , 67 .

(١٠٣) نصحى ، المرجع السابق ، ص ص ٢١٠ - ٢١٤ .

(١٠٤) وللأمانة التاريخية والموضوعية الضرورية ، نقول ، أكثر تحديداً ، فى غرب المتوسط لأنها لم تصبح سيدة مطلقة على العالم القديم كله ، إلا بعد معاهدة أپاميا ١٨٩ ق. م.

وكفاءة منه على الصمود والتحدى ، وتعرف من الأساليب الدبلوماسية ، وسياسات الخطوة – خطوة ، الكثير والكثير إنها هى روما والرومان .

لقد كان أنتيوخوس الثالث هو الفائز الأوحد من تدمير الرومان لقوة فيليب الخامس المقدونى عام١٩٧ ق.م. ، ولذلك قام ، فى العام نفسه ، بآخر فتوحاته فى الغرب ، واسترد آخر جزء من إرثه القديم حتى شاطئ تراكى(١٠٥) . وحاول الرومان اقناعه بشتى الطرق لكى ينسحب من الأراضى اليونانية ، ولكنه رفض . فأعلنت روما حرية بلاد اليونان – لترى ما ذا عساه فاعلاً وعما إذا كان ينوى الدخول فى حرب مع روما أم لا : ويذعن لرغبتها ودياً – عام ١٩٦ ق.م. ، وأبلغت سفراءه بأن يبتعد بقواته عن كل المدن اليونانية سواء فى أوروبا أو آسيا(١٠٦).. إنها حيلة الذرائع التى تجيدها روما تماماً ثم هاهى ترسل إليه سفارة رومانية رسمية لتستمع إليه جيداً وتقطع الشك باليقين فى مواقف الملك الشرقى السيليوكى . وكانت المراوغة من أنتيوخوس فى كل الاتجاهات(١٠٧) .

وسارع أنتيوخوس ، لتقوية مركزه إزاء كل التوقعات من روما التى تقف له بالمرصاد فعقد صلحاً مع الملك البطلمى كان هو صاحب المبادرة فيه ، حتى يؤمن ظهره فى الشرق ، واقترح تزويج ابنته كليوباترا للملك البطلمى الغلام بطلميوس الخامس (إبيفانيس : Epiphánes) عام ١٩٥ ق.م. وهذه هى أول مرة تخطب سوريا السيليوكية ود مصر البطلمية – ولكن ليس خوفاً منها أوتقديراً لها ، بل لمجرد تفويت الفرصة على روما للعب على هذه الورقة – أى/ الخلاف الدائم بين المملكتين الجارتين بسبب جوف سوريا . ذلك لأن مصر البطلمية ، آنذاك ، كانت فى أسوأ فترة من تاريخها لتحكم الأوصياء فى سياسة الدولة ، كل لخدمة صوالحه الخاصة ، مما أظهرها متناقضة المواقف(١٠٨) .

---

(105) Polybios , XVIII : 51, 3 .

(106) Ibidem, 47, 1 - 3 .

(١٠٧) تذكر المصادر القديمة تفاصيل مثيرة حول ردود الملك السيليوكى على السفارة الرومانية وحيله العديدة في الإجابة عن كل سؤال وجهه له الرومان ، ومنطقه السليم في تلك الردود ، مثل/لماذا تتدخل روما فى شئون آسيا وهو لم يتدخل فى شئون إيطاليا ، وأنه هو والأسرة البطلمية في مصر على وشك المصاهرة . المزيد راجع /; Polybios, XVIII : 49 - 51 Livius,, XXXIII : 39 - 40 .

(١٠٨) كان أريستومينيس ، الوصي ، حكيماً . وتجرع السم بأمر الملك لسبب تافه (!!؟) وجاء بوليكراتيس وحوّل دفة الحكم إلى كره المصريين ونفاق روما واسترضائها .

وكان موقف العرش البطلمى ، فى مطلع القرن الثانى ق. م. ، فردياً ، فالملك البطلمى ، الغلام ، مرتبط بصلح مع أنتيوخوس ، بل إنه أيضاً متزوج بإبنته كليوباترا ، منذ عام ١٩٣/١٩٢(١١٠) ق. م. ، ولكنه فى الوقت نفسه منساق - بفعل نصائح الأوصياء وبطانة السوء إلى سياسة ذليلة مستكينة (كما يصفها الدكتور نصحى)(١٠٩) أملاً فى الفوز برضاء روما لتعيد له ممتلكات مصر الخارجية المغتصبة ؟!!

هكذا كانت مواقف كل من سوريا السيليوكية ومصر البطلمية من روما ، على النقيض تماماً :

الملك السورى ، يعمل فى جد ونشاط ويحقق طموحاته التوسعية مستغلاً الظرف العالمى والمحلى أحسن استغلال ، ويناور ويحاور الرومان .

بينما الملك المصرى ، يتأرجح فى سياسته ، لصغر سنه ، ويفرض عليه الأوصياء وأصدقاء الأنس مواقف لا يعرف نتائجها ولا يحسن تقديراتها.

وباختصار شديد ، كان الملك السيليوكى قوياً ، بينما الملك البطلمى ضعيفاً . هذا يعادى روما والرومان ، بينما ذاك يتملقهم ويخطب ودهم . أما المصادر الغربية ، القديمة والحديثة على السواء ، فإنها تصور الصراع بين أنتيوخوس وروما على أنه صراع بين الشرق والغرب . ولا سيما بعد أن انضم إلى الملك السيليوكى القائد القرطاجى الهارب هانيبال المنفى من قرطاجة بعد هزائمه أمام الرومان عام ١٩٥ ق. م. - والذى يرجح تارن أنه ، أى هانيبال ، كان طبيعياً أن يستحث أنتيوخوس لمهاجمة روما فى ايطاليا نفسها(١١١) كما يدعى تارن، أيضاً ، أن اليونان والرومان كانوا قد بالغوا فى تقديرهم لقوة أنتيوخوس(١١٢).

(١٠٩) المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

(110) Tarn, op. cit., p. 27 .

ونحن هنا ، بهذا الخصوص ، نستبعد الرواية التي جاءت عند الدكتور العبادى (المرجع السابق ، ص ٨٣) بأن أهل المشورة ، في القصر البطلمي ، هم الذين اقترحوا على الملك الزواج من ابنة انيتوخوس الثالث وذلك في ضوء الأحداث ومجريات الأمور كما عرضناها وملابسات ذلك الزواج فى المصادر القديمة راجع/نصحى، المرجع السابق ، ص ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(111) I bid.

(112) I bidem, p. 26 .

(١١٢) وهو كلام مكرر ومعاد ، عادةً من الغرب بعد انتهاء الوقائع واكتمال مصالحهم ، وهو بالضبط ماسمعناه بعد حرب الخليج الأولى (١٩٩٠م) وتحرير الكويت ، ولكن بعد التدمير التام (!!!) لقوة العراق العسكرية .

ومن هنا تجمع أعداء الأمس فأصبحوا ، جميعهم حلفاء ضد أنتيوخوس ومحاولته تحرير اليونان (كغطاء سياسى لمحاولته التوسعية عام ١٩٢ ق.م. ، عندما بدأ غزوه لها ، بقوات قليلة (١١٣). ففى عام ١٩١ ق.م. ، استطاع الجيش الرومانى ، بمساعدة فيليب الخامس المقدونى (عدو الرومان الخطير فيما قبل عام ١٩٧ ق.م.) ، أن يسترد ثساليا وأن يدمر قوة أنتيوخوس ، عند ثرموبيلاى (Thermopylae) مما أجبر الملك السيليوكى على الفرار والعودة إلى آسيا الصغرى وحيداً تقريباً . وواصل الحلفاء - الغربيون - زحفهم فى آسيا الصغرى عام ١٩٠ ق.م. بقيادة سكيبيو (C.Scipio) وأخيه أفريكانوس (Africanus) (١١٤) وبمساعدة آيتوليا (Aetolia) (حليفة أنتيوخوس السابقة ؟!!!) فدخلوا فريجيا وهزموا الغال، حلفاء أنتيوخوس عام ١٨٩ ق.م. وأخيراً وضعت الحرب أوزارها عقب الصلح والسلام الذى تم بين أنتيوخوس وروما فى أپاميا عام ١٨٨ ق.م.

وهنا كانت نهاية القوة الشرقية الوحيدة - قوة المملكة السيليوكية - أمام طغيان الغرب ، متمثلاً فى روما والرومان :

١ - تم تنازل أنتيوخوس عن كل ممتلكاته فى آسيا الصغرى ، ماعدا كيليكيا .

٢ - سلّم قواته العسكرية ، من الفيَلة ، وكذلك الأسطول (؟!!)

٣ - دفع تعويضات ضخمة للحلفاء (؟!!)

٤ - إضطر للموافقة على طلب روما تسليم هانيبال لها (١١٥)

وهكذا ، تم تغيير وجه العالم الهيلينستى ، تماماً ، فى الشرق القديم ، وأسلمت ممالكه قيادها إلى روما ، وفقدت استقلالها الحقيقى وأصبحت روما - منذ ذلك التاريخ - سيدة العالم القديم كله شرقه وغربه دون منازع . وحقّ لتارن (Tarn) أن يقول بفخار واضح :

---

(113) Tarn, op. cit., p. 27 : "enough to provoke war but too few to wage it."
حوالى (١٠) عشرة آلاف رجل ، وهى قوات توحى بالحرب ولكنها لا تقدر عليها أو المبادرة بها ، وذلك فى تقدير تارن :

(١١٤) هو قاهر هانيبال القائد القرطاجي العظيم الذي أنزل بالقوات الرومانية أعظم خسارة في تاريخها كله ، في معركة كناي (Cannae) عام ٢١٦ ق.م. ، ولم يحالفه الحظ بعد ذلك .

(١١٥) ولكنه ، في واقع الأمر ، سهّل تهريب حليفه بعيداً إلي مملكة بيثينيا ، جنوب البحر الأسود.

(116) Tarn, op. cit., p. 28 .

(The Peace of Apamea altered the face of the Hellenistic east ; Rome was now the predominant power, . [116]

عندئذ تتفرغ روما لإحكام قبضتها على بقية الممالك الشرقية ، الواحدة تلو الأخرى ، ومن بينها المملكة البطلمية المتداعية الأركان فى مصر . لقد أدركت روما ببصيرتها السياسية النافذة أن الأمر لا يعدو كونه مشكلة وقت ، فقط ، ولا يحتاج الاستيلاء على مصر ، من قبل الرومان ، سوى اختيار الزمان المناسب لهم.

ولقد قمنا بمعالجة موضوع العلاقة بين مصر البطلمية وروما فى فصل مستقل بذاته حتى نتبين تطور تلك العلاقة وتدهورها المستمر ، ولا سيما بعد معركة رفح ٢١٧ ق.م. ، بالنسبة للأحداث فى مصر ، ومعركة زاما ٢٠٢ ق.م. بالنسبة للتاريخ الرومانى ، وذلك فى الجزء الثانى من هذا الكتاب الذى بين أيدينا .

(116) Tarn, op. cit., p, 28.

رابعاً : المصريون فى مواجهة البطالمة

دراسة تحليلية للروايات التاريخية والوثائق البردية

تقديم ضرورى :

لم يكـن المصريون يوماً ما فى تاريخهم الطويل جثة هامدة ، أو متكاسلة ، أو أمة بلا نخوة وطنية ، وذلك عند وقوعهم فريسة للإحتلال الأجنبى من الشرق أو الغرب . كما أنه ليس صحيحاً ، ما روّج له مؤرخو الغرب القدماء ، من أن المصريين كانوا يرحّبون بغزاتهم ومحتليهم ، بهدف تخليصهم من محتل آخر ، لم يفلحوا هم فى طرده وتحرير بلادهم منه . **ولكن العكس هو الصحيح ، فقد قاوم المصريون القدماء كل الغزاة الطامعين فى بلادهم ، وبسبب ظروف خارجة عن إرادتهم الوطنية الخالصة وطموحهم القومى الدائم فى التحرر والاستقلال ، لم ينجحوا فى تحقيق النصر على أعدائهم وطردهم من بلادهم التى أبتليت بهم .**

والحق أن التاريخ سيظل يذكر للأبد الموقف الإيجابى القوى، بل والعنيف من الظروف السيئة التى آلت إليها البلاد والعباد ، فى ظل أواخر حكام الأسرة السادسة المصرية ، مع نهايات الألف الثالثة ق.م. ، عندما قامت جموع الشعب الفقيرة بثورة عارمة ، كانت فيها الطبقات الكادحة الجائعة هى صاحبة المصلحة الأولى ، فدمرت كل شئ ، حتى المصالح الحكومية (!!!!) . وكان الوجود الأجنبى (الآسيوى) ، وإمتيازاته تحت سمع وبصر الفراعنة ، هى المحرك الأول لتلك الثورة.

والشئ نفسه يمكن أن يقال إبان مرحلة الإنتقال الثانية ، ضد الغزاة الهكسوس (فى القرنين ١٧ . ١٦ ق.م.) ، حتى قام الشعب المصرى ، تحت قيادة واعية ، وزعامة منظمة ، بطرد هؤلاء من كل البلاد ، وتم التحرير لكل التراب الوطنى ، وضرب المصريون عدوهم بسلاحه ، ولقنوه درساً فى التضحية والبسالة والفداء فى سبيل الوطن.

كما لم يكن المصريون بأقل درجة فى وطنيتهم وإخلاصهم لبلدهم وإستعدادهم للتضحية من أجل إسترداد كرامتهم وحريتهم ، ضد الغازى الآشورى ،

الذى استطاع (بمهارة شديدة)[1] أبسماتيك الأول طردهم – دون مواجهة مباشرة وأسس أسرته الملكية المصرية الخالصة فى عام ٦٦٤ ق. م.

وهاهم كذلك يثورون ثورة عارمة بزعامة خباباشا[2] ، الأمير الوطنى من الدلتا ، عام ٣٣٦ ق. م. ، ضد الوجود الفارسى الجديد فى عهد أرتكسركسيس الثالثة . ولم تدم الثورة إلا عامين ، فرض بعدها (حوالى عام ٣٣٤) دارا الثالث نفسه ملكاً على مصر ، وكان مصيره الهزيمة على يد الإسكندر الأكبر فى موقعة إسوس (Issos) عام ٣٣٣ ق. م.

وهنا نرى ضرورة أن نلفت نظر الدارس إلى مقولة شاعت خطأ وإنتشرت فى مراجعنا العربية ، وهى أن المصريين رحبوا بالإسكندر الأكبر (عام ٣٣٢ ق. م.) ترحيباً كبيراً ، وعلى حد تعبير البعض [3] : «دخل الإسكندر مصر واستقبله أهلها بأذرع مفتوحة» . فما هى مصادر معلوماتنا عن هذا الموقف الغريب ، من أمة لها تاريخ طويل فى التضحيات والصبر على البلاء ؟

إنه إذا كان لنا أن نبحث عن الحقيقة التاريخية الفعلية (Pragmatike historia–) كما فعل بوليبيوس [4] تأكيداً لدور الحظ وإرادة الإله (epi ton theon kai ten tychen–) فإن ما جرى لمصر وللمصريين عند غزو الإسكندر لها، لا يمكن تفسيره على أنه ترحيب به ، وتكاسل عن واجب الدفاع عن بلدهم ضد المحتل الجديد ، وذلك فى ضوء :

(١) ليس هناك مصدر تاريخى مصرى واحد يؤكد هذا الموقف الغريب (!!!) .

(٢) كل الروايات التاريخية ، حول هذا الموقف :

---

(١) حيث استقدم جنودا مرتزقة من اليونانيين(Iones) وكذلك (Káres) ، وكوّن جيشاً قوياً من الدلتا ، وتحالف مع بقية أمرائها ، وتوصل إلي اتفاق ودى مع الآشوريين ، من منطلق القوة ، أى سلام الأقوياء ، وتم انسحابهم من مصر ، وأسس أبسماتيك أسرته الجديدة الـ ٢٦ منذ عام ٦٦٤ ق. م./راجع مقدمتنا التاريخية في رسالتنا للدكتوراه/
El Saadani, M., Greek-Egyptian Relations : 945-525 B. C., Athens 1982, (in Modren Greek)

(٢) رمضان عبده السيد، تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته (الجزء الأول : إيران – العراق)، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ص ١٢٢ – ١٢٥ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٢٤ .

(4) Walbank, F. W., (Sather Classical) Lectures, Vol. 42 : Polybius, Univ. of California Press, London, England, 1972, pp. 60 - 65.

أ - أجنبية ، وتحديداً يونانية ، أى دعائية الغرض .

ب - ليس من بينها مصدر واحد كان معاصراً للأحداث ، وجميعها لاحق على موضوعها بعدة قرون (؟!!!) .

(٣) موقف الكاهن الأكبر بتوسيريس، فى مصر الوسطى ، (كما سنعرف تفصيليا)، من المحتل الجديد ، وإشاراته فى نصوص مقبرته ، تؤكد عكس ذلك تماماً (٥).

(٤) تأليه الإسكندر، فى معبد الوحى بسيوه «بإبن آمون» ، كان هو المخرج الوحيد الممكن ، بذكاء شديد ، لتفادى سوء معاملة الغازى لرعاياه المصريين ، مستقبلاً ، أو على الأقل لضمان معاملته للكهنوت الذى منحه وسيلة شرعية وتكريماً لم يكن يحلم به (!!!) .

(٥) ترحيب المصريين بالإسكندر، حتى ولو كان صحيحاً ، كان موقفاً تكتيكياً شعبياً ذكياً ، هو حيلة العاجز مؤقتاً ، الفاقد للأمل فى زعامة وطنية قادرة على الفعل ، وبخاصة أمام إنتصارات الإسكندر المتوالية (٦)، من ناحية ، والدعاية الخيرة التى سبقته بفضل الوجود اليونانى الأقدم فى مصر، من ناحية أخرى.

والآن ، وبعد إطلاعنا على مادتنا بشكل كامل ومصادرها الوثائقية ورواياتها التاريخية ، يمكننا أن نميز عدة مراحل متباينة التأريخ ، وكذلك متباينة الوسيلة ، فى تحقيق الهدف الأسمى لها جميعاً وهى مناهضة المحتل وزعزعة استقرار نظامه ، وإرهاب كيانه الجاثم على صدر الشعب المصرى ، كان قد بدأها ، على إستحياء ، وبمبادرة كهنوتية سريعة فاهمة، وانتهت بالإستسلام المؤقت ، واللجوء إلى محاولات متفرقة مبعثرة لاستنزاف قوى المحتل ، وإعلان العصيان لأوامره ، وضربه بسلاح الإشاعة والنبوءة ليقلق راحته ، وحتى لا يهنأ باله .

---

(٥) رمضان عبده السيد، المرجع السابق ، ص ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٦) إبراهيم نصحي «الإسكندر الأكبر» فلسفته السياسية» ، الموسم الثقافى ٧٨ - ١٩٨٣م ، للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ص ٥٩ - ٩٤ ، حيث يؤكد أريانوس علي أن والى مصر الفارسى لم يجد مفراً من التسليم (ص ٦٧) ، وتمت مناقشة قضايا كثيرة حول سلوكيات وسياسات الإسكندر فى ضوء المصادر القديمة ، وهى دراسة ممتازة بحق ، وبها آخر ببليوجرافيا حول موضوعها .

وهذه المراحل هى :

أولاً : دور الكهنوت المصرى : بتوسيريس (Petosiris) :

إذا كانت الكتابة التاريخية عند هيرودوت (Herodotos) ، يوماً ما فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، وما سجله للأجيال ، وضعت فى إعتبارها هدفين أو ، بألفاظ أخرى ، كان أبو التاريخ يأمل من وراء ماكتب وقال لمعاصريه ، وذلك فى مقدمة تواريخه ، فى إعتراف صريح محدد ، أن يحقق ما يلى :

أ - ألا يدّمر الزمن ذكرى أعمال الرجال ،

ب - وألا تنزوى شهرة الأعمال العظيمة والفخمة لليونانيين والأجانب(٧) فإن الخلود ، لكل شئ وخلال كل الأزمان والعصور ، كان هو الهدف الأول ، والهم الأكبر ، لكل إنجازات وأعمال المصريين القدماء ، وبخاصة عند القادرين على فعل ذلك . وقد يمكننا رصد كل مظاهر هذا الإصرار على الخلود ، عند أجدادنا القدماء، فيما يلى من نشاط حضارى لهم ، ثبت وتأكد فى ضوء المادة الأثرية المكتشفة والتى تؤرخ بمعظم الأسرات المصرية ، إستمراراً منذ الدولة القديمة وحتى أواخر الأسرة الثلاثين ، قبل دخول الإسكندر الأكبر مباشرةً عام ٣٣٢ ق. م. ، بل وطيلة وجود الإحتلالين البطلمي والرومانى من بعده . وهذه المظاهر التى تجسد الرغبة العارمة فى الخلود ، يمكن أن نلمسها فى :

١ - التحنيط (٨) .

٢ - الكتابة (٩) .

---

(7) Historiae, Prologue, Book I :

وكما قال بنداروس (Pindar, Isthmian, VII 13) : أى « ولكن العظماء خالدون » (amnamones de Brotoi)

(٨) ليس أدل على ذلك ، حتى يومنا هذا ، من وجود العدد الكبير من مومياوات بعض فراعنة مصر القدماء ، وأشهرها مومياء توت عنخ آمون ، وكذلك رمسيس الثانى، ضمن مقتنيات المتحف المصري ، في ميدان التحرير ، بالقاهرة . . وآخرها ، تاريخياً ، مومياوات الفيوم من العصر الروماني فيما بعد الميلاد .

(٩) وهى الإكتشاف العبقرى الذى جسد الأفكار واستخدم الصور فى دلالات لغوية وتعبيرية ، وكانت اللغة المصرية القديمة ، بكتاباتها الثلاث ، أسبق تسجيل فى العالم القديم كله ، منذ أواخر الألف الرابعة ق. م.

٣ – البناء بالحجر (١٠) .

٤ – الإيمان بالبعث (١١) .

٥ – الحرص على الزواج المبكر والإنجاب(١٢) .

وهكذا ، نجد هنا أيضاً (ونحن أمام واحد من أشهر وأهم آثار مصر الوسطى حاليا ، وهى مقبرة بتوسيريس ، الكاهن الأكبر للإله تحوتى (إله العلم والحكمة) ، فى منطقة تونا الجبل بالمنيا) العديد من مظاهر الخلود والإصرار عليها من آخر وريث لهذه المقبرة العائلية التراثية الكبيرة ، والتى تؤرخ بأواخر القرن الرابع(١٣) .

ومن ثم ، فنحن أمام نموذج رائع للأصالة المصرية القديمة ، فى زمن الإحتلال الفارسي أو المقدونى (كما سنحدد لاحقاً) ، بالرغم من مرور آلاف السنين ، وتدهور الأحوال ، وكذلك فقدان الاستقلال .

تأريخ المقـــبرة :

إختلف علماء الآثار ، فى ذلك ، إختلافاً يسيراً ، حيث لا أثر لوجود خرطوشة ملكية ، بإسم فرعون البلاد (كما هو شائع فى مقابر الأمراء وعليه القوم فى الآثار المصرية القديمة) ، مما جعل الكثيرين يجتهدون فى تأريخ تلك المقبرة «الغنية/أو ذات البذخ الكبير» (Livish tomb) (١٤) ، كما وصفتها بأمانة المؤرخة المجتهدة ، مع علماء آخرين ، چين رولاندسون (J. Rowlandson) وقد أشار العلامة

---

(١٠) ولعل فى تكنيك تقطيع الأحجار وتسويتها ونقلها والبناء ، فى غير مواقعها الأصلية ، لهو أوضح دليل على تحدى الزمن ، وبخاصة فى بناء الأهرامات ، مثلاً ، وآثار سقارة من الدولة القديمة .

(١١) وهنا تتجلى عبقرية الكهنوت المصرى القديم ، بالاتفاق مع فراعنة البلاد ، على توظيف الدين في خدمة السياسة ، وإستغلال طيبة الفلاحين واستسلامهم التام لإرادة الخالق الأوحد ، وإنشغالهم الكامل بأعمال الأرض ، وقناعتهم اللامحدودة .

(١٢) ولنا في تعاليم الآباء لأبنائهم بضرورة الزواج ، والحرص علي الانجاب ، وحسن معاشرة الزوجة (راجع تعاليم بتاح حتب ، وآنى مثلاً) أقوى دليل على ذلك .

(١٣) جاء فى أحدث الإشارات إلى تاريخ تلك المقبرة بأنه يمكن أن ترجع إلى الفترة من آخر سنوات الحكم الفارسى لمصر وحكم بطلميوس الأول ، راجع Rowlandosn, J., Women and Society in Greek and Roman Egypt, Cambridge Univ. Press, United Kingdom 1998, p. 219.

(14) Ibid .

المصرى الكبير ، سليم حسن [١٥] (يرحمه الله) إلى ذلك الإختلاف ورجح تأريخها مع نهايات الحكم الفارسى .

ولما كان الأمر هنا يتعلق بحوالى **خمس أجيال** ، من أسرة واحدة ، توارثت إستخدام هذه المقبرة - كما يؤكد علماء المصريات من خلال النصوص المصرية القديمة المسجلة على جدرانها - فإننا بعداد السنين يجب أن نتوقع - **بالحق** - إستمرار هذا الموقف المتشدد ، أو على الأقل النشاذ حضارياً ، والخارج إدارياً عن الظروف العادية للتراث المصرى الأصيل تتويجاً وإعترافاً بديهياً من شخصية مسئولة ، فى موقع هام ، سواء إجتماعياً أو وظيفياً ، لمكانة فرعون البلاد الوطنى ، وذلك لمدة طويلة لما يقارب القرن والنصف من الزمان : ومن ثم فهذا الموقف لا يمكن تفسيره **إلا بأنه رد فعل وطنى عنيف** - وإن جاء على إستحياء داخل حدود الدار الآخرة (المقبرة) - **ضد حاكم أجنبى لمصر ، سواء كان فارسياً أو مقدونياً من بعد ذلك ، لسبب ما** ، لا يمكننا أن نعرفه باليقين التام ، حيث لم تشر النصوص من قريب أو بعيد إلى أية واقعة أو خبر فى هذا الخصوص :

فلا الأب سيشو ، المالك الأول للمقبرة ، قال شيئاً ، ولا الأخ ، أضاف خبراً جديداً على نصوص المقبرة الأساسية الداخلية ، ولا بتوسيريس ، آخر ملاك المقبرة ، حاول تفسير ذلك الموقف (الصعيدى الأصيل) ممن غضبوا **منه** أو **عليه**(؟!!!) من حكام مصر الأجانب ، ومن ثم تجاهلوا وجوده كلية ، ولم يشيروا اليه نهائياً فى مقبرتهم الفخمة ، وجاء ردهم ، **بإعتزاز قومى بمصريتهم وتراثهم ولغتهم وديانتهم ، فى أكمل صورة** :

أ - بناء معمارى تراثى أصيل - وإن جاء صغيرا فى مساحته الكلية الإجمالية .

ب - وتسجيل جدارى باللغة المصرية القديمة فى كل أرجاء المقبرة ، وعلى توابيت الدفن [١٦].

جـ - وتصوير لموضوعات مصرية خالصة ، تراثية المضمون تماماً .

---

(١٥) مصر القديمة ، الجزء ١٦ ، ص ص ٣٠٥ .

(١٦) راجع المتحف المصري بالقاهرة ، رقم للتعرف علي شكل وكتابات وحجم تابوت بتوسيريس ، وكذلك راجع / Lichtheim, M. Ancient Egyptian Literature, vol. III : The Late period, (Berkeley-Los Angelos-London), 1980.

ولهذا كله ، يسود الإنطباع بين علماء التاريخ والآثار بأن مقبرة بتوسيريس **تراثية فى مجملها** ، إلا فى بعض مواضع زخرفية ، حيث نحس بروح يونانية متواضعة التواجد ، فتقول جين رولاندسون ، مثلاً :

" ..., although Egyptian in **conception** and **style**, they exhibit **some** Greek influence, such as in the depiction of the figures, "(17)

والحق أن هذا التأثير اليونانى المتواضع ، لا يظهر إلا فى بعض الملامح لبعض الصور ، وتحديداً فى الجزء الأحدث المضاف على عمارة المقبرة الأصلية، وهو الجزء المعروف حالياً بالواجهة (Pronaos) ، المرفوع سقفه بأربعة أعمدة ، بينها ستائر (Pessoi) جدارية ، حتى مستوى نصف ارتفاع تلك الأعمدة ، وتحديداً فى شيئين إثنين :

أ - زى بعض الشخصيات ، سواء الخيتون (Chiton) الطويل ، المرفوع عند الوسط.

ب - تصوير بقرة بطريقة **«إمساك اللحظة الإنفعالية وتسجيلها تشكيلياً»** (١٨) ، فى صورة جدارية غير عادية وفريدة ، وهو ما عرف برسم «بوثوس»(١٩) (Póthos) ، كأحد أهم ملامح الفن فى العصر الهيللينستى بوجه عام(٢٠) .

ومع ذلك ، فستظل مقبرة بتوسيريس نموذجاً تراثياً جميلاً فى زمن الإحتلال البطلمى ، منذ الغزو المقدونى لمصر وحتى عام ٣٠٥ ق.م. ، أى فى الفترة من ٣٣٢ وحتى ٣٠٥ ق.م. (ولسوف نذكر تبريراتنا لهذا التحديد لاحقاً) وكذلك كأنموذج مصرى أصيل ، للوطنية العاقلة ، (ضد جبروت المحتل المقدونى) لم يتكرر تارة أخرى فى ظل الحكم البطلمى(٢١) .

---

(17) Op. Cit., P. 219 .

(١٨) وهى لحظة ميلاد صغير لها ، حيث تلتف رقبتها إلى الخلف لترى صغيرها ، وتخرج لسانها فى حركة انفعالية فطرية ، يعرفها جيداً الفلاحون ، ويتابعونها بشغف وإشفاق على هذين الكائنين ، لحظة خلق ربانى !!!

(١٩) قارن تماثيل الإسكندر مثلا ، بالمتحف اليونانى - الرومانى ، بالإسكندرية ، راجع/-Jean Yves Empereur, A Short Guide to the Graeco-Roman Museum, Alexandria, Egypt 1995, pp. 2-3.

(20) Tarn, W.W., Hellenistic Civilisation, London 1966 (edition 1978),Chapter, p.10.

(21) CF., Goudriaan, K., Ethnicity in Ptolemaic Egypt, Amsterdam 1988 .

وإذا كان هيرودوت قد كذّب القصة الفارسية حول أسباب غزو مصر على أيدى قمبيز (Cambyses) – عام ٥٢٥ ق. م. ، وأعتبرها رواية ملفقة :

(Légontes dé tauta ouk orthós Légousi).[22] ، فإن الإحتلال الفارسى قد خلّفَ وراءه ، فى مصر (عند قدوم الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م.):

(١) فساداً إدارياً تاماً .

(٢) وإهمالاً إقتصادياً شاملاً .

(٣) وإحباطاً وطنياً للمواطنين ، عقب فشل – كل الثورات المحلية ضد المحتل الفارسى وطرده ، حتى بالرغم من الإستعانة بالمساعدات العسكرية اليونانية.

ولهذا كان طبيعياً ومنطقياً أن تكون أولى أولويات الغازى الجديد ، المقدونى (الإسكندر أولاً ، ثم بطلميوس الأول من بعده) تمثلت فى تحقيق هدفين إثنين (٢٣):

الأول : الحصول على المال اللازم لإقامة مملكة جديدة .

والثانى : إحلال الهدوء والإستقرار ، اللازمين لتحقيق مزايا النظام الإقتصادى الجديد (الإحتكارى) ، ومن ثم إثراء الخزانة الملكية .

وليست محاولات كليومينيس السكندرى ، لإدارة إقتصاد مصر ، وإختيار الإسكندر لتاجر ناوكراتى (من/Naukratis)، وليس لقائد عسكرى ، إلا أول حلقة فى ذلك الإتجاه ، بلغ بها حداً من الإستغلال والإبتزاز إلى توظيف الدين والالتفاف ، بالمكر والخديعة ، بهدف تقويض مكانة الكهنة ودور الكهنوت المصرى آنذاك (٣٣٢ – ٣٢٣ ق. م.) ، كما فعل عند رفض رجال الدين فى الفيوم لدفع الضرائب للخزانة الملكية (٢٤) .

وأخيراً ، لنا فى شهادة عالمين مصريين ، رائدين فى مجال الدراسات التاريخية لمصر فى عصر البطالمة ، ما يشرح الظرف التاريخى وأحوال مصر فى أواخر العصر الفارسى وبدايات حكم الإسكندر والبطالمة لبلاد الفراعنة ، وأرض النيل ، وهما : الدكتور /محمد عواد حسين، والدكتور/إبراهيم نصحى .

---

(22) Herodotus : Book III : 2. (L. C. L., by Godley, A. D., vol. Ii., Harvard Univ. Press, 1963 .

(٢٣) محمد عواد حسين ، حركات المقاومة الوطنية فى مصر البطلمية ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٩ .

(٢٤) مصطفى العبادى ، العصر الهيللينستى (مصر) ، بيروت ١٩٨٨م، ص ص ١٩ – ٢٣.

يقول شاهدنا الأول الدكتور/عواد حسين ، رحمه الله ، فى دراسته التحليلية الدقيقة ، ما يلى :

«ولقد اتبع البطالمة – لإستغلال مرافق البلاد الإقتصادية – سبلاً تنطوى على بالغ العسف والإرهاق بالنسبة للمصريين : ففرضوا عليهم ضرائب باهظة ، وتكاليف شتى ، وسلبوهم حريتهم الإقتصادية ، وعاملوهم معاملة شعب مهزوم ، فبسطوا رقابتهم على كل شئ ، حتى باتت المعابد نفسها خاضعة لهذه الرقابة الثقيلة ، **والحق أن المصريين كانوا فريسة لعدة مظالم فاحشة :** قضى البطالمة على أستقراطيتهم ، واستولى الإغريق على موارد بلادهم بشكل لم يسبق له نظير ، بل إنهم مدوا أيديهم إلى داخل بيوتهم فشاركوهم سكناها ، إذ كان مفروضاً على الأهالى إيواء الجند فى مساكنهم ، ... الأمر الذى كان سبباً فى شكايات عديدة نسمع عنها منذ القرن الثالث قبل الميلاد (٢٥) .

أما شاهدنا الثانى الاستاذ الدكتور/إبراهيم نصحى ، متعه الله بالصحة والعافية(٢٦) ، فيقول حول الموضوع نفسه ، ما يلى :

«وليس من العسير أن نتصور بعد ذلك شقاء المصريين : لم يكونوا خاضعين لملوك غرباء فحسب ، بل كذلك لجنس غريب بأسره ، تغلغل فى جميع نواحى الحياة ، ولم تنج طبقة واحدة من طبقات المصريين من إستبداد البطالمة وإستغلال الإغريق » (٢٧) .

وإذا وضعنا فى إعتبارنا الخبر التاريخى المعروف بأن أول ثورة وطنية ، ضد المحتل المقدونى البطلمى ، لم تحدث إلا بعد مرور أكثر من مائة عام تقريباً ، وتحديداً فى عهد الملك بطلميوس الثالث (يو إرجيتيس الأول : ٢٤٦–٢٢٢ ق.م.) فإن ذلك كان يعنى شدة القبضة البطلمية على البلاد (منذ تولى بطلميوس الأول (Soter) ، عام ٣٢٣ ق.م.) حتى ذاك التاريخ ، وبعد أن فاض الكيل بالمواطنين ، ولم تنفع السياسات الحكومية فى إرضاء العامة والكهنوت ، على السواء ، بأعمال

(٢٥) المرجع السابق، ص ص ١١ – ١٢ ، وللمزيد من التفاصيل ، راجع الشهادة الموضوعية الأمنية لصاحبها آيدرس بل : Bell, I., J. E. A., VII (1922) p. 143 ff.

(٢٦) حيث ناقش أحدث الرسائل العلمية التى أشرف عليها ، للباحث/حسين يوسف ، وهى لنيل درجة Ph.D. فى موضوع «أسعار السلع لأرباب الحرف فى العصر البطلمى والرومانى» ، مساء الاثنين ٦/٣/٢٠٠٠م .

(٢٧) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، الجزء الثانى ، ص٧٦٦ ، وكذلك/عواد حسين، المرجع السابق ، ص٤ .

خيرية(٢٨) ، ومنح بعض الإعفاءات لبعض الفئات ، وزيادة بعض الهبات ، كما نص على ذلك قرار العفو الكهنوتى وتكريم الإلهين الخيرين عام ٢٣٧ ق.م.

وفى ضوء ما سبق ، وتلخيصاً للظرف التاريخى المحتمل الذى عاشه بتوسيريس ، وجعل الناس من إسمه بطلاً يتكرر ظهوره ، من بعد ذلك ، بما لا يقل عن قرن ونصف ضمن إحدى الشخصيات القيادية الثائرة ضد المحتل البطلمى ، فليس من المستبعد أن يكون هو نفسه :

أ – إما أن يكون قد قاد حركة تمرد وعصيان ضد المحتمل المقدونى ، ولم تفلح ، وكتم إحباطه داخل نفسه ، حتى ترجمه بهدوء وحكمه ، فى صورة تجاهل لملك مصر الأجنبى ، داخل مقبرته .

ب – أو أضير ، بشكل ما هو وإقليمه ، الذى يقوده ككاهن أكبر فيه ، ومن ثم أضمر العداوة مع الملك ، أو حاكم مصر – من قبل الإسكندر – كليومينيس .

جـ – أو ، ببساطة ، كنوع من العصيان السلمى (المقدور عليه) استغلالاً لغياب الحاكم الحقيقى (الإسكندر/فى بابل) وعدم الإقتناع بالتاجر ، كليومينيس الذى لم يهتم وتعالى على إقليمه مصر الوسطى (!!!) ، وذلك لفقره (!!!) .

وإذا نظرنا إلى بقية خصوصيات هذه المقبرة الثرية ، – بعد ما عرفنا قيمتها التاريخية الكبيرة ، فى مشوار النضال الوطنى ضد المحتل البطلمى ، لعرفنا أننا **أمام سجل مفتوح حى وخالد للحياة المصرية القديمة** ، بكل تفاصيلها ، والتى تتمحور كل نشاطاتها حول ضفتى النهر الخالد :

أ – زراعة الأرض .

ب – جنى المحصول .

جـ – صيد الطيور بين نباتات النهر .

د – صناعة السلال .

---

(٢٨) ومنها كذلك عملية إنشاء معبد لحورس (هربوكراتيس) ، كما تشهد بذلك شريحة ذهبية مزدوجة اللغة (يونانى + هيروغليفى) ، تقول ما ترجمته (ترجمة حرفية) : «الملك بطلميوس ، ابن الملك بطلميوس ، والملكة بيرينيكى ، الإلهين الخيرين (Theon Euergeton) ، إلي هربوكراتيس، بناءً علي قرار ملكي لصالح (الإله) سارابيس وايزيس» (Próstagma) ، راجع/CF. Empereur, J., op. cit., fig. 6, p.7 ومتحف الإسكندرية (اليونانى – الرومانى) ، صالة/٢ .

هـ - ذبح القرابين .

و - صناعة الطوب وحرقه فى القمائن .

ز - صناعة الأدوات الزراعية : المحراث والفؤوس .

ولكن من بين تلك اللوحات التصويرية التى - خلدت عدسة فنانيها وفرشاتهم وأقلامهم لحظات إنسانية عابرة فى حياتهم ، منظران :

(١) سيدة تعمل فى الحقل - وسط زراعة القمح - خلف زوجها ، وبينهما طفل صغير ، وهو موضوع يؤكد مشاركة المرأة المصرية القديمة لزوجها ، فى عمل الحقل ، ولهو طفلهما بينهما وتوجهه لأمه بالحديث(٢٩) .

(٢) نصوص مصرية تسجل حواراً لمجموعة من العمال ، فى الحقل ، وبين الخولى (مسئول العمل) ، وتبين تباين نوعيات البشر من الفلاحين : فمنهم المجتهد والمطيع ، ومنهم الماكر ، غير الجاد ، ومنهم المتطفل (الحشرى) . ثم تأتى قمة الدراما الإنسانية لعمل المرأة مع الرجال ، وهو إقامة علاقة عاطفية نقية (ولكنها تأخذ مدخلاً عملياً للتعبير عن المشاعر الصادقة)(٣٠).

هذه هى آثار مصر الخالدة ، خلود الإنسان ، وعبر كل القرون والأزمان ، بفضل خلود نيلها الفياض ، وصبر أبنائها وجلدهم ، وإيمانهم بربهم الواحد الديان . وهكذا ، استطاع بتوسيريس من خلالها أن يعلن عن موقفه الوطنى الأصيل ، بالإصرار على التعبير عن غضبه وحنقه المكبوت ، تجاه حاكم البلاد المقدونى ، وبقراره - الذى لا يملكه إلا هو نفسه وحده - بأن يشطب ، وإلى الأبد ، اسم هذا الحاكم ، ومن ثم يحكم عليه بالفناء التام ، فى الدنيا وفى الآخرة ، كأقصى عقوبة عند العجز والسفور والمواجهة المباشرة ، يمكن أن يأتيها كاهن ضد أعدائه والمتآمرين على بلاده ، وكأنه يريد أن يردد الناس أجمعين : **«الخلود لنا وحدنا ، والفناء لغيرنا» وهكذا ، أيضاً ، تم توظيف التراث المصرى الأصيل ، على يد كبير الكهنة ، لتحقيق غاية وطنية ، وأمنية بعيدة المنال ، وهو التخلص من المحتل الأجنبى .**

---

(29) Rowlandson, J., op. cit., pp. 218 - 221 .

(٣٠) راجع كتابنا الدليل الأثرى (لموضوعات مختارة) : مدخل لآثار مصر فى العصرين البطلمى والرومانى (PAR-TO) ، القاهرة ٢٠٠٠م .

ثانياً : دور جموع الشعب المصرى فى التذمر والثورة :

إنه إذا كان الإسكندر (**بذكائه الشديد ، وفلسفته الواقعية ووضوح هدفه من حملته على الشرق القديم**) قد استطاع إرضاء جموع الشعب المصرى ، فاحترم خصوصيته فى ديانته ، وقدم لآلهته القرابين ، فى منف ، ومن ثم كسب الجولة الأولى من المواجهة ، سلماً ، بل وحباً وتقديراً وتعاطفاً ، من جانب رعايا بلد النيل، آملين فى الخلاص النهائى من الاحتلال الفارسى البغيض ، فإن الخلفاء ، وعلى رأسهم بطلميوس الأول فى مصر ، لم ينجحوا فى سياستهم الداخلية داخل ممالكهم التى أقاموها فى الشرق القديم ، وذلك لأنهم حرصوا – دائماً وابداً – على أن تظل تلك الممالك :

أ – ممالك أجنبية .

ب – وبأيد أجنبية .

جـ – على أرض أجنبية .

مما جعلها ، ومنذ البداية ، قد حملت فى جوانبها عوامل هدمها وتدميرها ، بسبب اعتمادها فى كل مكوناتها الأساسية ، لإنشاء مملكة ، على عناصر أجنبية تماماً على سادتها وأصحاب فكرتها ومنفذيها : فكانوا هم **مقدونيون** بينما :

أ – الأرض ، مصرية ، برعايا وكثافة سكانية عالية .

ب – والموظفون ، يونان (فى الغالب) .

جـ – واللغة الرسمية ، يونانية (الكوينى (٣١) : Koine) .

د – حتى الجيش (٣٢) ، أصبحت غالبيته من المرتزقة اليونان ، بعد مرور أقل من قرن من الزمان !!!

ولقد كانت مصر لاتزال غنية وتملك العديد من مظاهر الثراء وإغراء الطامعين فيها ، حتى بعد مرور تسع سنوات كاملة من استنزاف ثرائها ، على

(٣١) وفى هذه التسمية "بالكوينى" ، التى تعنى " اللغة المشتركة" ، دليل واضح على هدف الإسكندر الأكبر لتكوين إمبراطورية تدين له بالولاء ، وتتكلم جميعها لغة مشتركة فيما بينها ، حتى يسهل التعارف ويتم التفاهم بيسر بين كل الرعايا الأجانب ، ولكن تحت سيادة اللغة اليونانية والتراث اليونانى ، مما يعنى التوظيف السياسى التام لكل عناصر الحضارة المعاصرة آنذاك .

(32) Polybius, V, 65 : 9; 79 : 2 , 82 : 6 & p. p. etrie, II : 31 a ; III : 53 .

وكذلك راجع/إبراهيم نصحى، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، الجزء الأول ، ص ص ٣٣٤ – ٣٥٩ .

أيدى كليومينيس (Kleoménes) ، لحساب الإسكندر الأكبر (فى بابل) ، وذلك حينما دخلها بطلميوس الأول ، غداة وفاة الاسكندر عام ٣٢٣ ق. م. ، وهذا ما يؤكده ديودوروس الصقلى(٣٣) ، إذ أن بطلميوس هذا قد تمكن من أن ينفق حوالى ٨٠٠٠ (ثمانية آلاف) تالنت فى شراء خدمات جنود مرتزقة من العناصر اليونانية. وهذا الخبر ، إن صدق ، يعنى الشئ الكثير ، لملك أجنبى إستأثر ببلد أجنبى آخر (ضمن الاتفاق الودى بين خلفاء الإسكندر ، فى بابل ، فى العام نفسه ، أى ٣٢٣ ق. م.) **فوجد خزانة ملكية مليئة جداً ، بمجرد وصوله إلى عرش البلاد !!**

ولعل ما سجله أدباء الإسكندرية عن ثراء مصر ، وتنوع مظاهر هذا الثراء ، لهو خير دليل على ذلك ، حينما قال أحدهم : (٣٤)

«فى مصر ، يوجد كل شئ ، ذلك الذى يتواجد فى أى بقعة من العالم :

الثروة ، والجمناسيا ، والسلطة ، والسلام ، والشهرة ، والمناظر ، والفلاسفة ، والذهب ، والشباب ، ومزار آلهة النبوءة ، وملك طيب ، والموسيون ، وكذلك النبيذ ، وكل الأشياء الطيبة (الخيرات) التى قد يتمناها المرء . أما النساء ، فإن معظمهن ، وأقسم ببنات هاديس(٣٥) ، وكما تفاخر السماء بنجومها ، فإن جمالهن ، مثل جمال الإلهات ، اللاتى أغرين باريس(٣٦) ، بأن يقرر أيهن الأجمل» .

ويلفت نظر الدارس لأدب شعراء الاسكندرية ، منذ مطلع القرن الثالث ق. م. ، وهيروداس (أو/هيروندداس) هو أحد أشهر هؤلاء ، أن مارصده من مظاهر القوة والثراء فى مصر (Aigyptos) – ولم يقل الاسكندرية كما هو شائع فى تعظيم مكانة عاصمتهم آنذاك(٣٧) – أنه يعكس وجهة النظر اليونانية (سياسياً وإجتماعياً

(33) Diodorus Siculus, XVIII : 14.1

(34) Herodas, Mimes, I : 26-35 & cf. Theokritos, Idyll, 17. The Oxford Classical Dictionary op. cit., p. 507 .

(٣٥) بنات الإله هاديس (Hades) ، إله العالم السفلى ، هن – فى الأساطير اليونانية القديمة "Erinyes" ، أرواح العقاب وبخاصة للقتلة . راجع / The Oxford Classical Dictionary, 2nd edition Oxford (at the Clarendon Press), 1972, pp. 406-407.

(٣٦) راجع تفاصيل تلك المباراة الأسطورية الشيقة ومغزاها الجميل ، عند أحدث كتاب بالعربية ، في هذا الموضوع لصاحبه الأستاذ الدكتور / عبدالمعطي شعراوى : أساطير إغريقية (أساطير الآلهة الصغرى) ، الجزء الثانى (ط ١) الأنجلو المصرية ، ص ص ٢٤٩ – ٢٥٨ .

(٣٧) قارن ما قاله أحد مواطني الاسكندرية عن مكانة مدينته ، بين مدن العالم ، بلغة كلها عشق وتعظيم لها إلي درجة الهيام ، وإنكار قيمة ومكانة المدن العالمية الأخرى ، وذلك بفضل ما كان للإسكندرية ، في ذاك الوقت ، كأجمل ، وأعظم ، وأغني مدينة في العالم الهيللينستي ، راجع/ Tarn, W. - Griffith, Hellenistic Civilisation, Univ. paper back 1966 (Rep. 1978), Great Britain, London, p. 185.

وإقتصاديا) فى حيثيات الواقع المصرى وخصوصياته فى تلك المرحلة المبكرة من قيام وتكوين مملكة البطالمة على أرض مصر :

فقد أسعد اليونانيين جميعاً (دون استثناء تقريباً ، تلك المظاهر الهامة الإيجابية لكيان المملكة الناهضة (**المقدونية** القيادة ، **واليونانية** الإدارة ، **والمصرية** التنفيذ) ما يلى :

أولاً : سياسياً : حيث الملك الطيب ، والسلطة القوية .

وثانياً : اقتصادياً : حيث يوجد فيها كل الخيرات ، والذهب على رأسها .

وثالثاً : إجتماعياً : حيث نجد مشاهير الفلاسفة ، وعلماء الموسيون (دار ربات الفنون) ومزارات الآلهة والمعابد ، ويمتلئ المجتمع بالشباب والنساء الجميلات !!! والجميع يعمل فى سلام (en eiréné) ، كما وصفهم بذلك سترابون من بعد ذلك ، بما لا يقل عن ٢٥٠ عاماً .

إذن ، صورة المجتمع المصرى ، آنذاك ، متداخلة تماماً مع مجتمع مدينة الإسكندرية ، ذى الأغلبية اليونانية والمزاج اليونانى فى أولوياته (الذهب[٣٨] ، والشهرة[٣٩] ، والشباب[٤٠]، والنساء [٤١] !!!) .

---

(٣٨) كان الذهب ، في نظر اليونانيين القدماء (ولا يزال حتي يومنا هذا) هو أغلي مقتنيات الدنيا لبني الإنسان ، وقد أقسم هيرودوت (يوما وكأنه يتحدث بلسان حال كل اليونانيين ، وتحديدا بأسم الأثينيين ، إزاء موقفهم من العرض الفارسي عام ٤٧٥ ق. م. ، بالتحالف معهم) بأنهم "لو عرض علينا كل ذهب العالم أو حتي أجمل وأخصب أرض ، يمكن تخيلها ، ماكنا رغبنا أبداً في عقد حلف مع عدونا المشترك ، وأن نكون ، قوة لاستعباد اليونان Herodotus, Histories, 8 : " ... 144 : راجع كتابنا/تاريخ وحضارة اليونان والرومان (موضوعات مختارة)، القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ص ٦٢ - ٦٤ .

(٣٩) حيث قال هيسيود ، يوما (في القرن ٧ ق. م.) : "المجد والشرف يسيران خلف الثراء Plouto d' arete kai kydos opedei راجع/محمود السعدني (تاريخ وحضارة اليونان،القاهرة ١٩٩٩م ، ص ١٧٠) .

(٤٠) لاأقل من أن تتذكر اليونان ، في عصرها الكلاسيكي ، حيث اهتمت أثينا بشبابها (Epheboi) ، وجعلت لهم مجلساً ، يختص بأمورهم من ثلاثين عضوا فوق سن الأربعين . راجع, The Athenian Citizen (7 th print), A.S.C, Athens Picture Book, No 4, p. 4.

(٤١) ليس أكثر من أن يتخذ اليونان للجمال إلهة ، وهي أفروديتي Aphrodité ويتم تصويرها ، في النحت ، كمثال لكمال الجسد الأنثوي وجمال النسب الآدمية ، ثم يقرر هوميروس (في الالياذة) ، أن يعطي باريس (Paris) التفاحة الذهبية لها ، إقرارا بجمالها وتأثيرها علي مقدرات الرجال . ثم يأتى هيسيود ، من بعده ، ليقرر أنه «ليس أفضل للرجل من زوجة صالحة ، وليس أسوأ له من زوجة طالحة » ، راجع كتابنا : تاريخ وحضارة اليونان (دراسة تاريخية - أثرية) ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص ١٧١ .

ويؤكد تارن (W. Tarn) بأن المجتمع المصرى ، فى القرن الثالث ق.م. ، كان يتكون من طبقتين متمايزتين جداً ، وبينهما فوارق عنيفة :

(١) **الطبقة العليا** : وتمثلها فئة الموظفين الإداريين العليا ، والتى تتكون من الكهنوت المصرى ، وفئة الارستقراطية العسكرية من الضباط والجنود المقدونيين واليونان الحاصلين على أراضى من الهبات الملكية (doreai) فى إقطاعيات كبيرة ، أى كانوا كليروخى : Klerouchoi، . هذا فضلاً عن أصحاب الملكيات الخاصة التى ورثوها ، أباً عن جد ، ، وكذلك جموع اليونانيين المقيمين فى المدن اليونانية الثلاث (نوكراتيس ، والاسكندرية ، وبطلمية) .

(٢) **الطبقة الدنيا** : وتتكون من جموع الفلاحين المصريين ، كأغلبية كاسحة ، غير متعلمة ، وكانت الأوامر الصادرة إليهم ، فيما يخص الضرائب على وجه الخصوص ، تصدر باللغة الديموطيقية .

ويقرر تارن ، تبعاً لذلك ، أن الأداة الحكومية كانت ذات قبضة حديدية ، على رقاب الجميع ، ولم تعد هناك أية فرصة للمراوغة أو الإفلات ، ويصف أولئك الفلاحين بالآتى :

" Poor as their life was , they knew nothing better, but it is obvious, from the numerous rising from 216 onwards, that there was much discontent. (42)".

وهكذا تأكد لنا أن بداية التذمر الشعبى المصرى جاء ، بعد عام ٢١٦ ق.م.، على أيدى الفلاحين ، أى فى عهد بطلميوس الرابع (فيلوباتور Philopator) ، وإن كانت ثورة المصريين الأولى ، ضد المحتل البطلمى ، قد بدأت منذ عهد بطلميوس الثالث إيورجيتيس الأول : (Euergetes I)، وإن إختلفت المصادر القديمة (٤٣) فى تقييمها لهذه الثورة أو زمانها وأسبابها ، هذا وإن كنا نميل إلى تجاهل بوليبيوس (٤٤)، المؤرخ المدقق الموضوعى (٤٥) ، لهذه الثورة الأولى ، ضد

(42) Tarn, W., op. cit., pp. 197 - 198 .

(٤٣) محمد عواد حسين ، المرجع السابق ، ص ص ١٦ – ١٧ .

(44) Polybius, V : 107 .

(٤٥) حول مكانة هذا المؤرخ وإهتماماته وفلسفته فى الكتابة التاريخية ، راجع كتابنا/حضارة الرومان ، القاهرة (دار عين) ١٩٩٨م ، ص ص ٣٢ – ٣٤ .

بطلميوس الثالث ، هذا بالرغم من أننا نجهل الأسباب الحقيقية وراء هذا التجاهل ، وبخاصة أننا عرفنا من وثيقة كانوب (قرار الكهنوت المصرى [٤٦] عام ٢٣٧ ق.م.) وفى ضوء ملابسات قيام الحرب السورية الثالثة ، ضد الجيران السيليوكيين ، بأنه قد صاحبها [٤٧] :

أ - إكراه للمصريين على الخدمة البحرية .

ب - إزدياد مظاهر القسوة الحكومية البطلمية ضد العناصر الوطنية فى جميع الأحوال .

جـ - زيادة إيجارات الأراضى الملكية لمستأجريها ، وهروب الفلاحين من قراهم (أناخوريسيس : Anachorisis) .

ويبدو أن الثورة والثوار كانوا قد استغلوا غياب القوات البطلمية فى سوريا ، وعلى رأسها الملك بطلميوس الثالث نفسه ، مما أجبر إيورجيتيس الأول على العودة إلى الاسكندرية ، وإخماد التمرد وإرضاء الأهالى والعفو الملكى عن الضرائب ، وتوزيع القمح مجاناً ، وإعادة التماثيل إلى المعابد. وربما كان تجاهل بوليبيوس مرجعه إلى عدم امتداد الثورة وإتمام الترضية والمصالحة مع الكهنوت المصرى والشعب ، وذلك بإعتراف نص القرار الكهنوتى السابق الذكر ، فى إحدى عباراته : «وهكذا انقذا أهل مصر [٤٨]» ، ومن ثم يمكننا أن نستنتج بعض أحداث تلك الثورة ، أو على الأصح ، التذمر الشعبى ، أو الغليان التلقائى للشارع المصرى ، بسبب الضائقة الإقتصادية الخانقة ، التى جاء ذكرها ، بيقين تام ، فى قرار كانوب ، والتى تمثلت فى سوء أحوال البلاد والعباد ، وغياب الملك خارج الحدود ، بسبب عجز الفيضان ، وبالتالى قلة عائد المحاصيل والمزروعات ، ومن بين هذه التوقعات ما يلى :

(١) لم يكن التذمر الشعبى شاملاً لكل أنحاء مصر ، بل ربما كان قاصراً على الدلتا وحدها ، أو على المدن اليونانية فقط .

---

(46) O.G.I.S., 56.1 : 14 .

وهناك ترجمة عربية لهذا القرار عند أستاذنا الكبير الدكتور/مصطفى العبادى ، *العصر الهيللينستى (مصر)* ، بيروت ١٩٨٨، ص ٦٩ .

(٤٧) محمد عواد حسين ، *المرجع السابق* ، ص ١٧ .

(٤٨) مصطفى العبادى ، *المرجع السابق* ، ص ٦٩ .

(٢) الشكر والعرفان للملكين الخيرين الإلهين (theoi Euergetai) جاء بإسم كهنة كانوب ، أى الإسكندرية ، وباللغة اليونانية فى المقام الأول ، وتم الكشف عن النسخة الوحيدة لهذا القرار الكهنوتى فى منطقة كانوب ، حيث سيادة العنصر اليونانى وهيمنة التراث اليونانى .

(٣) تبرز أهمية عودة تماثيل الآلهة المقدسة التى كان قد أخذها الفرس معهم(؟!!!) إلى معابدها (بفضل جهود بطلميوس الثالث فى حربه السورية الثالثة) من سياق أخبار القرار الكهنوتى ، ووجودها على رأس الأولويات والاهتمامات للتسجيل والتخليد كأولى حسنات وأفضال الملك البطلمى ، مما يجعلنا نتوقع :

أ – أن هذه التماثيل كانت يونانية ، لآلهة يونانية ، كان الفرس قد أخذوها منذ زمن بعيد [٤٩] (؟!!!) نكايةً فى العنصر اليونانى لأسباب ما ، ربما تعود إلى سابق عداواتهم الأولى منذ مطلع القرن الخامس ق.م. (!!!).

ب – النفاق الزائد [٥٠] فى حديث رجال الدين (اليونان) حيث أبرزوا – قبل الإشارة إلى المناسبة الرئيسية والمأزق الاقتصادى – سلامة الأوضاع السياسية فى المملكة الناهضة :

– حكومة صالحة وقوية لحماية الجميع فى الداخل والخارج .

– انتشار السلام فى كل أنحاء البلاد .

---

(٤٩) وجاء رد الفعل البطلمى – لصالح اليونانيين : عندما اتخذوا إجراءا قانونيا غريباً ، بضرورة النص والإشارة ، عند الإستدانة ، عما إذا كان المدين من أصل فارسى "Perses tes Epigones" أم لا ، كما حرموا أولئك من حق اللجوء للمعابد ، راجع/ Tarn, op. cit., p. 199. & Bell, J. E. A., XI, p. 98

(٥٠) إذ تعتبر المبالغة والتهويل والتعميم من أبرز ملامح الشخصية اليونانية ، منذ تاريخهم الطويل ، وتأتي روايات هيرودوت وشطحات قصصه ، في بعض تفاصيلها ، كأوضح دليل علي ذلك . وليست هذه الصورة الدرامية السيئة لأحوال البلاد ، قبل بطلميوس الثالث ، والتأكيد فى الأول والأخر من سطور النقش ، على خيرية الملك سوي جزء من ذكاء التناول والعرض لعمل نصب تذكارى (Stela) لتخليد أعمال الملك وتبرير تسميته "بالخير" من قبل الكهنوت اليونانى ، والذي لا يزال أحفاده ، حتي اليوم يقولون ، مثلاً : (كما يقول بعض فئات شعبنا الطيب) ، "علشان الورد ينسقى العليق -Yia te charc tou Basilikou potize tai e glastra" ، مما يؤكد على أحد ملامح تلك الشخصية وهى الميل إلي النفاق عند الضرورة لتحقيق المصالح الذاتية .

جـ - التركيز على خيرية الملك والملكة وعطفهما الزائد على الجميع ، فى أول النقش وآخره ، كهدف أساسى لكتابة النقش .

ولكن الثورة الشعبية الحقيقية الشاملة ، الأولى بحق ، يمكن أن يؤرخ لها بعامى ٢٠٧/٢٠٦ ق. م. ، وقد وصل تأثيرها إلى مناطق نائية فى صعيد مصر (Ano Aigyptos)، حيث توقفت أعمال البناء فى معبد أدفو ، بسبب احتماء الثوار داخله ، إعمالاً لحق اللجوء (Asylum) (٥١) . وبغض النظر ، مؤقتاً ، عن أسباب وملابسات ونتائج تلك الثورة المؤكدة لشعب مصر ، فإننا هنا يمكن أن نتوقف قليلاً لنرى مسيرة الشعور الوطنى المصرى وتعاظم رد فعله فى مواجهة المحتل الأجنبى لبلاده ، ولقياس درجة حرارة الحماس القومى إزاء عنصرية السيادة الأجنبية واستغلالها لثروات مصر ، وإهدارها لكرامة المواطنين ، وسوء الظن فى دوام سماحتهم وقناعتهم ومسالمتهم ، والتمادى فى إذلال أهاليهم وإبتزاز أموالهم وخيراتهم .

لقد كانت البداية متواضعة ، فى صورة مبادرة فردية ، عند بتوسيريس مثلاً - كما شرحنا من قبل - ولأسباب لا نعرفها يقيناً ، وجاءت على استحياء ، كرد فعل عنيف (من وجهة النظر الإيمانية المصرية القديمة) ، ولكنه ظل محدوداً دونما أدنى تأثير دنيوى على الحاكم الفعلى الأجنبى (المقدونى) ، فى الإسكندرية . وهكذا كانت أداة المصرى القديم ، فى مواجهة المحتل الأجنبى ، عبارة عن :

أ - مواجهة غير مباشرة ، بسلاح الدين والموروث الإيمانى الأصيل ، وهى أقرب إلى العمل بالحديث الشريف «. . . وإن لم تستطع ، فبقلبك، وهذا هو أضعف الإيمان ».

ب - بإسم الكهنوت المصرى ، لأنه هو الأكثر علماً وفهماً ، وتأثيراً على جموع الشعب الغفيرة الطيبة ، والأكثر تأثراً ، سلباً أو إيجاباً ، بقرارات الحاكم .

وهذا فى رأينا ، كان يمثل المرحلة الأولى من رد الفعل المصرى فى مواجهة جبروت السلطة الأجنبية الحاكمة ، وقبضتها الحديدية على كل مصادر الثروة والقوة فى مصر القديمة ، منذ عام ٣٢٣ ق.م. ، وحتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، أى لمدة قرن كامل تقريباً ، أو

(٥١) محمد عاد حسين ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

يزيد قليلاً ، حوالى عام ٢٠٧/٢٠٦ ق.م. ، حينما استقلت مدينة طيبة وحكمها ملكان مصريان لمدة ربع قرن من الزمان تقريباً ، كما سنعرف تفصيلياً فيما بعد .

جـ - وقد سار ، فى خط متوازى تماماً ، أسلوب آخر للدفاع عن النفس ، وللتعبير عن الذات المصرية المقهورة ، العاجزة ، آنذاك وهو تسريب الإشاعات والنبوءات أو ، بالتحديد ، ما جاءنا فى «برديات ديموطيقية» ، وثائق مجهولة المصدر ، تؤرخ بالقرن الثالث ق.م. ، وهى تمثل - فى نظرنا - الحلم المصرى المكبوت داخل النفوس الخائفة المذعورة ، حيث تتحدث جميعها حول بطل مصرى قومى (سواء جاء من إهناسى(٥٢) أو من هيراكليوبوليس(٥٣)) يحرر البلاد من هيمنة الأجانب ، والأيونيين (Iones) ، أى اليونان .

إذن ، وإجمالاً ، جاء رد الفعل المصرى الوطنى فى مواجهة السيادة الأجنبية من خلال توظيف الديانة المصرية القديمة ومظاهرها الإيمانية القوية ، تعبيراً عن رسوخها فى القلوب ، وعمرانها للنفوس . ومن ثم ، كان الدين والإيمان المصرى القديم هو سلاح الوطنيين الأول للدفاع عن أنفسهم ، وذواتهم المهزومة ، وغير القادرة على الفعل الحقيقى المباشرة ، للتعبير عن نفوسهم الأبية المكسورة الجناح (III) .

أما المرحلة الثانية ، لرد فعل المصرى القديم فى مواجهة الإحتلال البطلمى فجاءت فاعلة بحق ، وترجمت حجم المعاناة ، من ناحية ، وتعاظم حجم الأمل فى التحرر والاستقلال من السيادة الأجنبية ، من ناحية أخرى ، استغلالاً للظرف السياسى/العسكرى ، بعد معركة رفح ٢١٧ ق.م. ، ضد الطمع والطموح السيليوكى فى مصر البطلمية . وهى فى رأينا ، التعبير الحقيقى عن أصالة الشعب المصرى القديم واعتزازه بكرامته : والتأكيد على أن لسماحته وصبره حدود ، لا

---

(٥٢) مصطفي العبادي ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٥٣) إبراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، الجزء الثانى ، ص ٧٦٩ . وهذه المدينة تضعها الخرائط الحديثة للكتب المتخصصة في تاريخ مصر اليونانية الرومانية ، في جنوب شرق إقليم الفيوم (ارسينويتيس : Arsinoïtis ، إلي الشرق من بحر يوسف ، فرع النيل الذي يروي منطقة الفيوم إلي يومنا هذا ، راجع/ Rowlandson, J., Women and Society in Greek and Roman Egypt, Cambridge Univ. Press, 1998, map. 2.

يجب تجاوزها مهما كانت الأسباب والعلل والتبريرات لدى حكامه - حتى ولو كانوا وطنيين(٥٤) !!!

المرحلة الثانية : مرحلة الفعل المحدود (الثورة الإقليمية) :

إنه إذا جاز لنا أن نسمى المرحلة الأولى السابقة مرحلة «الصمت والترقب والحذر» ، فإننا فى الإمكان أن نطلق على هذه المرحلة الثانية (والتى جاءت نذرها ووقعت أحداثها بعد مرور قرن من الزمان تقريباً) ، مرحلة الفعل الحقيقى فى إتجاه حركة استقلالية من أجل تحرير البلاد من الغاصب المحتل .

ويبدو أن هذه الثورة الحقيقية ، التى قادها زعيمان أحدهما يسمى أرماخيس والآخر يدعى أنخماخيس(٥٥) ، كانت قد نجحت فى الاستقلال بإقليم طيبة (Thebais) ، عن بقية أنحاء البلاد المصرية الواقعة تحت الإحتلال البطلمى ، وتحديداً فى زمن بطلميوس الرابع ، فيلوباتور، منذ العام السادس من حكمه ، أى منذ عام ٢٠٧/٢٠٦ وحتى عام ١٨٦ ق. م. ، بما يقارب ربع القرن من الزمان . وهذه مدة غير يسيرة فى عمر عصيان أو تمرد ، مما يؤكد أن هذه الحركة كانت منظمة جداً ، وخلفها يوجد تأييد شعبى كبير من أهالى الإقليم .

وفى دراسة موجزة لهذه الثورة ، وغيرها ، أكد عالمنا المرحوم الدكتور/ محمد عواد حسين ، على أسباب تلك الثورة ، وتمحيص وشرح بعض وجهات النظر لعلماء أجانب فى هذا الخصوص . ويمكننا أن نحصى عدداً من الملامح التى لازمت هذه الثورة القوية الروح فيما يلى :

---

(٥٤) إذ لا يمكن أن ننسى ثورة الجياع والفقراء ، فى أواخر الدولة القديمة ، ضد كل رموز السلطة والدواوين الحكومية ، بعد انتشار الفساد وهيمنة الأجنبى ومساواته بابن البلد ، وتمتعه بخيرات مصر ، قبل الأهالي .. كما قال إيبوور الحكيم الحزين علي مصير العباد ، وما آل إليه حال البلاد ، وضرورة عدالة الحاكم والحكومة . راجع/عبد العزيز صالح ، تاريخ الشرق الأدني القديم (مصر) ، القاهرة (مطبعة الأنجلو المصرية) طبعات عديدة : "...... وانقلبت العاصمة فى ساعة .. وانكشفت الأسرار الملكية .. وقال الناس : دعونا نقصى العتاه من بيننا ... "

(٥٥) ويبدو من نهاية ألفاظها(es ....) بأنها من جذور يونانية ، من أولئك المصريين ، ذوى الأصول الأرستقراطية ، التي كانت قد أخذت بقسط من التربية والتعليم اليونانى ، وحتى الأسماء ، وليس بمستبعد أن تكون لهما علاقة قوية بالكهنوت في صعيد مصر ، في طيبة نفسها ، كأن يكونا أبناء كبار رجالات ذاك الكهنوت الأصيل الوطنى الخالص ، وربما كانا من جذور نوبية . راجع/ Jouguet, p. "Le Roi Nubien Hurgonaphor et les revolts de la Thebaïde ", Melanges Navarre, 1935, pp. 265-73.

أ – هناك وثائق تاريخية ، أثرية الطابع ، تؤرِّخ بسنوات حكم الزعيمين المصريين .

ب – ليست هناك وثائق تشير إلى سلطة الحكومة البطلمية على إقليم طيبة ، فى الفترة ذاتها ، وجبايتها لضرائب منه .

جـ – الرواية التاريخية ، عند بوليبيوس(٥٦) ، تؤكد إنبعاث الروح القومية المصرية عقب إنتصارهم فى معركة رفح ، عام ٢١٧ ق. م.

ونحن نرى الرأى نفسه ، الذى يراه عالمنا المرحوم الدكتور/ عواد حسين. حيث لا يمكن الفصل بين البواعث القومية ، داخل النفوس ، والعوامل الإقتصادية المادية وأحاسيس إذلال الكبرياء الوطنى ، وبخاصة لأهل الجنوب (معقل التراث الممتد الخالص ، وحماة الجذور والأصول لتاريخ فراعنة النيل) حيث تتداخل كل هذه جميعاً وتعتمل كالمرْجل الضخم ، وتحرك الأعضاء بالفعل القوى ، الذى قد يصل إلى حد العنف . وها هو أستاذنا يقول بصراحة :

«أما نحن فنرى أن كلا الرأيين يجنح عن الصواب ، وأن دوافع الثورة كانت قومية اقتصادية اجتماعية فى آن واحد : أحس المصريون بقوميتهم ، وبعث النصر فى قلوبهم موات الأمل ، وضاقوا فى نفس الوقت بما كانوا يزرحون تحته من أعباء اقتصادية فادحة ، وبرموا بسيادة الإغريق والمقدونيين عليهم ، فثاروا فى وجه غاصبيهم . وليس فى عدم إشتراك بعض المصريين فى الثورة ، واعتداء الثوار على بنى وطنهم ، وعلى المعابد الوطنية ، ما يبرر وجهة نظر بريو» ، فلعل هؤلاء الذين تخلفوا عن الثورة فاعتدى عليهم الثوار ، كانوا ممن تنكبوا طريق الوطنية الحقة ، وآثروا السلامة والخنوع ، فلاقوا جزاءهم الحق على أيدى المتحمسين من أبناء وطنهم» (٥٧) .

ولعلنا إذا رجعنا إلى بعض المصادر والمراجع الأخرى لتلك الفترة لأدركنا مدى الفهم العميق ، والصحيح ، لذلك السيناريو الممكن للأحداث ، فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ مصرنا العزيزة .

---

(56) Polybius, V : 107, 1.

(٥٧) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

فهاهى ، مثلاً ، وثيقة بردية(٥٨) ، من منطقة بيلوزيون(Pelousion) ، من إقليم الفيوم ، وتؤرخ بـ (٢٨) يناير عام ٢٢٢ ق.م. ، أواخر عهد بطلميوس الثالث، تتحدث عن شكوى سيدة تسمى آسيا (Asia) ، زوجة لجندى يونانى (أو/مقدونى) ، يدعى/ماخاتاس(Machatas) ، كان تم إسكانه ، جبرياً (بناء على تعليمات وأوامر الملك البطلمى السائدة منذ عهد بطلميوس الأول) وتوطينه وإيواءه فى منزل أحد الفلاحين المصريين ، الذى يدعى /بوأوريس ، الذى رفض ولم يسمح لتلك السيدة ببناء سور وإستكماله ، «واحتقرها مستغلاً وفاة زوجها(؟!!!)» .

وقد حددت هذه السيدة مطلبها من الملك بإجبار بوأوريس على الإنصياع لرغبتها فى اقتسام المنزل وإقامة الحائط العازل بينهما ، موضحة خط سير الاجراءات عبر القنوات الشرعية القانونية المعمول بها آنذاك، فى خطوتين اثنتين ، حيث سيأمر الملك :

أ - الاستراتيجوس (Strategos) ، المدعو ، هنا فى البردية ، ديوفانيس (Diophanes) .

ب - ومنه إلى الإبيستاتيس (Epistates) ، الذى ورد اسمه هنا ميناندروس (Menandros) .

وهكذا ندرك حجم المضايقات ، من الأجانب ، فى الريف المصرى ، حتى داخل منازل الأهالى ، ويساندهم القانون ، أولاً ، وتقويهم السلطة والجبروت للحاكم الأجنبى ، أيضاً . والحق كما يقول تارن ، أن اليونان جاءوا إلى مصر ، خلف سادتهم المقدونيين اصحاب الفتح ، «ليصبحوا أغنياء» ، وكذلك ، فإنهم بينما اهتموا بالأرض ، فإنهم لم يهتموا بتحسين أحوال المواطنين المصريين :

"They did not improve the condition of the people . There was no desire to oppress The Egyptians ; but there was no desire to help them , beyond keeping them fit to work, a thing done by every business - like slave - owner. (59)"

---

(58) P. Enteux. 13 .

وراجع الترجمة الانجليزية الحديثة ، وبعض التعليق الموجز ، عند Rowlandson, J., op.cit. 28-30

(59) Tarn, op. cit., pp. 208 - 209 .

ويعترف العلامة تارن ، كذلك ، بأنه بينما لم تكن لدى اليونان النية فى قهر المصريين ، فإنهم لم تكن لديهم الرغبة ، أيضاً ، فى مساعدتهم ، بل عاملوهم «معاملة السيد (رجل الأعمال) لعبيده» ، وأن الغالبية العظمى من المصريين بالرغم من استمرار وجود الثروة ومظاهر الثراء الكبير عند القمة (٦٠) ، فى مصر إبان مطلع القرن الأول ق. م. كانت تعيش فى فقر مدقع ولامبالاة ، بسبب «فساد» وجشع ، وتجاوزات المسئولين» (٦١) .

ولعل كل هذه الأسباب جميعاً كانت وراء القيام بثورة كبرى فى عام ٢٠٧ ق. م. فى طيبة ، ولمدة عشرين عاماً تقريباً (كما ذكرنا من قبل) على أيدى حاكمين مصريين (فرعونين) ، ورد ذكرهما تارة باسم حارونوفريس (Haronnophris) وخاؤونفريس (Chaonnophris) ، بالإسم المصرى القديم ، وتارة أخرى بأسم أرماخيس وأنخماخيس ، بالأسم اليونانى (٦٢) . وقد تم تأريخ الوثائق المحلية الصادرة فى هذا الإقليم بتاريخ حكم هذين الملكين ، وكان من نتيجة هذه الثورة المحلية توقف العمل فى معبد حورس فى إدفو .

ويدين تارن ، بوضوح تام لا لبس فيه ، النظام البطلمى (رغم نجاحه فى بدايته فى ظل الملوك الأوائل ، الرواد الثلاثة الأقوياء) وذلك بسبب إصرارهم على ملئ خزائنهم ، دون إفادة أولئك الذين دفعوا هذا المال ، بل والأسوأ ، من هذا وذاك ، تقديم المصريين إلى محاكم يونانية ، وإدخالهم السجون ، بدون تحقيق ، وتساءل ، مقرراً حقيقة هامة ، قائلاً :

"Was the fault in the officials or in the system ? Probably both , ... (63) "

---

(٦٠) وبالرجوع إلي نشيد إيزيس ، تلك القصيدة التي سجلها إسيدوروس في مديح الربة المصرية ، ما يؤكد ذاك الواقع المتناقض ، راجع/S. E. G., VII : 548, ff., esp. 550, 551 حيث تم وصف إيزيس بأنها «إلهة الحظ السعيد "Agathé Tyche" : ولمزيد من التفاصيل راجع ، أيضاً :

Festugiere, A. J., " A propos des aretalogies d' Isis" , Harvard theol. Rev. 1949, p. 209 ff.

(61) Tarn, op. cit .

(62) Pestman, P.W., "Haronnophris and Chaonnophris : Two Indigenous Pharaohs in Ptolemaic Egypt (205 - 186 B. C.), in S. P. Vleeming, Hundred Gated Thebes : Acts of a Colloquium on Thebes and the Theban area in the Graeco-Roman period (Paplugd. Bat. XXVII, Leiden 1995, pp. 101 - 137 .

(63) Tarn, Op. cit., p. 204 .

ثم أضاف تارن ، عاملاً آخر لتدهور الأوضاع بعد عام ٢١٧ ق.م. ، وهو ، البعث القومى ،(National Revival) – كما أسماها هو (٦٤) – وإنتهاج البطالمة – رغماً عنهم – لسياسة التودد والتقرب تجاه المصريين ، والتى أسماها هو (٦٥) ، بالمصطلح الصريح : "The Egyptianising policy" ، وذكر لنا من مظاهرها ما يلى وبخاصة بعد عام ٢٠٠ ق.م. :

(١) التوقف عن إعطاء إقطاعيات كبيرة للمسئولين اليونان .

(٢) زيادة أعداد المعابد المانحة لحق اللجوء (Asylum) ، وتجديد صلاحية الأقدم(٦٦) .

(٣) منح المحاربين المصريين (Machimoi) إقطاعيات (مثل اليونان) وإن كانت صغيرة نسبياً .

(٤) تساوى فئة المحاربين المصريين مع الجنود اليونان ، أصحاب الإقطاعيات (Klerouchoi) فى الإمتيازات الإجتماعية ، حتى تساوت كفتا المواطنين (Katoikoi) ، اليونان – (كما عرفوا من بعد ذلك فى المصادر البردية) – مع المصريين ولم يعد هناك فارق عرقى ، إلا مساحة الأرض التى يمتلكها كل فريق .

(٥) حدوث تزاوج ، واختلاط فى الأنساب ، بين اليونانيين والمصريين ولم تعد الأسماء كاشفة عن أصل المواطن وعنصره الأصلى ، لدرجة وجود أسماء يونانية ومصرية ، جنباً إلى جنب ، فى داخل الأسرة الواحدة (٦٧) .

(٦) تعلّم بعض اليونانيين للغة المصرية القديمة ، واعتقادهم فى الآلهة المصرية(٦٨) ، وتبنيهم للعادات المصرية والتقاليد الوطنية ، وحتى فى تحنيط موتاهم .

(٧) العفو العام ، عن كل الثوار ، وعن الجنود المصريين بوجه خاص ، وإعطاء المعابد منحاً وهبات ، والغاء بعض الضرائب ، وفك أسر المسجونين ، والسماح

(64) Ibid., p. 206 .

(65) Ibid .

(٦٦) حتي صار هناك أربعة معابد تتمتع بهذا الحق ، داخل قرية واحدة وهي ثيادلفيا في اقليم الفيوم ، في الفترة فيما بين ٩٣ – ٥٧ ق.م.

(67) Tarn, op. cit., pp 206 - 207 .

(68) OGIS, III : 130, 175 - 178; Cf. Bell, I., " Popular religion in Graeco-Roman Egypt "Journal of Egyptian Archaeology, 34 (1948) , p. 82 ff .

للفلاحين الهاربين بالعودة إلى ممتلكاتهم (٦٩) .

(٨) تنصيب الملك الطفل – على الطريقة الفرعونية – فى ممفيس ، واعتبارها مقراً ملكياً ثانياً (٧٠).

وكانت كل مظاهر التنازل البطلمى الحكومى السابقة الذكر – هى من قبيل التدابير السياسية الواقعية (الواجبة ، فى حينها) – المؤقتة ، بالضرورة ، وذلك حتى تمر رياح الغضب الشعبى ، وتتم معالجة الأمور بهدوء ولا سيما أن الظروف الداخلية والخارجية ، على السواء كانت تفرض نوعاً من المهادنة مع الثوار ، وذلك فى ضوء :

أ – صغر سن الملك البطلمى الحاكم الجديد ، إبيفانيس (Epiphanes) وفساد الأوصياء من حوله ، وثورة شعب الإسكندرية ضده والقيام بمهاجمة القصور الملكية والقصاص الدموى من الفاسقين : أجاثوكليس وأجاثوكليا ، فى دراما بشعة ، ونهاية تراجيدية رهيبة (٧١) .

ب – خراب الأراضى الزراعية ، فى صعيد مصر ، وانتشار الفوضى ونقص الواردات التجارية من النوبة والصومال (٧٢) .

جـ – زيادة طمع الملك السيليوكى ، أنتيوخوس الثالث ، فى أملاك مصر الخارجية، وإنزال الهزيمة الساحقة للجيش البطلمى فى منطقة بانيون عام ٢٠٠ ق.م. ، وضياع عدد كبير من تلك الأملاك فى سوريا وآسيا الصغرى وبحر إيجة ، مما أنقص الموارد التجارية الدولية ، الشمالية ، فى حوض البحر المتوسط(٧٣) . هذا بالإضافة إلى فشل الزيجة السياسية له من ابنة هذا الملك السيليوكى (كليوباترا الأولى) ، عام ١٩٤ ق. م. ، لأسباب لا نعرفها(٧٤) .

---

(٦٩) تفاصيل هذا العفو العام لم تأتنا في وثيقة مستقلة ، بل تمت الإشارة إليها في قرار حجر رشيد الكهنوتي عام ١٩٦ ق. م.

(70) Tarn., op. cit., p. 205 .

(٧١) وقد وصفها لنا بوليبيوس (V : 63 & XV : 25 - 36) وصفاً تفصيلياً دقيقاً مرعباً ، مؤكداً للروح العدائية والتشفي من شعب الاسكندرية اليونانى ضد بطانة الملك الفاسقة ، أسرة الأوصياء ، وكيف أن الجماهير قطعتهم أرباً بأيديها (!!!) .

(٧٢) إبراهيم نصحى ، الجزء الثانى ، ص ٧٧٤ .

(٧٣) المرجع نفسه ، ص ٧٧٦ .

(٧٤) منيرة الهمشرى ، دبلوماسية البطالمة (سلسلة تاريخ المصريين/١٤٣) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٩م ، ص ٨٣ .

د - انتصارات روما المتلاحقة ، على مسرح السياسة والعسكرية الدولية ، فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، ضد القوى الإقليمية النشطة والطموحة :

١ - فقضت على هانيبال ، بالالتفاف ضده ، وضرب بلده نفسها فى زاما عام ٢٠٢ ق.م. ، مما أضطره للفرار (!!!) ، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من دخول روما نفسها (!!!) .

٢ - كما هزمت فيليب الخامس المقدونى ، فى موقعة كينوس كيفالى عام ١٩٧ ق.م.

٣ - وأجهزت على كل طموحات الملك السيليوكى أنتيوخوس الثالث ، فى موقعة «ماجنيسيا» ، عام ١٨٩ ق.م. ، وفرضت عليه الإستسلام التام بشروط معاهدة أباميا (Apamea) [٧٥] ، عام ١٨٨ ق.م.

هـ - إستمرار الثورة الشعبية المصرية ، بل وإمتدادها شمالاً حتى أبيدوس[٧٦] (Abydos) ، وذلك إستناداً إلى نقش على حائط معبد ممنون ، جاء فيه : «

أنا فيلوكليس بن هيروكليس ، من تريزينيا[٧٧] (Troizinia) ، أتيت لأتعبد للإله سيرابيس أثناء حصار أبيدوس ، فى العام السادس ، اليوم الثامن والعشرين من شهر بؤنة» [٧٨] ، كما ورد اسم ملك نوبى آخر ، يدعى/هيرجونافور (Hyrgonaphor) ، كأن يحكم أبيدوس ، على جدران المعبد نفسه . وتؤكد الدراسات الحديثة هزيمة الجيش البطلمى الموكل بالقضاء على تلك الثورة ، وظلت الأحوال على حالها هكذا : أى استقلال الصعيد ، حتى العام التاسع عشر من حكم الملك البطلمى إبيفانيس ، أى حتى عام ١٨٦ ق.م. ، وذلك بالرغم من إغراءات

(٧٥) محمود السعدني ، تاريخ وحضارة مصر في العصر البطلمي ، القاهرة ٩٨ - ١٩٩٩م ، ص ص ١٢٢ - ١٢٣ (ضمن سلسلة قراءات في التاريخ القديم (٣)) .

(٧٦) وهي تبعد حوالي (٥٠) ك.م إلي جنوب غرب سوهاج الحالية ، وقد كانت لي فرصة زيارة معبدها الرائع ، من عصر سيتي الأول ورميسي الثاني ، بمقاصيره السبع ولوحاتها التسجيلية : التصويرية والكتابية معاً ، وذلك يوم الأحد الموافق ٢/١٢/٢٠٠٠م، وتبدو آثار الحريق واضحة علي سقف وتيجان الأعمدة للصالة الرئيسية الأولي نتيجة لذاك الحصار .

(٧٧) وهى إحدى مدن إقليم لاكونيا (Lakonia) ، حيث عاصمته اسبرطة القديمة ، جنوب شرق البلوبونيز ، باليونان . وقد نطقنا اسمها هنا نطقاً يونانياً حديثاً لتسهيل القراءة له .

(٧٨) عواد حسين ، المرجع السابق ، ص ٢٤ ولكن أول نشر له جاء عند كل من بردريزيه وليفيفر Perdrizet et Lefebvre, les graffites grecs du Memnonion d' Abydos, 1919, no. 32 .

كل الإعفاءات الملكية والعفو العام ، الواردة فى قرار كانوب عام ١٩٦ ق . م . ، أى قبل ذلك بعشر سنوات كاملة (٧٩) .

المرحلة الثالثة : (الثورة الشاملة) :

بعد وصول مصير الثورة السابقة ، المحلية الإقليمية فى صعيد مصر ، على أيدى مصريين من النوبة ، إلى نهاية مأساوية فى عام ١٨٦ ق . م . ، بالقبض على أنخماخيس ، وإخماد كل الحركات الثورية (Tarachai) ، وحتى ما كان منها فى الدلتا ، ووقوعهم فى الأسر ، والتنكيل بهم ، وإعدامهم ، استخدم الملك البطلمى إبيفانيس ، أسلوبا ماكراً ، للإجهاز على ما تبقى من مشاعر الكراهية ضد المحتل لدى عامة الشعب المصرى ، فأعد فرقة من المحاربين المصريين (Machimoi) ، وضمها للعمل فى سفن الحراسة النيلية (٨٠) ، لضمان انتقال التجارة فيه ، وليضرب المصريين ببضعهم (!!!) .

ولكنه قبل أن يمر ربع قرن من الزمان على نهاية المحاولة السابقة لإعلاء الكرامة الوطنية ضد المحتل الغاصب ، وحوالى عام ١٦٥/١٦٤ ق . م . (٨١) ، قام مصرى صعيدى أصيل ، ذو مكانة مرموقة فى القصر الملكى بالإسكندرية ، يدعى/ديونيسيوس بتوسرابيس ، بثورة ذكية ، مستخدماً كل الأساليب وكل الظروف لصالحه ، وحاربهم بسلاحهم ، من مكر وخديعة وحتى بالمواجهة المباشرة .

لقد استغل هذا الوطنى الغيور الفرصة الوحيدة التى حانت له ، وكأنه كان ينتظرها بفارغ صبر ، - وضحى بكل مزايا المنصب والمكانة الرفيعة والرضا الملكى التام وعرض حياته كلها للخطر المؤكد - بالضبط كما كان الشعب المصرى (المقهور الذى يئن تحت وطأة الجبروت والابتزاز البطلمى) ينتظر زعيماً وطنياً مخلصاً يقوده للثأر لكرامته والتعبير عن نفسه بقوة مهما كانت التضحيات ، بعد

---

(79) Cf., Strabon, XXII : 17& Thampson, D. J., Memphis under the Ptolemies, Princeton 1988.

(80) Rostovtzeff, M., The Social and Economic History of the Hellenistic World, vol. II p. 715 & vol. III, pp. 1494 - 95 .

(٨١) هناك اختلاف بسيط بين علماء التخصص على تاريخ تلك الثورة، راجع/عواد حسين ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

خراب الأراضى من جراء غزوتى أنتيوخوس الرابع[٨٢] السيليوكى (فى عامى ١٧٠/١٦٩ و١٦٨/١٦٧ ق.م.) ، وتعدد أنواع الضرائب ، فضلاً عن نظام الخدمات الإجبارية المجانية (Leitourgiai) المفروضة على جميع الرعايا المصريين ، دون إستثناء ، إلا بالإعفاءات الملكية المباشرة ، زيادةً على التخبط فى إتجاهات السياسة الخارجية ، تارة صوب الشرق ، وتارة فى حضن الغرب ، مما أسفر عن وقوع الملك البطلمى فيلوميتور (Philometor) أسيراً فى يد خاله الملك السيليوكى (؟!!!) ، بسبب سوء حسابات الوصيين يولاوس (Eulaos) وليناوس (Lenaos) .

هنا يجب أن نقرر صراحةً أن تحول البطالمة تجاه تفضيل العناصر المصرية ، على اليونانيين (حتى ولو كان ذلك تحولاً مرحلياً تكتيكياً كما قررنا من قبل ، والذى كان قد بدأه بطلميوس إبيفانيس ، وسار على نهجه ، وبدرجة كبيرة ، بطلميوس VI (فيلوميتور) ١٨٠ – ١٤٥ ق.م.) قد أعطى المصريين الفرصة كاملة لتقييم ذواتهم ، والثقة فى أنفسهم ، ومجاراة الأجانب بأساليبهم .

ولهذا فلقد كان وصول مصرى ، يدعى باوس (Paos) ، على رأس جيش مصرى ، ويصبح حاكماً محلياً على إقليم طيبة[٨٣] ، وكذلك حصول مصرى آخر ، يدعى ديونيسيوس بتوسرابيس (Petosarapis) ، على لقب فخرى هو «صديق الملك» (Basileos Philos) ، ويعمل فى البلاط الملكى بالإسكندرية ، إيذاناً بحدوث تحول حقيقى – فى صالح القوى الوطنية – على أيدى البطالمة الأواخر ، وخلافاً لما درج عليه البطالمة الأوائل من إيثار الأجانب على الوطنيين [٨٤].

---

(٨٢) يقرر بعض علماء التاريخ أن ما حدث من هوان للملك السيليوكى السورى أنتيوخوس الرابع – علي مشارف الاسكندرة ووفق رواية بوليبيوس ، علي أيدي القائد الروماني الشاب بوبيليوس لايناس (P. Laenas) – لم تعرفه العسكرية طيلة تاريخها القديم كله ، حيث كانت دائرة بوبيليوس وعصاه أقوى من تواجد ملك بجيشه المنتصر ، والذي كان قاب قوسين أو أدنى من إعلان ضم مصر إلى ممتلكاته في سوريا !!!
راجع /محمد عواد حسين (رسالة دكتوراه غير منشورة) : شئون مصر الداخلية وسياستها الخارجية علي عهد بطلميوس إيوارجيتيس الثانى ، ١٩٤٦ ، ص ٢٨٣ .

(83) OGIS , 132 .

(84) Bevan, E. R., A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty, London 1927 (reissued Chicago. 1968) p. 289 .

وهكذا ، لم يدع بتوسرابيس الفرصة تمر ودبر أمره وخطط لكل شئ ، ورسم مراحل الثورة بدقة واتقان محكم بالاتفاق مع العناصر الوطنية المتحمسة لذلك ، مستغلاً كل الظروف المحيطة بالصراع الأسرى ، بين الأخوين ، على العرش البطلمى فى الإسكندرية(٨٥) ، ومن ثم نراه «يلعب بكل أوراق التآمر» :

أ - الوقوف فى صف الفريق المشاغب ، شعب الاسكندرية ، الذى يساند الملك الصغير ضد فيلوميتور ، الأخ الكبير الهارب فى قبرص (!!!) .

ب - الإدعاء ، بالمكر والخديعة ، على فيلوميتور ، بأنه تآمر معه هو شخصياً لقتل الملك الصغير (؟!!!) ، وتوزيع وتسريب الخبر فى كل أنحاء المدينة ، مما أثار المدينة كلها .

جـ - الفرار ، إلى إحدى ضواحى الاسكندرية ، عند انكشاف أمره ، وانضمامه إلى أنصاره الثوار ، ثم هروبه إلى الصعيد ، بعد هزيمته وقتل عدد كبير من أتباعه ، فى المواجهة الأولى عند الفرع الكانوبى للنيل .

د - اتخاذه لمدينة بانوپوليس (أخميم الحالية) مركزاً للمقاومة الوطنية ضد القوات البطلمية ، وتمكنه من أن يكبد المهاجمين خسائر كبيرة ، ولكن المحاولة انتهت بنجاح الملك البطلمى فيلوميتور فى حصارها وتدمير تحصيناتها واسقاطها(٨٦) .

وفى شهادة لوثيقة بردية هامة ، من الفيوم (٨٧) ، يتأكد لنا الخراب العام للأراضى والمعابد على السواء ، وكذلك اعتداء الثوار المصريين على أحد هذه المعابد وتدميره تدميراً شبه كامل ، وهنا يدافع عالمنا المرحوم/ محمد عواد حسين، عن مسلك الأهالى الخارج ، وإدعاء علماء الغرب بأن هذه الثورات (إستناداً لتلك الواقعة) لم تكن قومية ، ذات أهداف وطنية بغرض التحرر ، فيقول :

«ونحن نعود فنكرر أن هذه الظاهرة لا تنهض دليلاً على أن الثورات لم تكن قومية ، بل لعلها على العكس ، كانت قومية صالحة ، حتى تضاءل أمامها مركز الكهنة الذين لم يشاركوا الوطنيين ثورتهم وظلوا على ولائهم للبطالمة ، فلم

---

(٨٥) محمد عواد حسين ، المرجع السابق ، ص ص ٣٠ - ٣٢ وكذلك ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، الجزء الأول ، ص ١٠٢ .

(86) Diodorus, XXXI : 17 .

(87) Tebtunis Pap., No. 781 .

يتورع الثوار عن مهاجمة معابدهم» (٨٨)

ويبدو أن العداء الشعبى المصرى لكل ماهو أجنبى بعامة ، ولكل من يقف أمام ثورتهم ويعوقها بخاصة ، كان قد وصل إلى منتهاه ، حتى أن يونانياً متصوفاً ، يسمى «بطلميوس» ، كان قد لجأ إلى معبد سيرابيس ، ليتعبد فيه ويتفادى مخاطر الاضطرابات ، قد تعرض لاعتداء من الكهنة المصريين ، وعاملوه معاملة سيئة اضطرته إلى أن يشكوهم إلى السلطات البطلمية ، مؤكداً أن كهنة المعبد اعتدوا عليه لأنه إغريقى (٨٩) .

وبالرغم من صدور قرار ملكى ، بعد اتفاق الأخوين المتنافسين فى عام ١٦٣ ق. م. ، تحت رعاية روما ، باسم فيلوميتور ، نص فيه على العفو عن كل الجرائم ، إلا أن القلاقل ونشاط عصابات اللصوص وتجاوز الفلاحين فى أعمال أراضيهم والتزاماتهم تجاه الغير ، ظلت فى تصاعد مستمر ، فى منف وكذلك فى الفيوم ، حيث تمت محاكمة العديد من الفلاحين ، عام ١٥٧ ق. م. ، بجرائم مختلفة (٩٠) .

ويبدو أن الأحوال كانت تسير من سئ إلى أسوأ ، على كل المستويات وبين كل الطبقات ، وليس فقط على المستوى الشعبى المصرى المطحون ، الذى لا يملك حتى حق الأنين والصراخ !!! ، وذلك بالرغم من قرارى عفو أصدرهما الملك الجديد ، بطلميوس «يوارجيتيس الثانى» ، بعد وفاة أخيه الأكبر فيلوميتور ، حيث أمر فيهما ، منذ عام ١٤٤ ق. م. ، بما يلى :

أ - تخفيف عبء الضرائب .

ب - وأصلاح المعابد القديمة المهدمة ، وتشييد أخرى .

جـ - وأعاد الكثير من امتيازات رجال الدين اليهم .

ويبدو ، أيضاً ، أن أقدار هذا البلد الطيب حينئذ ، قد ارتبطت أرتباطاً وثيقاً بأقدار حكامها الأجانب أنفسهم ، وحظوظهم من الدنيا ، وأتى مليكها (بعد أقل من عامين فى محاولته للإصلاح العام ورأب الصدع) بعمل غريب : فقد تزوج حوالى عام ١٤١ ق. م. من إبنة زوجته ، بعد أن اعتدى على عفافها وعذريتها (!!!)

---

(٨٨) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٨٩) المرجع نفسه .

(90) Tebt. Pap., Ni. 742 : II, 26 ff., 32 ff .

فأصبح هو وحده زوج الأم والإبنة ، فى آن واحد (!!!) ، أى كليوباترا الثانية والثالثة ، مما تسبب فى صراع أسرى طويل دفع ثمنه غالياً شعب الاسكندرية (اليونانى) ، وكذلك بقية كل الشعب المصرى الكادح الصبور (!!!) .

ثم أتبع هذا الملك «الطالح» - كما سماه أهل الاسكندرية بسبب سوء تصرفاته وقسوته - جريمته الأولى بإستفزاز آخر ، واسراف فى الوحشية ، حوالى عام ١٣٢/١٣١ ق. م. ، حينما حاصر عدداً كبيراً من شباب الاسكندرية فى الجمنازيوم وأضرم فيهم النار ، فماتوا حرقاً ، ومن فر منهم بجلده كان مصيره الإعدام (٩١) .

وكان من جراء الصراع الأسرى البطلمى ، بين يوارجيتيس الثانى وأخته وزوجته كليوباترا الثانية ، أن انقسمت البلاد إلى فريقين متناحرين ، أى نشبت فيها حرب أهلية ، كانت مزيجاً بين شهوة السلطان والجاه ، لدى أفراد البيت الحاكم البطلمى ، وبين الحماس الوطنى المصرى ، كآخر فرصة للخلاص القومى من كل المحتلين الأجانب (٩٢) .

وهنا يمكننا أن نتعرف على شكل وحجم آخر مرحلة من مراحل النضال الوطنى المصرى ضد البطالمة ، حيث فقدت الجماهير العريضة الأمل فى زحزحة المحتل وإخراجه وتحرير التراب الوطنى تحريراً تاماً ، وتضاءلت تماماً إمكانية الفعل الموحد للثوار على مستوى البلاد جميعاً ، وتحت قيادة واحدة ، وزعامة أحد أمراء الشمال أو الجنوب ، مما أسلم الجميع لحالة من اللامبالاة ، والاعتماد على الذات الفردية فى رد الفعل ، ورد الاهانة ، ودفع الظلم الواقع ، بالضرورة ، على جميع الأهالى والرعايا المصريين على وجه الخصوص ، ولكنها ليست استسلاماً تاماً ، إنها مرحلة : الدفاع السلبى عن النفس ، أو استنزاف العدو ، أو حتى بالتعبير الشعبى الدارج - لعبة القط والفأر ، حيث ظهرت مصطلحات بردية ، ذات دلالات اجتماعية وسياسية جديدة ، مثل "amixia" ، بمعنى الإنقسام (٩٣) ، وعدم التداخل والمخالطة الطبقية بين فئات المجتمع ، بدلاً من كلمة "tarachai" السابقة ، التى أشارت إلى الاضطرابات والقلاقل والثورات ، كما شرحنا من قبل .

---

(٩١) محمد عواد حسين ، المرجع السابق : ص ٣٩ .

(٩٢) المرجع نفسه ، ٤٠ - ٤١ .

(93) Cf./Tebt . Pap. No. 72, Ii : 45 - 46; No. 610, II : 30 - 31 ; No. 72; I 45 & Louvre Pap., No. 10594 .

المرحلة الرابعة : استنزاف المحتل :

وقد تمثلت مظاهر هذه المرحلة فى مشوار النضال الوطنى المصرى القديم ضد المحتل البطلمى فى عدة تصرفات أقدم عليها العمال والفلاحون بشكل متزايد ، وبأعداد كبيرة على هيئة جماعات خارجة عن النظام البطلمى ، وذلك فى :

(١) التوقف عن العمل .

(٢) الاعتصام فى المعابد واستغلال حق اللجوء اليها .

(٣) هجرة المزارع والمصانع ، والهروب بعيداً عن أيدى السلطات البطلمية (أناخوريسيس (٩٤) :"Anachoresis" .

وتحدثنا الوثائق البردية ، التى تؤرخ بالعصر البطلمى ، عن حالات عديدة للهروب ، لأسباب كثيرة ، ولفئات مختلفة من طوائف العمال والمزارعين المصريين ، فضلاً عن بعض صغار الموظفين . ولعل ما جاء فى بعض برديات زينون (٩٥) ، منذ زمن الملك فيلادلفوس (النصف الأول من القرن ٣ ق.م) ما يؤكد خطورة الظاهرة ، وانتشارها ، ومدلولها الاجتماعى حول بداية الفساد الإدارى المبكر ، فى جسد المملكة البطلمية ، وحجم رد الفعل الشعبى ، فى التحايل على وجوب الانصياع للأوامر الملكية وتعليمات الحكومة ، والاصرار على استنزاف موارد الخزانة الملكية ، وذلك لشيوع حالة الإفلاس العام للأهالى .

ويكفى ، مثلاً ، أن نستمع إلى شكوى بعض حراس الجسور ، الموجهة إلى زينون ، يلحون فى طلب رواتبهم وتموينهم من القمح ، مهددين إياه بقولهم :

«.... وهكذا فإنك إذا أرسلت رواتبنا ومؤنتنا فسيكون ذلك طيباً.وأما إذا لم تفعل فإننا سنهرب، لأننا لم نعد نتحمل المزيد (٩٦)».

---

(٩٤) أبو اليسر فرج ، الدولة والفرد في مصر (ظاهرة هروب الفلاحين في عصر الرومان) ، وهي رسالة دكتوراة ، منشورة الآن عن دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية (الطبعة الأولي) القاهرة ١٩٩٤ ، ص ص ٣٢ - ٥٢ حول معني المصطلح من خلال الوثائق البردية ، حيث جاء بمعني : أ - رحيل (ترك المكان) ، أو ب - هجرة جماعية أو جـ - هروب متعمد أو د - الاعتكاف أو الزهد في الدنيا والانسحاب من الحياة الدنيوية ، وبخاصة بين النساك في أديرة المسيحيين .

(95) P. Cairo Zenon e.g. No. 59133 . 59209 . 59230 - 59310 - 59320 - 59620 - 59637 - 59466 etc.

(96) P. S. I., 421. وكذلك راجع أبو اليسر فرج المرجع السابق ، ص ٥٦

كما يكفى أن نعرف أنه لدينا شكاوى وتهديدات أو إخبار بالهروب من أو عن : حرفيين (٩٧) ، ورعاة ، وتجار ، وفلاحين ، وموظفين ، وجنود وبحارة ، حتى أن ٣٧ شخصاً ، من المكرهين على الأعمال الالزامية (الليتورجيا) فى اقامة الجسور ، فروا جميعاً ، فى حادثة **هروب جماعي ناجحة** ، فى زمن الملك يوارجيتيس الأول (٢٤٦ – ٢٢٤ ق.م.) . هذا إلى جانب هروب المزارعين الملكيين ، كذلك من الأراضى الملكية ، بسبب صعوبات اصلاح الأرض ، وارتفاع قيمة الايجارات ، عندما غاب كاتب القرية منخيس (Menchis)– فى عام ١١٧/١١٤ ق.م. – عن القرية ، فلجأوا إلى أقرب معبد للحماية .

هذا ، فضلاً عن ملاحظتنا على بعض حالات لبعض عقود الايجار ، فى أواخر القرن الثانى ق.م. ، (وتحديداً من اقليم الفيوم ، بين عامى ١٠٧/١٠٦ ق.م.) حيث كانت تشتمل على :

أ – قَسَم بدفع الايجار .

ب – وقَسَم بحسن أداء العمل .

جـ – وقَسَم بالاّ يلجأ إلى أى معبد .

وقد تسبب كل ذلك فى نوع من الفوضى السياسية والادارية ، والاضطراب الاجتماعى ، والتسيُّب الأمنى ، لدرجة تعرض الكهنة والمعابد لبلطجة – لصوصية، والقيام بمظاهرة (لأول مرة) – بناءً على وثيقة تؤرخ بعام ٥٨ ق.م. ، أمام مكتب الاستراتيجوس .

ولعل إمتداد ثورة طيبة ، فى عام ١٢٢/١٢١ ق.م. ، حتى مدينة بانوبوليس (Panopolis) وانتشار الفوضى من ذاك الوقت ، ووصف المصادر لها بأنها كانت « أميكسيا (Amixia) (٩٨) ، وقيام المواطنين ، فى لحظة هياج شعبى عام ، بالهجوم على تحصينات حكومية قصد بها ضرب الثورة وقمعها ، وكل ذلك كان مقدمة لموقف عصبى أيضاً ، من الملك البطلمى بحرمان مدينة بانوبوليس

(٩٧) ولعل أشهر بردية لهذه الفئة ، هي لصانع السجاد المدعو بايس (Pais) ضد زميله في المهنة ، والذي كان يغش في عمله : فيزن السجاد مبلولا ، ويعطى أطوالا غير حقيقية ، ويضيف موادا غريبة ، ومحاولته الفرار ، ولكن بايس يقبض عليه ويقدمه للمحاكمة فيدخل السجن . راجع/P. Cairo-Zenon, No. 59494 وكذلك / أبو اليسر فرح ، المرجع السابق ، ص ٥٩.

(98) P. S. I., 171 .

(أخميم الحالية) من حسنات قرار العفو الملكى الكبير الذى أصدره عام ١١٨ ق.م.[٩٩].

وربما كانت الشكوى التى وصلتنا من أهل طيبة ، فى وثيقة بردية [١٠٠] ، لتؤكد على هذا الجانب السلبى من ثورات المواطنين ، أو حالة الهياج الشعبى ، غير العقلانى ، عندما تفلت زمام الأمور بين أصحابها الحقيقيين الفاهمين لهدفهم ، والقائمين عليها ، وتتحول إلى فوضى ، يستغلها البعض فى تصفية حساباتهم مع المواطنين ، وبعيداً عن الغرض الحقيقى للثورة ، ومن ثم يعتدون على أملاك الغير وينتقمون منهم أشد الإنتقام .

كما يحدثنا باوسانياس (Pausanias) [١٠١] – المؤرخ والجغرافى اليونانى الشهير من القرن الثانى الميلادى – عن نهاية مثل هذه الثورات (؟!) المنحرفة عن أهدافها ، وشكاوى الأهالى منها ، وإخضاع الملك البطلمى سوتير الثانى [١٠٢] (فى ولايته الثانية بعد أن تخلص أخوه الأصغر بطلميوس الإسكندر من أمهما كليوباترا الثالثة غير العادلة بين ولديها ، بأن قتلها فى عام ١٠١ ق.م.) ، وهنا استطاع الملك بالرغم من مرور (٣) سنوات على مثل تلك الاضطرابات والمظاهرات الشعبية وحالة العصيان المدنى (amixia) ، من الإجهاز عليها تماماً ، وينهى الدور الوطنى الطويل لمدينة طيبة فى مشوار التصدى والنضال الوطنى ضد الأجانب .

وإذا كان رستوفتزف يؤكد على أسباب هذه الثورة السادسة ، والأخيرة (والتى استمرت كما قلنا ٣ سنوات) على أنها كانت مزيجاً من السخط العام ، والتعصب الدينى لدى البعض ، فضلاً عن الحماس الوطنى الطامح فى استقلال قومى ، فإن أستاذنا الكبير المرحوم الدكتور/محمد عواد حسين ، اعترف بعدم معرفتنا اليقينية ببداية الثورة ، ولا بنهايتها التراجيدية المفجعة . ولكنه ، أى الدكتور عواد حسين ، أعطانا عرضاً كافياً لبعض مصادرها الوثائقية ، والتى يمكننا أن نستعرض أخص ملامحها ، ومنها :

---

(99) Tebt. Pap. 5b., 143 ; II : 147 ff . & Diodorus, XXXI, 17b .

(100) Lond. Pap., II : 401, 20 .

(101) Pausanias, I : 9, 3 .

(١٠٢) إستمر يحكم البلاد ، في المرة الثانية ، من ٨٩ وحتي ٨٠ ق.م. ، بعد أن طرد السكندريون أخاه بطلميوس الإسكندر ، الذي قيل عنه أنه مات وهو في طريقه إلي قبرص ، راجع/ Pausanias, I : 9, 3 & Athenaeus, XII : 550/a

(١) اعتداء الثوار (١٠٣) على الأراضى الملكية فى مدينتى لاتوبوليس وباثيريس ، كما تؤكد ذلك بردية ديموطيقية من عام ٩٠ ق.م.

(٢) تأكيد رسائل افلاطون (١٠٤) ، الحاكم العام اليونانى لمنطقة طيبة ، لعام ٨٨ ق.م. ، على الصراع الكهنوتى الدينى بين المدينتين السابقتى الذكر ، وطمأنته لرجال الدين فى باثيريس بضرورة الصمود وحصار الثوار ، حتى يصلهم هو بنفسه لمساعدتهم ، وقرب وصول قوات أخرى بأمر الملك لإخضاع طيبة .

(٣) ترجيح نجاح حملة هيراكس (Hierax) ، البطلمية ، القادمة من منف ، بالقضاء النهائى على ثورة طيبة الأخيرة ، فى أواخر عام ٨٨ ق.م. ، بناءً على رواية باوسانياس ، أو عام ٨٥ ق.م. ، إستناداً إلى وصف وتأريخ رسائل أفلاطون ، الحكومية البطلمية ، ونحن نميل إلى الترجيح الأخير ، لمعاصرة الرسائل للأحداث ، من ناحية ، ولكونها حكومية مسئولة ، من ناحية أخرى ، وإقرارها للوقائع دون مبالغة . فهى وثائق إدارية لا تكذب ولا تتجمل ، وتتميز بوجود للتواريخ عليها .

وتحدثنا وثائق (١٠٥) الربع الثانى من القرن الأول قبل الميلاد عن نشاط حكومى بطلمى ملحوظ لزيادة عدد القوات العسكرية وتوزيع فرقها فى جميع أنحاء البلاد ، لزيادة هيمنة الملك على نشاط رعاياه ، وفرض الهدوء والسكينة عليهم تحقيقاً للإستقرار وضمانا لمزيد من الانتاج ودفع الضرائب المستحقة ، لملئ الخزانة الملكية ، كآخر هدف لكل السياسات الإحتكارية والوسائل القمعية ضد المواطنين ، أهل البلاد الذين فاض بهم الكيل ولم يعودوا قادرين على مثل هذا الاستغلال والإبتزاز ، المغموسين فى مهانة وإذلال للكبرياء الوطنى والكرامة المجروحة .

وكسمة مميزة لهذه المرحلة الرابعة ، والأخيرة ، فى مشوار النضال الوطنى المصرى ، ضد المحتل البطلمى/اليونانى، وهى إستنزاف قدرات الأداة الحكومية الغاشمة وبخاصة التأثير - قدر الإمكان - فى نفسيات المحتلين الأجانب ، بعامة ، وزرع الخوف فى قلوبهم ، وكانت هناك محاولات لإثارة القلاقل والإضطرابات ،

(١٠٣) محمد عواد حسين ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(١٠٤) المرجع نفسه .

(105) Cf., Aegyptus, XVIII (1938), p. 279 ff. & B. G. U., VIII: 1747 - 1750 .
حيث تجد وثائق بردية من هيراكليوبوليس مؤرخة بـ ٦٤ - ٦٣ ق.م. ، فضلاً عن نقش من هرموبوليس ، يؤرخ بعام ٧٨/٧٩ ق.م. ، وفيها نعرف مشاركة الأسطول النهري ، كذلك ، لتأمين التجارة علي صفحة مياه النيل .

كما كان في السابق ، وتحديداً على يد مصرى يسمى «هيرمايسكوس» ، من منطقة هيراكليوبوليس (١٠٦) ، والتهديد بالهروب، إذا لم توفر لهم الحكومة معاشهم وأقواتهم بشكل كافٍ .

وهكذا نصل إلى نهاية المطاف ، حيث استسلم الشعب المصرى لمصيره المجهول ، بعد أن فقد كل أمل فى زحزحة هؤلاء الأجانب وطردهم من بلاده ، وبخاصة بعد أن ساءت الأحوال على كل المستويات ، الإدارية المركزية فى الاسكندرية العاصمة ، حيث بدأ الدائن الرومانى جايوس رابيريوس (G. Rapirius) ، للملك البطلمى الفاسد ، بطلميوس الزمار (أوليتيس :Auletes) ، كوزير للمالية يفرض سياسته الاستعمارية المستغلة ، وتبطش الأداة الحكومية بالأهالى وتزج بهم فى السجون ، وتذل أسرهم . ولهذا ، يمكننا بأسف وأسى عظيمين أن نقرر أن مشوار النضال الوطنى المصرى فى مواجهة البطالمة ، قد انتهى كما بدأ بعد مرور ما يقرب من قرن ونصف ، بالرغم من التضحيات الكثيرة ، والآلا. والخسائر المادية الضخمة لكل فئات الشعب المصرى الصبور ، من أعلى قيادته ورؤوس حكمته ، الكهنة ، وحتى أفقر وأبسط فلاح فى آخر قرية من قرى أقاليمها الممتدة ، فى الدلتا الواسعة أو فى أعماق مصر العليا (الصعيد) ..

وإذا كان علينا أن نحصى أسباب فشل الثورات المصرية ضد البطالمة (كما فسرها لنا المرحوم الدكتور/محمد عواد حسين (١٠٧)) ، فيمكن أن نذكر منها ، (ونؤمن على ما توصل إليه بموضوعية شديدة كما تؤكد ذلك دراسته تلك لهذه الموضوع) ، ما يلى من مبررات قوية لذلك :

(١) عدم إتحاد المصريين وانقسامهم على أنفسهم مع أو ضد الحاكم المحتل ورموز سلطته الحكومية .

(٢) مكر البطالمة فى تزكية العداء القديم بين كهنة آمون (فى طيبة) وبقية كهنة مصر (فى الدلتا) وغيرها .

(٣) شراء البطالمة لذمم بعض المتأغرقين (من المصريين) ضد بنى وطنهم ؟! ، حتى وصل النفاق إلى حد تكوين جماعة باسم «باسيليتاى» (١٠٨) (Basilitai) لعبادة الملوك ، بالقرب من أسوان ، منذ أواخر القرن الثانى ق. م.

---

(106) B. G. U., VIII : 1762 .

(١٠٧) المرجع السابق ، ص ص ٥٦ - ٥٧ .

(108) Bevan, E.. A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty. Lond.، حيث يؤكد بيفان أنهم كانوا جماعة متأغرقة .

(٤) نقص الأموال والمعدات الحربية اللازمة لمجابهة الجيش البطلمى ، وقواته المرتزقة .

(٥) إرتكاب أعمال سلب ونهب ، خلال الثورات ، باسم الوطنيين ، مما استفز الأهالى الثائرين ، وقاوموهم وتظلموا منهم ، مما أجهز على الثورات بيد المصريين أنفسهم (!!!) .

ومع كل ذلك ، فإننا نجد ، من الأوفق ، أن نستشهد بشهادة متخصص أحدث وهو W. W. Tarn ، (الذى اعترف بفساد الإدارة وفساد النظام (١٠٩) ، البطلمى الحاكم الذى أسفر عن فقر الكثيرين من عامة الناس ولا مبالاتهم ، بالرغم من الثراء الباقى لدى الطبقة العليا وملىء الخزانة الحكومية) حينما قال :

" ... many of the common people, under the rule of ' corrupt, greedy, and lawless officials" became sunk in poverty and apathy.(110)

فهل بعد ذلك من شهادة ويقين علمى ، بأقلام المتخصصين الوطنيين والأجانب الغربيين ، ثم يبقى بيننا من يتحدث عن روح الإخاء والمساواة والتطور الثقافى والإجتماعى للمجتمع المصرى تحت حكم البطالمة ؟!!! نرجو ألا يكون .

(109) Op. cit., p. 208 .
(110) I bid., p . 209 .

خامساً : قضايا تاريخية خلافية

(١) مصير مكتبة الاسكندرية القديمة

لعله من قبيل احقاق الحق لأهله ، أن نشير إلى أفضل وأشمل دراسة تحليلية، استناداً إلى المصادر الكلاسيكية ذاتها ، هى تلك التى قام بها أستاذنا الجليل الدكتور/ مصطفى العبادى[١] ، حتى الآن . هذا من الجانب العربى ، بينما تأتى دراسة الباحثة الغربية ، د. دليا (Delia)[٢] ، عام ١٩٩٢م ، كأفضل المعالجات التى تمت بأيدى أجانب ، حتى اليوم ، مما يعكس اهتمامات متجددة وحديثة بتاريخنا القديم .

بدايةً ، تجدر الإشارة إلى أن مكتبة الإسكندرية ومجمعها العلمى الشامل (الموسيون [٣] : Mouseion) كانت ولا تزال هى المكتبة القديمة الوحيدة، التى مازال العلماء يبحثون تاريخها ، ويؤلفون عنها الكتب المطولة ، ويختلفون أشد الاختلاف حول مصيرها ومسئولية تدميرها [٤]، .

ويحدد الدكتور العبادى ابعاد المشكلة التاريخيةا الخاصة بمصير مكتبة الاسكندرية القديمة ، فى سؤال مركب كالتالى :

،فهل دُمِّرت أو أُحْرِقت ، ومن الذى دمرها أو أحرقها ؟ أو أنها لم تدمر ولم تحرق ، وإنما بليت كما تبلى الثياب من الاستعمال ؟ ،[٥] .

وللإجابة عن هذا السؤال المركب . استطاع علامتنا الجليل أن يميز بين إتجاهات ثلاثة :

---

(١) « مكتبة الاسكندرية القديمة» ، الباب الثاني من كتابه : العصر الهيللينستى (مصر) ، بيروت ١٩٨٨ ص ص ١٥١ .

(2) "From Romance to Rhetoric : The Alexandrian Library in Classical and Islamic Traditions" , American Historical Review, 97 (1992), p. 1449 ff.

(٣) وتعنى ، حرفيا في اليونانية ، "مقر الموساى" : آلهة الفنون ، عند اليونان القدماء .

(٤) مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(٥) المرجع نفسه ، ص ١٦٨ .

أولاً : يتّهم الفاتحين العرب بحرق المكتبة عند فتح مدينة الاسكندرية (٦).

ثانياً : لايتهم العرب ، ويُكذّب تلك الفرية ؛ ويلقيها على آخرين قبلهم (٧).

ثالثاً : يلقى باللائمة على الزمان وأن الكتب كانت قد بليت ، بدون فعل فاعل أو تعمد التخريب من أحد (٨) .

وبالعودة إلى وقائع التاريخ واستشارة المصادر القديمة بتأنى وروية ، تبدأ القصة من أولها وبدايتها الحقيقية المؤثرة ، فعلاً ، فى حجم وكيان مكتبة الاسكندرية القديمة .

لقد كانت الكارثة الأولى - كما أسماها الدكتور/العبادى(٩) - التى تعرضت لها مكتبة الاسكندرية ، هى حريق عام ٤٨ ق. م. بسبب يوليوس قيصر واشتراكه فى حرب الاسكندرية بين الأخوين المتنازعين على عرش البلاد آنذاك .

هنا يعترف يوليوس قيصر بنفسه ، فى حولياته الخالدة التى سجلت تفاصيل تلك الحرب ، من وجهة نظره هو ، وخدمة لأهدافه ، وتبريراً لأخطائه ، فيقول :

« ...... وفى الوقت نفسه ، كانت تدور رحى معركة عند الميناء .... وعلى ذلك دارت المعركة بكل العنف الذى لابد أن يوجد ... أما قيصر فقد أحرز النصر - أحرق هذه السفن (١٠) جميعاً ، وسائر السفن التى كانت فى الترسانة البحرية .....(١١)» .

ولقد وقع قيصر فى تناقض عند روايته لبقية ملاحظاته حول حرب الاسكندرية ، ولا سيما حول طريقة بناء أسقف المبانى ، فتارة يذكر أنها كانت

---

(٦) ويأتي علي رأس أولئك ، بين العرب ، جورجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، الجزء (٣) ، ص ص ٤٠ - ٤٦ ، ومن الأجانب ، مثلاً :

Sons, E. A., The Alexandrian Library, London 1952, pp. 344 ff.

(٧) أمثال : ; Gibbon, E. The Decline and Fall of The Roman Empire, Chap. 28

Butler, A. J., The Arab Conquest of Egypt, pp. 387 ff.

(8) Westermann, W. L., The Library of Ancient Alexandria, Alexandira 1953, p. 15 .

(٩) المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

(١٠) زاد عدد السفن المحترقة عن (١١٠) سفينة ، وفق رواية قيصر .

(11) Julius Caesar, De Bello Alexandrino, 12 .

مبنية من الحجر[١٢] والرديم ، وتارة أخرى يتكلم عن ألواح خشبية كانت تغطى الأروقة والمنشآت العامة ، كان الاسكندريون قد استخدموها فى إعادة بناء اسطولهم ، بعد الحريق [١٣].

ولكن الموقف الأغرب كان من استرابون ، الذى كان فى الاسكندرية ، بعد الحريق بما لا يزيد عن عشرين عاماً فقط ، ومع ذلك ، لم يذكر لنا أى شئ عن حريق مكتبة الاسكندرية ، ولا حتى أعطانا وصفاً موجزاً لها ، بالرغم من وصفه للموسيون وصفاً تفصيلياً . هنا يحاول الدكتور العبادى أن يبرر صمت استرابون ، غير المطلق [١٤] ، فيقول :

« ..... ثم لعله علم سبب تدميرها فى سنة ٤٨ ق. م. وتحرّج من ذكر مالم يذكره قيصر نفسه ، مما قد يضيق به أغسطس وريث قيصر وخليفته» [١٥] .

وليس هذا ، فى رأينا ، هو الموقف السلبى الوحيد لاسترابون ، من آثار الاسكندرية القديمة فى عهد ملوكها البطالمة ومؤسسها الأصلى الاسكندر الأكبر ، إذ لم يشر من قريب أو بعيد ، كذلك ، بأية تفاصيل عن مقبرة الاسكندر بين مقابر البطالمة فى الحى الملكى . ويبدو أنها كانت هذه هى سياسته التى آثر أن يتبعها عند وصوله إلى الاسكندرية ضيفاً على صديقه الوالى الرومانى على مصر ، وربما كان قد أحس بأن أى حديث عن ماضى الاسكندرية المجيد ، قبل الغزو الرومانى لها عام ٣٠ ق. م. ، بإمكانه أن يفسد صداقته مع الأسياد الجدد [١٦] .

وتشاء العناية الإلهية ، أن تستنطق شخصية أمينة صادقة مع نفسها [١٧]، وهو سينيكا (Seneca) الذى أعترف (فى منتصف القرن الأول الميلادى)

---

(12) Ibid .
(13) Ibid .

(١٤) لأنه أشار إلي أراتوسثينيس الذي كانت لديه – كما يقول – مكتبة ضخمة جداً ، أي منذ منتصف القرن الثالث قبل الميلاد Strabo, 2 : 1-5

(١٥) المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(١٦) راجع كتابنا : قبر الإسكندر الأكبر ، القاهرة ١٩٩١م .

(١٧) حيث أنه ظل وفياً لصديقه نيرون ، الامبراطور المخبول الذي أمره أن يتجرع السم ، فنفذ سينيكا أمره وقتل نفسه ، في مطلع النصف الثاني من القرن الأول الميلادى .

(١٨) قال بحريق ... ٤٠٠ كتاب بسبب النار التى أضرمها قيصر فى السفن ، راجع/العبادى، المرجع السابق ، ص ١٧١ .

بالحريق(١٨) ، وكذلك بلوتارخوس الذى يقول : «كما أوشك أسطول (قيصر) أن يقع فى أيدى أعدائه ، إضطر إلى أن يدرأ الخطر بالحريق ، وانتشرت النار من الترسانة البحرية ودمرت المكتبة الكبرى» (١٩) (وهاكم النص الأصلى) :

(Perikoptómenos [19/A] ton stolon enagkásthe dia pyrós aposasthai ton kindynon o kai ten megalen bibliotheken ek ton neorion epinemomenon dieftheiren."

إذن ، كان قيصر ، فى حرب عام ٤٨ ق.م. ، هو المتسبب الأول فى الحريق ، عندما لجأ ، مضطراً لينقذ نفسه من الهلاك ، إلى اشعال النيران فى السفن ، ومنها شبت ألسنة اللهب فى مبنى المكتبة الكبرى ، أو خزائن الكتب القريبة من الميناء .

ومن القرن الثانى الميلادى تأتينا شهادة أخرى بالإدانة لدور يوليوس قيصر، وإن كانت أقل مباشرة لأنها تحاول تبرير ذلك بأنه كان عن غير قصد ، وأن الفاعلين هو جماعة من الجند الاحتياطى (!!!) بمعنى أن قيصر براء - فى رأى أولوس جيليوس (Aulus Gellius) (١٢٣ - ١٦٩م) براءة الذئب من دم بن يعقوب ! فيقول هذا الكاتب الرومانى ، المدافع عن سمعة أحد أهم أعلام بلاده وتاريخه القديم :

« ...... ولكن هذه الكتب جميعها احترقت فى حرب الاسكندرية الأولى ، عندما دمرت هذه المدينة ، ولم يكن ذلك عن قصد أو عمل إرادى ، ولكن حدث عرضاً ، بواسطة الجند من الاحتياطى» (٢٠)

ثم يأتى مؤرخ رومانى آخر ، يؤرخ لهذا الحدث ، من منظور رومانى رسمى مسئول (٢١) ، وهو ديون كاسيوس (Dio Cassius) فيميع الوقائع ولا يحدد شيئاً ، عندما يقول ، مع نهاية القرن الثانى ومطلع الثالث الميلادى :

(١٩) هذه هي ترجمة الدكتور/مصطفي العبادى ، ونحن ننقلها عنها كما هي .

(19) Plutarchus, Parallel Lives, Caesar : 49 .

(١٩/أ) هذه اللفظة اليونانية المركبة تعني : «محاصراً» (19/A) Peri Koptomenos

(20) Gellius, A., Noctes Atticae, VII : 17.3 : "Sed ea omnia bello priore Alexandrino, dum diripitur ea civitas, non sponte neque opera consulta, sed a militibus forte auxiliaris incensa sunt . "

(٢١) إذ كان يتولى منصباً رسمياً كبيراً في إحدى الولايات الرومانية الخارجية في آسيا الصغرى ، راجع / O. C. D., op. cit., p.

« ... ونشبت النار فى أماكن كثيرة ، كما احترقت مخازن الغلال والكتب ، ويقال أن هذه الكتب كانت كثيرة العدد ، عظيمة القيمة» (٢٢) .

ولا شك أن كاسيوس يقصد هنا ، « بمخازن الكتب» ، الجزء المتمم للمكتبة ، إن لم يكن هو البناء الأصلى لها ، فإننا لا نرى فرقاً كبيراً ، يمكن أن يكون فى تلك الأزمان البعيدة مع قلة الإمكانيات ، بين المخزن الخاص بالكتب والمكتبة ، ولا سيما إذا عرفنا أنها لا تزال تعنى ، حتى اليوم فى اليونانية ، المعنى نفسه وبالمصطلح ذاته القديم (Bibliatheke) .

ومن القرن الرابع الميلادى تأتينا شهادة واضحة صريحة للمؤرخ أميانوس مركالينوس (Ammianus) حيث يقول : «كان هناك مكتبة ، لا تقدر قيمتها بثمن ، والتى يجمع الكتاب القدماء على أنها ضمت ٧٠٠٠٠٠ كتاب ، قد احترقت بالنار فى حرب الاسكندرية ، حينما دمرت المدينة زمن الدكتاتور قيصر» (٢٣) .

ثم يأتينا الخبر اليقين من مؤرخ ، ذى ثقل كبير فى القرن الخامس الميلادى ، وهو الذى يؤكد واقعة الحريق لمكتبة الاسكندرية أثناء حرب قيصر فيها عام ٤٨ ق.م. مع ذكر بعض التفصيلات الجديدة ، وبهدف جديد للكتابة عن هذا الموضوع القديم . إنه المؤرخ المسيحى المسئول ، من قبل الامبراطور ، العلامة أوروسيوس (٢٤) (Orosius) الذى يقول :

« وأثناء المعركة ذاتها ، صدر الأمر بحرق الأسطول الملكى ، الذى كان قد رفع على الشاطئ وحينما امتد ذلك الحريق إلى جزء من المدينة أيضاً ، أتى على ٤٠٠٠٠٠ كتاب ، مودعة فى بناء كان قريباً ، وكان شاهداً فريداً على اجتهاد وأدب أسلافنا الذين جمعوا هذا القدر الهائل من أعمال النبوغ الرائعة (٢٥) » .

(22) XLII , 38 .

أهملت الترجمة جزئية فى النص الأصلي وهي: " oste alla te kai to neorion ... "

بمعني : «وكذلك أماكن أخرى والميناء ....»

(23) Marcellinus. A. XXII : 16, 13 : . . "in que bibiotheca lucrnut inaestimabi lis, ptolemaeis regibus vigillis intentis composita bello Alexandrino, dum diripitur civitas sub-dictatore Caesar, conflagrasse.

(٢٤) يشيع اسم هذا المؤرخ ، فى مصادرنا العربية ، باسم هروشيوش ، راجع ، مثلاً ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، وترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي للنص اللاتيني لهذا المصدر التاريخي الهام ، مع تقديم ممتاز لمخطوطات هذا النص .

(٢٥) مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ :

Orosius, Historiae adversum paganos, VI, 15:31 .

وإذا كنا هنا نحس بلهجة الفخار المسيحى ومجد أجدادهم – كما يقول أوروسيوس – فإننا نجد تحديداً كاملاً ، لجزئيات غابت عنا ، توضيحاً شافياً لأحداث لا تعرف ، بيقين ، أسباب وقوعها ، إلا الآن ، مثل :

أ – كان الأسطول الملكى البطلمى مرفوعاً من الماء ، على الشاطئ ، ربما لإجراء عمرة واصلاحات ، عند قيام حرب الاسكندرية المفاجئة .

ب – خوف يوليوس قيصر ، أثناء حصار أسطوله فى مياه الميناء ، من لجوء الجيش البطلمى إلى ذلك الأسطول الراسى والنجاح فى الاجهاز عليه تماماً فى عملية خاطفة ، ومن ثم ، جاء أمره بإحراق ذلك الأسطول البطلمى واشعال النيران فيه ، درأ للخطر ، كما قال هو بنفسه ، فى مذكراته .

جـ – كانت هناك كتب ، ضخمة العدد ، مودعة فى بناء قريب من الميناء، امتدت اليها النيران وأتت عليها تماماً فهل كانت هذه هى المكتبة ، أو بعضاً من مخازنها ؟!!!

وعموماً ، فإن أوروسيوس ، كما قال بذلك الدكتور العبادى فى تقييمه لشهادته التاريخية (٢٦) ، بأنه هو «المصدر الوحيد بين جميع القدماء الذى يشير إلى موقع بناء المكتبة ، وأنه كان قريباً من الميناء (٢٧) ويلاحظ ، كذلك بأن وصف المؤرخ المهندس الرومانى ڤيتروڤيوس (Vitruvius) (٢٨) ، ينطبق على الموسيون ، وليس على المكتبة ، وأن أكثر الدارسين الحديثين يأخذون بمبدأ استقلال بناء المكتبة عن بناء الموسيون (٢٩) .

وإننا إزاء كل هذه الآراء فى المصادر الكلاسيكية ، والتى تأرجحت بين :

(١) صمت يوليوس قيصر .

(٢) وإشارة سينيكا واعتراف بلوتارخوس .

(٣) ودفاع جيليوس .

---

(٢٦) المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

(٢٧) المرجع نفسه .

(28) The Oxford Classical Dictionary, op. cit., p. 1130 (De Architectura)

وهو من عصر أوغسطس ، وأبرز أعماله : "حول العمارة" .

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٢١٨ ، هامش (٣٤) .

(٤) ومكر ودبلوماسية ديون كاسيوس .

(٥) وصراحة ماركللينوس .

(٦) وإدانة أوروسيوس .

لا نملك إلا أن نذكرها جميعاً ويزيد شكنا حولها وحول أغراض كاتبيها ، ومواقفهم الغريبة إزاءها ، ولكن نؤكد - بإجماع الغالبية منهم - على الحقائق التاريخية الآتية :

أولاً : شب حريق فى ميناء الاسكندرية ، عام ٤٨ ق . م . ، وأتت النيران على كتب كثيرة ، كانت بالقرب من الميناء لسبب ما (؟!!!) .

ثانياً : لا يزال موقع بناء المكتبة (Bibliotheke) وكذلك موقع بناء الموسيون (Mouseion) غير مؤكد على خريطة الحى الملكى البطلمى فى الاسكندرية القديمة(٣٠) .

ثالثاً : كانت هناك مكتبة صغرى : فى الحى الوطنى المصرى ، بمنطقة السيرابيوم (Serapeum) - حيث عبادة ومعبد سيرابيس الكبير ، زادت أهميتها بعد حريق مكتبة الموسيون ، المكتبة الكبرى منذ عام ٤٨ ق . م .

رابعاً : تعرضت الاسكندرية عبر قرون متتالية لكوارث ونكبات ، أثرت بالسلب ، وأجهزت على ما كان باقياً من كتب ومكانة علمية لمدينة الاسكندرية ، ونذكر منها :

أ - محاربة الامبراطور الرومانى كراكللا لأهل الاسكندرية ، وقتل الكثير من أهلها : شبابها وعلمائها وحرمانهم من كل الامتيازات(٣١) ، وذلك فى مطلع القرن الثالث الميلادى .

ب - تدمير مدينة الاسكندرية ، ولا سيما الحى الملكى ، عام ٢٦٥م ، نتيجة لأعمال اضطهاد ضد المسيحيين .

---

(٣٠) المرجع نفسه ، ص ص ١٧٨ - ١٨٠ .

(31) Dio Cassius, LXXVII : 7 .

(٣١) كان ذلك منذ عام ٢١٢م منذ ظهور دستور المواطنة الرومانية لكافة سكان الامبراطورية والنتائج التى ترتبت عليه . راجع/ايدرس بل ، المرجع السابق ، ص ص ١٣٦ - ١٤٨ .

جـ – تدمير الحى الملكى تدميراً شديداً ، للمرة الثانية خلال عشر سنوات ، عام ٢٧٢م ، بأمر من الامبراطور أوريليانوس ، مما أسفر عن هجرة وفرار علماء الموسيون(٣٢) .

د – حدوث الاضطهاد الأكبر للمسيحيين بخاصة وللاسكندريين بعامة ، عـام ٢٩٦م ، على أيدى الامـبـراطور دقلديانوس (Diocletianus) ، وقتل الكثير من أهلها ودمار وحرق العديد من مبانيها الهامة(٣٣) .

وهكذا يتضح ، بكل جلاء ، أن ملابسات القرن الثالث الميلادى وأحقاد ومواقف الأباطرة الرومان ، ضد المسيحيين من أبناء الاسكندرية ، كانت وراء تدمير وحريق المدينة ولا سيما حيها الملكى الهام ، ومبانيه العريقة ، مما أتى على البقية الباقية من نشاط علمى وثقافى لمكتبتها ومجمعها العلمى ، الموسيون . ومن ثم تجئ شهادة أميانوس ماركللينوس صادقة فى وصف الحال آنذاك ، وبعد أن دمرها دقلديانوس ، الذى استغرق حصاره للحى الملكى المنيع (فوق اللسان البحرى« البروخيون : Broukhcion")(٣٤) حوالى ثمانية أشهر ، فيقول مؤكداً :

«أن أسوار المدينة دمرت ، كما فقدت (الاسكندرية) الجزء الأكبر من الحى المسمى «بروخيون» ، الذى طالما كان موطن أبرز الرجال(٣٥)» .

ويُلَخص أستاذنا الدكتور مصطفى العبادى من بحثه حول مصير مكتبة الاسكندرية الكبرى ، فيقول(٣٦) :

« ... فلابد أن معبد الموسيون نفسه قد لقى مصرعه فى تلك الأيام العصيبة أيضاً» .

وأخيراً ، فطالما أن هذه كانت حال المكتبة الكبرى والحى الملكى والمجمع

(٣٢) مصطفى العبادى، المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

(٣٣) المرجع نفسه ، حيث شهادة أحد المؤرخين (يوحنا الايطالى) الذي يقول واصفاً حريق المدينة" جمعت هذه الكتب (يقصد كتب كيمياء صناعة المعادن، وبالذات الذهب والفضة) القيمة وأعملت فيها النيران دون شفقة" .

(٣٤) هو لسان (السلسلة) الحالى ، أمام قصر المؤتمرات الحديث وموقع مكتبة الاسكندرية الحديثة التى بدأ ، بالفعل ، انشاؤها بتمويل دولى ، وقاربت على الإكتمال ، بأيدى مهندسين مصريين ، وبتصميم هندسى نرويجى فريد ، كقرص شمس يبزغ من شاطىء الإسكندرية.

(٣٥) مصطفى العبادى ، المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

(٣٦) المرجع نفسه ، ص ١٨٣ .

العلمى والثقافى (الموسيون) ، حتى أواخر القرن الثالث الميلادى ، فكيف ظهر الإفتراء بقيام العرب الفاتحين بحريق مكتبة الاسكندرية ؟!!! إنها قصة أخرى تحتاج إلى العودة إلى مصادرنا العربية فى مشوار آخر لتقصى الحقائق التاريخية ... ولعلنا الآن قد عرفنا أنه لم تكن هناك مكتبة ، منذ ذاك التاريخ ، حتى يحرقها العرب ، بعد ذلك بحوالى ثلاثة قرون ونصف من الزمان .

الفصل الأخير

(من المسرحية التراجيدية لتاريخ الأسرة المقدونية)

كـــليوباترا

(بين الدعاية الرومانية والواقع التاريخي :)

(قراءة حديثة فى أوراق قديمة)

أولاً : كليوباترا والشعراء الرومان :

إنه من الطبيعى أن يقف الرومان موقف العداء من ملكة مصر المقدونية ، التى تحدت روما فى عقر دارها ، وأوقعت بقياداتهم العسكرية ، قيصر ، وأنطونيوس من بعده ، أعظم الخسائر . وأصبحت بالنسبة لهم ، القضية الأولى التى لابد أن يضعوا لها حلاً ، وكان ذلك على يد أعظم قادتهم مهارة عسكرية ، وحنكة سياسية ، إنه أكتافيوس أوغسطس (Octavius - Augustus ، الذى حقق أعظم انجازاته ونجاحاته بعد هزيمته كليوباترا وأنطونيوس (Antonius) فى معركة أكتيوم (Actium)(*)

فماذا قالوا عنها ، وكيف عبروا عن سعادتهم بتحقيق نصر نهائى على الشرق الطامع فى كابيتول روما ؟ لقد كان معظم شعراء القصر الحاكم فى الغالب ، يوجه دعاية ضخمة لهذا الانجاز الجبار فى سيرة أوغسطس العسكرية والسياسية كذلك . ولكن هذا الكم الهائل من التهم والأوصاف المشينة لملكة مصر البطلمية ، لم تحل دون إعتراف بالحق على ألسنة البعض .

ولعل خير شاهد على ذلك قصائد فرجيل وهوراتيوس وبروبرتيوس وأوفيد ، أئمة شعراء العصر الأوغسطى . وكان أولهم بمثابة شاعر البلاط . وشغل الثانى مكانه من بعده ، وقد قاموا جميعاً بالدعاية للحكم الجديد ، وأشادوا به وكالوا المديح لصاحبه . وكان من الطبيعى أن يهجوا خصمه أنطونيوس وزوجته كليوباترا ، ويهبط هذا الهجاء أحياناً إلى حد الاسفاف ، لكنه يكشف عن مبلغ الخوف الذى أثارته الملكة فى قلوب الرومان ، ولعل فرجيل ، أمير الشعراء اللاتينى ، كان أعفهم

(*) أسم هذا المكان ، علي الساحل الغربى اليونانى ، - باليونانية - هو اكتيون (Aktion) ، ولكن الرومان نطقوه وفق لغتهم اللاتينية ، وشاع هذا الشكل اللاتينى فى مراجعنا العربية

لساناً لأنه ، وإن كان قد هجا كليوباترا ، فإنه لم يفحش فى القول :

«وفي الجانب الآخر أتى أنطونيوس ، بعد عودته ظافراً من بلاد الشرق والساحل الأحمر ، يؤازره برابرة وأسلحة متنوعة ، أتى معه بمصر وقوات الشرق وبكترا النائية ، وتتبعه (يا للخزى) زوجته المصرية ، واندفع الجميع فى آن واحد فازبد البحر كله وتمزقت صفحته من شد المجاديف ومن المناطح مثلثة الأشواك . وإلى اليم سعوا حتى تتخلص الكيكلاذيس قد إقتلعت وأخذت تطفو فوق الماء أو تخال شواهق الجبال بمناطح بعضها بعضاً . وبهذه السفن الهائلة أخذ الملاحون يهاجمون المراكب ذات الابراج ، وينشرون بأيديهم قطع الجوت المشتعلة وعديداً ينطلق ضاراً بالقذائف ، وتخضبت حقول نبتونوس ، بدماء مجزرة لم يسبق لها مثيل . وفى الوسط كانت الملكة تنادى جحافلها بجلجل(*) وطنها» .

ولم تلتفت بعد وراءها لترى الحيتين خلفها ، وآلهة بشعة الصورة من كل نوع وأنوبيس النباح ، تشهر السلاح فى وجه نبتونوس وفينوس وفى وجه مينرفا(**) . وفى قلب المعمعة كان مارس يهدر بالغضب وقد رمح صدره بالحديد ، وربات القصاص تكشر عن أنيابها من علٍ ، والآلهة السحناء تخطر مبتهجة فى ردائها الممزق ، وفى أعقابها تمشى بانونسا ، ممسكة بسلاحها الدامى ، وأبصر أبو للون رب أكتيوم بما يجرى فشرع يشد بقوة عليائه ، وساد الفزع فولت مصر كلها والهند وبلاد العرب قاطبة وجميع سبأ ، ولت الأدبار ، وقد شوهدت (الملكة) ففيها تدعو الرياح وتطلق لها اشرعتها وفعل – حتى فى هذه الآونة – حياتها المتراخية ؟ وقد شحب وجهها وسط المجزرة خوفاً من الموت المرتقب . هكذا جعلها اله النار منسالة بالأمواج والريح . لكن قبالتها كان النيل – ذو المجرى العظيم – حزيناً ينشر طيات ثيابه ، بل كل ردائه ، داعياً المنهزمين إلى حضنه القاتم الزرقة (!!) (***) ومياهه الآمنة» .

ويسخر أوفيد من كليوباترا سخرية عابرة حين يشير إلى :

«زوجة القائد الرومانى المصرية التى سوف تسقط (أمام أغسطس) لأنها لم تحسن صنعاً بارتكانها إلى الزواج ، ويذهب مع الريح وعيدها بأن الكابيتول الرومانى سوف يحلى هامته لكانوب المصرية» .

(*) هو أداة السيسترم (Sistrum) المعروفة فى الآثار المصرية لإصدار أصوات تجلجل .

(**) وهى جميعاً آلهة رومانية : إله البحر ، وإلهة الجمال والحب ، وإلهة الحكمة والعقل (مينرفا)، التى تعادل أثينا (اليونانية) .

(***) خلافاً للواقع البيئى وطبيعة لون مياه النيل (الخضراء) التي تعكس أعماقه الطينية وأعشابه . فالنيل ليس كالبحر !!! .

وأما الشاعر بروبرتيوس فهو أقذعهم هجاء وأشدهم إسفافاً وأكثرهم شماته فى الملكة المصرية (*). فهاهو يقول :

«فلمـاذا أتغنى بالأبطال ، ولماذا أُحَـمِّل الآلهـة وزر الجـريمة ؟ لقـد جلب جوبيتر على نفسه وعلى بيته العار ، لماذا اتحدث عمن لطخت اسلحتنا بالخزى منذ قريب . المرأة المبتذلة حتى بين خدمها التى طالبت زوجها الفاسق بأسوار روما واخضاع السناتو لسلطانها كثمن لزواجها منه . أيتها الاسكندرية الآثمة ، يا أخصب الأرضين مرتعاً للخديعة . ويا ممفيس التى كثيراً ما تخضبت بدماء ويلاتنا حيث سلبت الرمال من بومبى مواكب نصره الثلاثة . أى روما ، أن يمحو يوم عنك من هذه الوصمة ، كم كان أفضل لك (يابومبى) لو جرى مأتمك فى سهل فليجرا أو كان كتب عليك أن تحنى هامتك لحميك . نعم ، لقد أجترأت الملكة العاهرة ، ملكة كانوب الدنسة ، والوصمة الوحيدة التى دمغتها (فى جبين روما) سلالة التيبر على إحتمال تهديدات النيل وأن تطرد البوق الرومانى بخشخشة جلجل (ايزيس) وتطارد سفن روما السريعة بمراكبها ذات الصوارى ، وتنشر شباكها القذرة فوق صخرة تاربيا ، وتصدر الأحكام وسط تماثيل ماريوس ودروعـه . **إن المدينة التى تحكم الدنيا بأسرها من علياء تلالها السبعة قد فزعت من القتال وأوجست خيفة من وعيد أمرأة** . فمـاذا يعنى الآن بعد أن تحطمت فؤوس تاركوينيوس الذى عرف من سيرته المتعالية بأسم «المتعال» ، لو حق علينا أن نذعن لامرأة ؟ أى روما تلقى النصر ، وإدعى لأغسطس الذى نجاك من الهلاك بطول البقاء . وأما أنت (ايتها الملكة) فقد لذت بالفرار إلى الجداول الشاردة من النيل الفزعان . وقد رسفت يداك فى أغلال الرومان ، لقد رأيت ذراعيها تلدغهما الافاعى المقدسة ، ورأيت أطرافها تجرع كأس الموت فينساب فى طريقه الخفى .

ولعل هوراتيوس على نقده اللاذع أكثرهم انصافاً للملكة حين يقول :

«الآن ينبغى أن نشرب ، وندق الأرض بأقدام طليقة ، ونعد آرائك الآلهة لأفخر المآدب ، لقد أزف الوقت، أيها الرفاق ، فمن قبل كان محرماً أن نحضر فاخر النبيذ المعتق تحت الأرض بينما كانت ملكة هوجاء تدبر الخراب للكابيتول والدمار للامبراطورية مع شرذمة من رجال انجاس مدنسين بالرذيلة . لقد أسكرتها خمر الحظ الحلوة حتى لم تعد بقادرة على أن تكبح نفسها عن تجنى أى شئ . غير أن دمار أسطولها كله بالنيران أطفأ ثورة جنونها ورد قيصر صوابها الذى أطاشته

(*) طبعاً هى ليست كذلك ، بل آخر أحفاد البطالمة المقدونيين ، ولكن الوصف الرومانى لها بذلك ، لأنها ملكة مصر .

خمر مربوط إلى واقع الفزع وطاردها وهي تطلق ساقيها للريح مبتعدة عن ايطاليا بمجاذيفه مثلما يطارد الباز حماماً رخيصاً أو يطارد الصياد السريع الوحش الخطير. غير أنها وقد سعت إلى أن تموت ميتة نبيلة لم تهلع من نصل أنها اجترأت على أن ترمق قصرها المتهاوى بعين ملؤها الهدوء ، **وإنها لمقدامة أيضاً إذ أمسكت بالأفاعى الشرسة لكى يمتص جسمها السم الزعاف ، وقد زادها الاصرار على الموت جرأة فاستنكفت أن تُحْمل - وهى متجردة من أبهة الملك - على سفن القساة أو أن تُساق فى موكب النصر الفاخر، فهى إمرأة ذات إباء»** .

ثانياً : رأى الكتاب العرب فى كليوباترا :

إن أحدث ما كتبه دارسو العرب وعلماؤه عن كليوباترا ، هو ذلك الكتاب القيم والبحث الممتع الذى قدمه الاستاذ الدكتور/أحمد عتمان منذ عدة أعوام[1] ، إلى المكتبة العربية وأثرى به معلوماتنا عن هذا الموضوع الذى كثر فيه الجدل والنقاش حول مشروعية وأخلاقية موقف تلك الملكة المقدونية تجاه أعدائها وأسلوبها فى التعامل معهم ، وإن كان يهدف ، بالدرجة الأولى ، إلى «تبيان ماذا يمكن أن تحدثه الثقافة الكلاسيكية فى عالم التأليف المسرحى العربى[2] **«ولايقدم هذا العمل دراسة تاريخية ، تحليلية ، ولكن قدم لنا عرضاً شيقاً لما جاء عند بلوتارخوس ، ويحاول أن يدافع عنها ، ولكن دفاعه جاء تقليدياً، سريعاً ، لأنه لم يكن من أهدافه مثل ذلك التحليل التاريخى،** وانتهى دكتور عتمان إلى قوله :

«وهكذا استطاعت كليوباترا أن تنتزع من أعدائها الألداء كلمات الاعجاب والثناء بفضل اختيارها أن تختم حياتها بميتة رواقية فيها ما فيها من عظمة بطولية وروح صوفية . لقد تطهرت كليوباترا بهذه الميتة الكريمة . ويكفى كليوباترا فخراً أن تأتى كلمة حق واحدة على لسان أى شاعر أو كاتب أوغسطى ، فالفضل ماشهدت به الأعداء [3]» .

ولكن الحقيقة ، التى أدركها د. عتمان كذلك ، وأشار اليها تفصيلاً ، هى أن هناك ثلاثة عوامل أو أسباب هى التى أبعدت مؤلفى المسرح العرب من معالجة

---

(١) كليوباترا وأنطونيوس : دراسة في فن بلوتارخوس وشكسبير وشوقى ، *المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة* ، ١٩٨٥م .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٧ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

موضوع كليوباترا مسرحياً (إذن أن هذا الموضوع هو هدف دراسة د. عثمان كما أوضحنا من قبل) . وقد لخصها فى النقاط الثلاث التالية :

١ – لأن كليوباترا ملكة أجنبية الأصل بحكم انتمائها إلى سلالة البطالمة القادمين من مقدونيا فى شمال اليونان .

٢ – لأنها عشقت أنطونيوس ، ولم يكن يختلف عن غريمه أوكتافيوس قيصر (أوغسطس) من حيث أن كليهما يمثل الاستعمار الاجنبى أو روما الطامعة فى الاستيلاء على مصر وخزائنها الغنية بالثروات .

٣ – لأن الموروث التاريخى والأدبى، والذى كان سائداً فى العالم الإغريقى والرومانى ، وحتى العصور التالية ، لا يزال مؤثرا حتى الآن – فهو يقدم كليوباترا على أنها امرأة شهوانية لا هم لها إلا التمرغ فى أحضان اللذة الجسدية .

وهكذا ، فقد كان ، ولا يزال ، الأمر عجباً أمام كتاب المسرح عندنا على أن يتخذوا من تلك الملكة ، رمزاً للكفاح الوطنى المصرى ، كما فعل أمير الشعراء أحمد شوقى سابقاً(٤).

ولكن ماهو قول أحد المؤرخين المصريين فى هذه الملكة الاخيرة من سلسلة الملوك البطالمة ، الذين ظلوا على عرش مصر قرابة ثلاثة قرون ؟؟

يقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعى :

«إن كليوباترا هى آخر ملوك البطالمة ، وقد كانت سيدة مقدونية يونانية ، ولم تكن فيها قطرة دم مصرية، ثم أضاف قائلاً :

«وكان انتحارها خاتمة محتومة لحياتها ، وحياة الدولة البطلمية . فقد وضعت لنفسها قاعدة ظلت أنها تستطيع أن تثبت بها عرشها المتداعى ، وهى أن تأسر كبار الرجال بغرامياتها فيذعنون لاغرائها وإغوائها ، ولم تكن الغراميات فى أى عصر من العصور وسيلة للدبلوماسية الناجحة التى تنهض بالدول والشعوب(٥)».

(٤) المرجع السابق ، ص ص ١٧ – ١٨ .

(٥) تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ص ٢٢٣ – ٢٢٤ .

وعلى العكس تماماً ، ونقرأ لاستاذ آخر ، له كتاباته الكثيرة الوثائقية فى العصر اليونانى – الرومانى(٦) ، وله محاضراته الجامعية فى التاريخ البطلمى والرومانى ، وفى احداها كتب الاستاذ زكى على يقول :

«أما عصر كليوباترا السابعة (٥١ – ٣٠ ق.م.) ففيه أكثر من مؤشر يدل على الأخذ بيد المصريين وفيه ما يدل على أن هذه الملكة كانت تحظى بالتأييد من جانب العناصر المصرية وأن هذه الملكة كانت فى نظر الشعب المصرى تعتبر بطلة وأنه كان مستعداً للمضى فى تأييدها إلى أبعد شوط باعتبارها ملكة مصرية ، يكن لها الحب والتقدير(٧)» .

ولكننا ، وبعد كل هذا العرض الموجز ، الذى تتباين آراء أصحابه تبايناً يصل إلى حد التناقض ، نميل إلى القول بأن الحقيقة مازالت غامضة ، بعيدة المنال ، ذلك لأننا – كما تقول الوثائق التاريخية ، تلك التى كتبها أعداء كليوباترا – مازلنا فى حاجة إلى معرفة الدفاع من جانب الملكة البطلمية ، التى لم يسمع صوتها أو دفاعها عن نفسها ، بل وصلنا ماكتبه أحد مصادرنا القديمة وهو بلوتارخوس (Plutarchus) ، الذى لم يستطع أن يخفى شماتته وفرحه لهزيمة كليوباترا ، إذ كان جد هذا الكاتب من رجال أكتافيوس المنتصر ، وهذا مثال لمشاعر بعض اليونان اللاحقين !!!

هذا وإن كنا ، لا نستطيع أن نغفر لها أخطاءها القاتلة ، التى جرّها اليها طموحها الذى لا تحده قيود ولا تمنعه أى عقبات أو يعرف المستحيل ، حتى لو كان ذلك على حساب أقرب المقربين منها ، مثلما ضحت بأخيها الأصغر فى حرب الاسكندرية (عام ٤٨ ق.م.) ، وكما ضحت بأختها أرسينوى عندما أخذها قيصر أسيرة إلى روما ، وشاهدتها كليوباترا كذلك ولم تشفع لها عند زوجها القائد الرومانى الكبير ، يوليوس قيصر .

---

(٦) زكى على : كليوباترا سيرتها وحكم التاريخ عليها ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٢ ، وله مقالات أخري عديدة ، حول نصوص بردية من مصر البطلمية والرومانية .

(٧) مصر البطلمية ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ١٨٠ (محاضرات جامعية) . ولا ندرى أسانيد أستاذنا حول هذا الاستنتاج الخطير ، حيث توجد إستحالة لمعرفة مشاعر جموع الشعب المصرى تجاهها ، فالموجود فقط هو بعض البرديات اليونانية ، التى ربما تعكس مشاعر اليونانيين أنفسهم ، وليس المصريين !!!

إننا لا نقبل من كليوباترا ، مهما كانت الأسباب والذرائع ، أن تستخدم سلوكاً لا أخلاقياً للوصول إلى أهدافها ، التى لم تكن أبداً ، تحمل طابع المصلحة العامة ، بل كانت مجرد طموحات شخصية ، ورثتها عن نساء القصر البطلمي السابقات عليها . فهاهى أرسينوى الثانية(٧) ، التى لم تتراجع عن قتل ابنها الأكبر حتى تنفرد بالعرش ، وتقريباً يتكرر النموذج نفسه مع كليوباترا ، مع اختلاف طفيف فى التفاصيل . إذن ، فالأمر بين وواضح ، ولم تأت كليوباترا شيئاً عجباً عما كان يجرى فى دهاليز القصر البطلمى قبلها بسنوات كثيرة وغدا موروثاً بطلمياً فى مصر .

هذا هو موقفنا من تلك الملكة الطموحة ، بالرغم من وصف أكبر أساتذة التاريخ الهيللينستى لها بأنها كانت أعظم خلفاء الاسكندر الاكبر ، إذ قال : «إن **روما التى لم تستسلم إطلاقاً للخوف من أية دولة أو أى شعب، قد خشيت شخصيتين، إحداهما هانيبال والأخرى امرأة**(٨) » . وكذلك بالرغم من شهادة عالم آخر من أعلام الدراسات البطلمية ، وهو أستاذى زكى على الذى قال :

«وقد تأثر المؤرخون طويلاً فى حكمهم على كليوباترا بالدعاية الرومانية المغرضة ، التى شوهت سمعتها ، ومهما قيل عن زلاتها الخلقية ، فقد كانت امرأة ذات عبقرية فذة(٩) » .

وأخيراً نجد الاستاذ الدكتور/محمد حسن عبد الله ، قد افرد لموضوع كليوباترا ، فى أدبنا العربى والآداب الأوروبية ، كتاباً صغيراً ولكنه ، دقيق المعالجة، كما أضاف اليه ماكتبه المؤرخون حول هذه الملكة التى لم تكن مصرية ، كما أكد الباحث على ذلك ، وكشف عن النوايا السيئة لكتاب الغرب فى تشويه سمعتها عن عمد (١٠) .

(٧) لمزيد من المعلومات عن هذه الملكة العنيدة الطموحة ، التى كانت لا تترفع عن استخدام أى وسيلة في سبيل الفوز بالسلطان ، ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر البطالمة، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص ص ٩٥ - ٩٦ .

(٨) بل . هـ ، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، دراسة فى انتشار الحضارة الهيللينية واضمحلالها ، (ترجمة محمد عواد حسين وعبد اللطيف أحمد علي) ، القاهرة ١٩٥٤م ، ص ١١٩ .

(٩) المرجع السابق .

(١٠) كليوباترا في الأدب والتاريخ ، المكتبة الثقافية العدد ٢٦٧ ، القاهرة ١٩٧١م .

ولا يمكن أن نختم دراستنا السريعة هذه عن كليوباترا بأقلام الدارسين العرب وعلمائهم ، دون أن نقرأ ما كتبه الاستاذ الدكتور/ابراهيم نصحى، كبير أساتذة التخصص فى الحضارة اليونانية - الرومانية فى مصر والعالم العربى ، والذى يقول :

«ومهما كانت أخطاء كليوباترا وجرائمها ، ومهما اختلفت أسلحتها عن أسلحة الرجال ، فإنها لم تثر فى روما العظيمة شعور الكراهية ضدها فحسب ، بل كذلك شعور الخوف منها(١١)» .

وفى معرض حديثه عن صفات كليوباترا ، وكيف أنها لم تكن على قدر كبير من الجمال ، كما تؤكد ذلك صورها على العملات البطلمية التى وصلتنا ، بل كانت أسلحتها وسر فتنتها الفتاكة التى أسرت بها قيصر وأنطونيوس وتتلخص فى جمال الجسم وصفاء الذهن وزلاقة اللسان ، ورقة وعذوبة الحديث مع إقتناء لفن إستهواء من تريد ، مع معرفة بسبع لغات (١٢) ، مكنتها من الاندماج التام مع محدثها والتأثير المباشر عليه ، قال الدكتور نصحى ما يلى :

«إذا كانت كليوباترا تدين لمصر بالشئ الكثير ، فإنه يبدو أن مصر لم تدن لها إلا بالقليل ، فقد كان الدافع لسياستها كالدافع إلى سياسة أجدادها العظماء ، المجد الشخصى أكثر من سعادة الشعب ... ومنذ عهد بعيد طغت شهرتها بدون استحقاق على شهرة ملوك وملكات الأسرة البطلمية(١٣)» .

(١١) المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .

(١٢) المرجع نفسه ، ص ٢٦٧ .

(١٣) المرجع نفسه .

ثالثاً : كليوباترا : دراسة تحليلية لدورها التاريخى (*) :

تقديم ضرورى :

فى هذه الدراسة الموجزة التى بين أيدينا ، لا يمكن أن يدعى صاحبها أنه قد أتى بالجديد تماماً ، واكتشف ، خلالها ، مالم يكتشفه الأوائل ممن سبقوه من علماء أجلاء ، وكل مافى الأمر (كعادتنا مع معظم موضوعات التاريخ القديم بعامة ، وحيث لا جديد تحت الشمس) ، أن الباحث هنا قد أعاد ترتيب أوراق الأخبار التاريخية عن آخر ملكة بطلمية حكمت مصر وانتهى حكمها نهاية تراجيدية أثارت قريحة المؤرخين والأدباء على السواء . كما حاول جاهداً أن يبرز الخط العام للسياسة البطلمية آنذاك ، والتى كان على كليوباترا أن تسير عليها ، تحقيقاً لمصالحها فى ظل :

أ - تغير موازين القوى فى المنطقة لصالح الرومان وحدهم .

ب - إنتقال الزعامة من قائد رومانى إلى آخر بسرعة غريبة .

جـ - زيادة العداء الشعبى السكندرى للرومان ، من ناحية ، ولها هى شخصياً من ناحية أخرى .

فماذا كانت هى فاعلة إزاء كل هذه التحديات الداخلية والخارجية ، والتى أرادت أن تسيِّر هى دفتها بنفسها حيث تشاء ، لا حيث يجرفها تيار الأحداث العنيف ويلقى بها فى غياهب النسيان كما فعل بآخرين من أسرتها المتداعية الأركان؟

وهل حقاً كانت سياستها واقعية جداً (١) (rem tene) ومباشرة جداً (ad hoc) مطبقة سياسات الرومان أنفسهم ، فعاملتهم بأسلوبهم ومفاهيمهم فى الحياة؟

(*) منذ سنوات مضت ، وأنا خارج مصر في إعارة مؤقتة لإحدي الجامعات العربية ، طلبت مني إحدي المجلات الكبري عمل دراسة لتنشرها بين مادتها ، وكانت المفاجأة لى بأن الموضوع لم يرق للناشر ، وكانت الاقدار أبقي وعلي موعد - هنا - لتخرج إلي النور لأول مرة ، فى مكانها الطبيعى ، داخل كتاب علمي مسئول .

(١) الأصل في هذا القول هو مبدأ أدبى قال به كاتو الأكبر في كتبه التعليمية التى ارادها لإبنه لكى تكون له عوضاً عن الكتب اليونانية ، وكان يردد : "rem tene, verba sequentur"

أى : "تشبث بالأمر ، تتداعى التبريرات ...."

راجع : Ehrenberg, V., Society and Civilization in Greece and Rome, Oxford University Press, London 1964, p. 89 .

الواقع أنـه هناك خلط كـبـيـر في أوراق الروايات التي وصلتنا عن كليـوباترا وعلاقتها برجالات روما العظام : يوليوس قيصر ، من ناحية منذ عام ٤٨ وحتى ٤٤ ق. م. حتى لحظة اغتياله السياسي الغريب بأيدي أصدقائه ورفقاء السلاح ، ثم أنطونيوس من ناحية أخرى ، منذ عام ٤٠ وحتى عام ٣٠ ق. م. حتى لحظة انتحاره قبلها . وأخيراً محاولاتها هي ومحاولات أوكتافيوس (أوجوستوس : Augustus فيما بعد عام ٢٧ ق. م.) لكي يحقق كل منهما أهدافه الخاصة به :

هي : كمهزومة ، مقهورة تأمل في الخلاص بأي ثمن من ذل السجن والأسر والانقياد كأسيرة ورهينة بين سبايا الفاتح المنتصر ، الذي أذلت هي يوماً ، شعبه ، داخل روما واستكبرت عليهم جميعاً ، عندما كانت في كنف قيصر .

وهو : كفاتح ، يحلم بإذلال تلك الرأس التي تسببت في كل تلك المصائب للجيوش الرومانية ، وحتى للتي هي من وراء طلاقها ، أي ينتقم لأخته ، زوجة أنطونيوس السابقة .

ويلاحظ أن الدعاية الرومانية ضد كليوباترا كانت قد بدأت منذ أيام علاقاتها بيوليوس قيصر ، ولا سيما عندما لحقت به في روما عام ٤٦ ق. م. ، وأكرم وفادتها وأقامت في القصور الملكية هناك . وعندئذ ، وهذا طبيعي جداً ، أن يتوجس الرومان خيفة من أهدافها ، كملكة شرقية . وهكذا كانوا ينظرون إليها ، وقد ملكت على قائدهم الأعلى كل شغاف قلبه ، حتى أنه أقام لها في معبد فينوس ، تمثالاً من الذهب (٢) .

كما أننا لا نستبعد أن يكون وجودها في روما ، بهذا الشكل ، أحد أسباب مقتله والأجهاز عليه بطريقة : «تفريق دمه بين القبائل» ، في مؤامرة قيل أن أهدافها كانت سياسية ؟!!

كان شيشيرون (Cicero) ، أول من أشار إلى صلف الملكة وإلى تعاليها عليهم وكبريائها (ومعها كل الحق فقد كانت صاحبته – إن لم يكن قيصر قد اعترف بها زوجاً له حتى تلك اللحظة ، عام ٤٥ ق. م. – سيد العالم

---

(٢) الإلهة فينوس (Venus) ، هي الربة افروديتي (Aphrodite) عند اليونان ، وهي الهة الحب والعشق والجمال ، وكانت تحمل لقب "Genetrix" عند الرومان ، وقد اتخذتها عشيرة القائد العظيم يوليوس قيصر أماً لها . راجع/ابراهيم نصحي ، مصر في عصر البطالمة ، الجزء الاول ، ص ص ٣١٤ – ٣١٥ .

القديم كله دون منازع) ، واصفاً للطريقة المشينة التى عاملته بها كليوباترا هى ورفقائها (٣).

كما يجب أن يلاحظ أنه عندما استفحل الخلاف بين أنطونيوس وأوكتافيوس(٤) ، أخذا فى كيل الاتهامات لبعضهما وكانت كليوباترا هى السبب المباشر الذى إتخذه أوكتافيوس ورقة ضغط خطيرة على أنطونيوس ، أثار بها زعيم الغرب الرومانى ، حفيظة الرومان جميعاً ضد «الفاسق» (٥) ، أنطونيوس . كما وصفه أحد أدباء القصر الامبراطورى المعاصر .

فها هو الشاعر اللاتينى بروبرتيوس(٦) (Propertius) ، كتب مهاجماً أنطونيوس وكليوباترا هجوماً لاذعاً ، بألفاظ بذيئة فيها خروج عن اللياقة وأدب الكلمة ، يقول ، مثلاً :

«طالبت المرأة المتبذلة زوجها الفاسق بأسوار روما وإخضاع السناتو لسلطانها، كثمن لزواجها منه . أيتها الاسكندرية الآثمة ، يا أخصب الأرضين مرتعاً للخديعة ... (٧) » .

ولكنه مع ذلك ، يعترف صراحة فيقول :

«إن المدينة التى تحكم الدنيا بأسرها ... قد فُزِعَت من القتال ، وأوجست خيفة من وعيد إمرأة (٨)» .

---

(2)Appianus, Bell. Civ., II : 102. & Dio Cassius, L 1:22.

(3) Cicero, Ad Atticum, XV : 15 .

م إقرأ : كذلك ، دفاع أستاذنا د. نصحى عن هذا الموقف منها . المرجع السابق ، ص ص ٣٢٠ – ٣٢١ .

(٤) هو نفسه "أكتافيوس" أو "أوجوستوس" كما لقب من بعد ذلك ، تكريماً له لفتحه لمصر وانجازاته العظيمة للامبراطورية الرومانية ، فاللفظة الأخيرة تعني «المبجل» أو «المعظم» .

(٥) عبد اللطيف أحمد علي ، مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية ، ص ٢٠ وما بعدها .

(6) The Oxford Classical Dictionary, 2nd edition 1970 (Rep. 1972), s. v. "Propertius", pp. 886-870 .

(٧) عبد اللطيف أحمد علي ، المرجع السابق .

(٨) المرجع نفسه .

فماذا كان ، ياترى ، تهديد كليوباترا للرومان ؟! هل حقاً كانت قد أعلنت عن نواياها فى حكم روما ؟ إننا نشك فى أن تكون قد فعلت ذلك ، لأنها بذكائها المعروف عنها ، لم يكن ذلك يخدم خططها الفعلية .. إذن ، هل هذا الكلام ، من الشاعر اللاتينى ، اتهام صريح لأفعالها ، فقط ، ولنواياها التى لم تعلن عنها ؟!! إنها حرب دعاية منظمة من الرومان وأبواق مثقفيها ضد كليوباترا ، أوعز بها – بلا شك ، المستفيد الأول والأخير من وراء ذلك لتشويه سمعة أنطونيوس ، وهو القائد الماكر ، الداهية ، أوكتافيوس ، الذى كان يتصيد لغريمه على عرش الامبراطورية الرومانية ، كل أخطائه من قول أو فعل .

ويأتى شاعر آخر هو هوراتيوس(٩) (Horatius) ويصف كليوباترا بأنها ملكة مخمورة ، وهوجاء ، ومتآمرة على خراب الامبراطورة مع فئة من الرجال (الرومان ؟!!) دفعتهم الرذيلة (١٠) . ولكنه مع ذلك ، كان موضوعياً فى اتهامه لها بعض الشئ ، واعترف بأنها شجاعة ، وجريئة ثابتة الفؤاد ، وهى « ... إمرأة ذات إباء(١١) ؟ .

ويؤكد ، لهذا كله ، أستاذنا العظيم الدكتور/إبراهيم نصحي ، بأنه كان هناك حملة تشهير بكليوباترا ، ولم يرتفع صوت واحد للدفاع عنها ، فى الوقت الذى كانت ابواق الدعاية تكيل المديح للمنتصر القوى .. والواقع أنه ، حتى الآن ، لم يعرف الناس سيرتها ولا من خصومها ، ولمَ تتم دراسة موضوعية لها ، فى إطارها الصحيح ، بمعايير عصرها ، وبنى جلدتها البطالمة المقدونيين .

ويعلن الاستاذ الدكتور/نصحى، بعد أن فنّد كل آراء الباحثين الغربيين وبعض افتراءاتهم على كليوباترا ، بالدليل الأدبى المتاح فى المصادر الكلاسيكية(١٢) ، فيقول :

(9) The Oxford Classical Dictionary, Op. Cit., pp. 527-530 .

عاش فيما بين ٦٥ حتى ٨ ق. م. ومن أشهر أعماله (Epodes) و (Satires) وكذلك (Odes) فضلاً عن بعض رسائل (Epistles) إلى الامبراطور أو جوستوس، بعد عام ١٧ ق.م.

(١٠) ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص ص ٣٧٨ .

(١١) المرجع نفسه ، ص ص ١٨٠ – ٣٨١ .

(١٢) المرجع نفسه ، ص ص ٢٩٢ – ٣٨١ .

«وإن الإنصاف ليقتضينا أن نقرر أن كليوباترا كانت أسمى وأجل مما صورها خصومها ، ومن الصورة التى ترتسم عادة فى الأذهان كلما ذكر أسمها(١٣)» .

كما أننا ، فى تقييمنا هذا ، لن ، ولا يمكن أن ، نغض الطرف عن زلات كليوباترا الأخلاقية(؟!!) ، كما فعل ذلك آيدرس بل (١٤) ، بالرغم من اعترافه ، هو أيضاً ، ودفاعه عنها بقوله : «**ومهما قيل عن زلاتها الخلقية فقد كانت إمرأة ذات عبقرية فذة ، جديرة بأن تهابها روما كخصم(١٥)**» .

والحق ، عندنا ، كشرقيين ، أصحاب مبادئ ومثل أخلاقية ، نحرص عليها، ويزكيها فينا ديننا الحنيف ، أنه لايجب أن نفصل بين القول والفعل ، ويجب أن يكون ظاهر المرء كباطنه ، حتى يعيش فى وفاق مع نفسه ، وتعرف روحه السكينة بين ضلوعه ، وترفرف على حياته ، كلها ، الطمأنينة الواجبة لكل مسلم حقيقى .. فكيف يمكننى إزاء كل هذه الأحداث ، بغض النظر عن تفاصيل الاتهامات التى كالها الرومان لتلك السيدة، أن أقف موقف المدافع عنها ، والمبرر لكل أخطائها ، لمجرد أن أعداءها ظلموها .. ومن يدرى – والصورة غير مكتملة حقاً – أن الأمور كانت هكذا فعلاً ، وليس هناك تجنى من قبل الرومان ؟!! وإننا ، بالحق ، لنا فى بعض المعلومات والأخبار التاريخية اليقينية مقدمات لحكمنا عليها، منها ، وفق تسلسل الأحداث :

(١) كانت كليوباترا ، منذ توليها العرش ، بعد وفاة والدها عام ٥١ ق . م ، إلى جانب أخيها الصغير بطلميوس الثالث عشر ، رعناء ، محبة للحكم والسيطرة والتسلط ، ولم يكن ذلك طيش شباب مؤقت ، بحكم صغر سنها (سبعة عشر ربيعاً آنذاك) ، بل أن تطور الأحداث فى ذات الاتجاه وتصاعدها بإستمرار ، ليؤكد أنها هى سمات شخصيتها ، التى ورثتها عن أجدادها وأهليها ، وهى التى جرّت عليها كل المصائب التى لحقت بها . فهل كان من العقل والذكاء

(١٣) المرجع نفسه ، ص ٢٨١ .

(١٤) مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة وتعليق (إضافة) د. عبد اللطيف أحمد على ، القاهرة (الطبعة الثانية) ، عام ١٩٦٨ ، ص ٨٥ .

(١٥) المرجع نفسه .

الدخول فى حرب مع أخيها(١٦) وأعوانه وبيدهم ، هم ، كل أدوات السلطة والشرعية ، بعد(٣) سنوات فقط من وصولها إلى أعلى منصب فى الدولة البطلمية ؟! فى الوقت الذى كان البلاط الملكى ، آنذاك ، غاصاً بالدسائس والمتآمرين والمنافقين ، والطامعين فى المجد والسيطرة ، أمثال : الوصى/ بوثينوس ، المربى، وأخيلاس(١٧)، قائد الجيش، وثيودوتوس، معلم الملك .

(٢) لم تكن على درجة عالية من الجمال ، كما تؤكد العملات النقدية التى عثر عليها لها ، وكما أخبرنا بلوتارخوس (١٨) ، وبالتالى كان عليها أن تعتمد على أساليب أخرى (؟!) لتحقيق طموحاتها ، وأهدافها ، مثل تعلم لغات أجنبية عديدة : المصرية القديمة ، والآرامية ، والعبرية ، والعربية ، والفارسية والبارثية ، والإثيوبية(١٩) . ولهذا حق لأحد الباحثين(٢٠) أن يقول عنها :

" Cleopatra was attractive rather than beautiful, with a lively temperament and great charm of speech" (21) .

(٣) كان مسلكها الدائم ، منذ توليها عرش مصر البطلمية ، هو ضرورة التقرب إلى الرومان ، على كل المستويات ، وفى كل المناسبات ، حتى تتقى شرهم ، وتوظف رضاهم لصالح أهدافها . وذلك ما أكدته لها كل أحداث تاريخ أجدادها السابقين ، وأقربهم علاقة أبيها بهم ، وحرصه على أسترضائهم بشتى الطرق والوسائل . إذن ، كان تكتيك سياستها هو الاعتماد التام واسترضاء الرومان ، بدليل :

---

(١٦) الوريث الشرعى للعرش، لكونه ذكراً، وكان الوالد (بطلميوس الزمار) Auletes قد أوصى له ومعه أخته الكبرى ، كليوباترا السابعة ، راجع : Dio Cassius, XI : 35 - 4 .

(17) Caesar, Bell. Civ., III: 108, & Plutarchus, Pom. p. 77;

راجع دوره فى حرب الاسكندرية ضد قيصر .

(18) Plutarchus, Antonius, 27 : 2 .

(19) Plutarchus, Antonius, 27;

(20) Cadoux, T. J., " Cleopatra VII", O. C. D., op. cit., p. 252;

(21) cf. Richter, G. M. A., The Portraits of the Greeks, 1965, p. 269;

أ - تقربها من بيبولوس، القائد الرومانى فى سوريا ، بالقبض على الجنود قاتلى إبنيه وتسليمهم له ، عام ٥١ ق. م.(٢٢) .

ب - مساعدة بومبيوس (Pompeus) ، فى حروبه ضد قيصر ، وفاءً منها لدوره مع أبيها ، وإعطائها لابن بومبى ، جنايوس حوالى (٥٠) خمسين سفينة وقمحاً ورجالاً ، وذلك باعتراف قيصر نفسه فى مذكراته الخاصة بتلك الحرب(٢٣) .

وهكذا يمكننا فهم سعيها الدائم للإتصال بقادة وزعماء الرومان ، على إختلاف شخصياتهم ، وذلك باتخاذهم مطايا ، الواحد تلو الآخر، وصولاً لتحقيق طموحاتهم الذاتية .

(٤) كانت كليوباترا عنيفة ، أنانية ، تعشق صالحها الخاص ، دون أدنى مراعاة لصوالح الآخرين ، حتى ولو كانوا أقرب المقربين إليها .

فقد تسببت فى مقتل أخيها ، بطلميوس الثالث عشر ، غرقاً(٢٤) ، أثناء حربه مع قيصر ، وكذلك أسر أختها الصغرى ، أرسينوى ، التى ساقها قيصر أسيرة(٢٥) (دون تدخل أو شفاعة من كليوباترا لدى قيصر من أجل إنقاذ حياتها فى روما ؟ هذا ، فضلاً عن مقتل وغرق المئات من الجنود فى حرب الاسكندرية ، بينها وبين أخيها ، عقب تحولها إلى حرب ضد قيصر ، وكان من الممكن تفادى كل تلك الخسائر فى الأرواح لو كانت نيتها صادقة أوخيرة، وكان لطموحها حد ما .

(٥) إستخدمت ذكاءها وكل ملكاتها فى الشر والأذى ، وبإصرار الشيطان على الغواية وإرتكاب المحرمات :

أ - أقامت علاقة دنسة مع قيصر ، وأنجبت منه بدون زواج شرعى ، أو اعتراف منه بأبوته لابنه «قيصرون»(٢٦) .

---

(٢٢) ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(23) Caesar, B. Civ., III : 4, 5, 40, .

(24) Bell. Alexandrinum, 28-31. & Dio Cassius, XLII : 43-

(25) Dio Cassius XLIII : 19. ff .

(٢٦) سمته بأسم الامبراطور الرومانى "قيصر" ، ولكن السكندريين ، سخروا منه وأسموه "قيصرون" ، تحقيراً لهذا المولود الحرام ، فهو أسم تصغير فى اللغة اليونانية القديمة.

ب – إدعت ، بجـرأة مـتناهيـة ، أنهـا ولدتـه من الإله آمـون–رع ، الذى خالطها فى صورة قيصر ، تخديراً للشعب المصرى المسكين ، وخداعاً له بالأسلوب الذى خدعه به فراعنته من قبل(٢٧).

جـ – ليس من المستبعد أن تكون هـى التى فكرت واخترعت نبوءة الملكة (Despoina) ، التى ستحكم روما وتبدأ عصرا ذهبياً جديداً : «يسوده السلام ، والعدل ، والنظام ، وتسرى فيه القناعة ويمشى الوئام .... إلخ» ، مما يحس معـه الدارس بشرقيـة الروح والأفكار ، ومـثاليـة الطمـوحـات والآمـال فى سيادة كلية على العالم القديم بأسره ، من خلال روما .. وقد وافق آيدرس بل(٢٨) ، العلامة تارن(٢٩)، فى إعتبار كليـوباترا هى المقـصـودة بتلك السـيـدة أو الملكة ، وذلك فـى ضـوء معلومة، أخرى هى أنها ، فى عام ٤٠ق.م. ، استخدمت جاسوساً لحسابها الخاص ، فلكى مصرى ، وضعتـه فى حشاية أنطونيوس لتعرف أسراره الخاصة جداً ، ومنها اقناعه بالانفصال عن زوجته أو كتافيا(٣٠) ، عندما هجر كليـوباترا لمدة(٤) سنوات بسبب الأحـداث الخارجية فى بقية انحاء الامبراطورية(٣١) .

د – ربما يصح الاتهام لها بأنها ، فعلاً (إتساقاً مع تكتيكها السياسى الثابت) قد غدرت بأنطونيوس فى المعركة البحرية الفاصلة (أكتيوم)(٣٢) ، بعد أن كـانت هى التى حـرضتـه على خوضـهـا ، وبدلاً من أن تساعـده، فرت هاربة(٣٣) .

(٢٧) وإن كان هناك بون شاسع بين شرعية حكم الفراعنة لبلادهم ، وادعائهم بأنهم من سلالة الآلهة كنوع من التكريم الأعلى ، وإدعاء كليوباترا ، آخر حفيدة بطلمية ، لولادة غير شرعية وآثمة!!!

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

29) Journal of Roman Studies, XXII (1932), pp. 135 - 60-

30) Plutarchus, Antonius, 33-

(٣١) ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص ص ٢٣٨ – ٢٣٩ .

(٣٢) هي موقع يونانى – إلي الغرب ، يسمى "أكتيون" أي الموقع الساحلى ، ولكن لفظة "أكتيوم" (Actium) اللاتينية هي الأكثر شيوعاً فى المراجع العربية والأوروبية الحديثة ، كما ذكرنا قبل فى هامش سابق .

Plutarchus, Anton., 63 : 35 .

فهل بعد كل ذلك من يمكنه الدفاع عنها بيننا ؟!!

إنه إذا كان الرومان قد أكالوا الضربات وتفننوا فى صياغة لكليوباترا ، فهو أمر طبيعى منهم بإعتبارهم عدوهم الأول ، ولم يكن غير ذلك .

أما موقف الباحثين المحدثين ، فقد تضاربت مواقفهم من ا النقيض : تارة معها تماماً ، فى خندق واحد ، يستميتون فيد الدفاع عنـ أستاذنا الدكتور/ نصحى وكذلك زكى على ، وتارة أخرى ضدها، علـ كما فعل الرافعى .. والموقفان متطرفان ، وليسا قائمين على معايير يجب أن تنبثق من ظروف ذاك الزمان ، ولا يصح أن نطبق عليها مـ اليوم .

ولكن الآن هل يصح ويجوز أن نوافق نحن ، كشرقيين، فى مـ السماوية ، على المبدأ الرومانى المادى فحسب "Do ut des": سأعط يمكنك أن تعطينى !!! ، وأن الغاية تبرر الوسيلة، مثلاً ؟!!!

كلا والله ، فلو فعلنا ذلك ، مثلهم ، لما أصبحنا أمة وسطاً ، وأصـ وأخلاقيات حميدة ، يجب أن نحرص عليها حرصنا على حياتنا ذاتها - فى واقع الأمر - كياننا كله ، وشخصيتنا المميزة فى عالم الشرق والغ

ثم فى نهاية الأمر ، هل تتجزأ الأخلاق والمبادئ و فى الحق والخير، أو تتبدل من عصر إلى عصر ؟!! لقد أجدادنا ، منذ آلاف السنين ، وعبر نصائحهم لنا ، ثبات مر الأزمان والعصور .

الجزء الثانى

تاريخ مصر

في عصـــر الرومـــان

تقـــــديم :

تاريخ مصر القديم ، وآثار مصر القديمة ، هما أغلى ما تملك مصر المعاصرة ، ويجب علينا اليوم أن نعد العدة الكافية للتصدى لمسئوليتنا تجاه ذلك الموروث الثقيل ، لا أن نتكاسل ونلقى باللائمة على الظروف والإمكانيات . إنها شماعةر الكسالى ، الذين لاز يملكون إرادة التحدى . فكفانا كسلاً وتواكلاً .

إن تاريخ مصر تحت حكم الرومان هو تاريخ أرذل فترة ابتليت بها مصرنا الحبيبة ويجب علينا اليوم أن ندرسه ونتعرف على دورنا القديم ، كولاية ، فى خضم أملاك الامبراطورية الرومانية العالمية . لقد كان لمصر دور رائد فى كل حين ، إلا فترة احتلالها تحت جبروت وجشع وطمع الرومان .

لقد وصل تدهور الأحوال فى مصر آنذاك لدرجة أن الامبراطور الرومانى ، سبتميوس سيفيروس يتعاطف ويصدر أمراً للوالى بأن «يجز الشاة ، لا أن يذبحها» ، بالطبع ليس حباً للمصريين أو خوفاً على مصلحتهم ، بل لتزداد جزية مصر ولتستمر فى عطائها سنوات وسنوات .

إننا مازلنا أمام تاريخ مصر ، فى تلك الحقبة ، نقف عاجزين عن معرفة أوضاع المصريين ، أهل البلاد ، بسبب عدم التخصص على نطاق واسع فى دراسة النصوص الديموطيقية والقبطية ، وكلها وسائل لمعرفة المعلومات الأصلية من مصادرها الأولى . **فهل نبدأ وكفانا ترجمة لأعمال الأجانب وترديد آرائهم ؟!!**

د. محمود السعدنى

الفصل الأول

مقدمات الفتح الرومانى لمصر

لقد كان غزو أوكتافيوس (Octavius) لمصر عام ٣٠ ق. م. ودخوله مصر فاتحاً لها وضمها إلى أملاك الشعب الرومانى [كما قرر ذلك هو بنفسه فى أثره الخالد (Res Gestae Divi Augusti) الأعمال المجيدة «العظيمة» للإله أوجوستوس] بمثابة الاعلان الرسمى لاحتلال هذا البلد عسكريا . وكان لهذا الفتح قيمة كبرى – فى نظر الرومان جميعاً ، وفى نظر الفاتح نفسه بصفة خاصة – ذلك لأنه هكذا فقط ، وفى تلك اللحظة بالذات ، أى عام ٣٠ ق. م. (ولا سيما بعد انتحار كل من أنطونيوس ، القائد الرومانى الوحيد ، والمنافس الأخير الشرعى لأوكتافيوس على عرش روما ، وكذلك انتحار ملكة مصر البطلمية – آخر وجود لأسرة البطالمة على أرض مصر) خلت الساحة تماماً من الاعداء الأقوياء الذين يجاهرون بعدائهم للسلطة فى روما ، وكانوا يقدرون على إعلان الحرب عليها .

إن أوكتافيوس ، بفتحه مصر ، ضرّب أكثر من عصفور بحجر واحد . ولسنا الآن بصدد تقييم فتح مصر على أيدى إكتافيوس ، بل نود معرفة مراحل تطور العلاقات بين مصر تحت حكم الملوك البطالمة وروما الجمهورية (Res Publica Romae) .

وجدير بالذكر أنه ثبت تاريخياً وفى ضوء الأدلة الأثرية المتاحة أن علاقة مصر القديمة بروما لم تكن وليدة ذلك الغزو الرومانى المسلح لها فى عام ٣٠ق. م. ، بل سبق ذلك بأكثر من قرنين ونصف من الزمان ، وما فتح أوكتافيوس لها مؤخراً ، فى عام ٣٠ ق. م. إلا الحلقة الأخيرة من سلسلة طويلة للعلاقات التى كانت قائمة بين البلدين .

ولكن نظرة متعمقة فى تاريخ مصر القديم ليؤكد لنا – بما لا يدع مجالاً لأدنى شك – أن ازدهار وتقدم هذا البلد الخير ، أو تدهور أحواله وانهيار كيانه لترتبط ارتباطاً وثيقاً بقوة أو ضعف حاكمه ، فإذا ما كان ملكها قوياً ، أدهشك تقدم وازدهار كل مجالات الحياة على أرض وادى النيل الخالد . وإذا وصل إلى العرش ملك ضعيف راعك تدهور الأحوال وانهيار كل شئ . هكذا كان تاريخ مصر ، دائماً وأبداً ، يستمد نضارته وبسمته من قوة تواجد ملكه الجالس على عرش البلاد . **إنها طبيعة ذلك الشعب الطيب الذى يسلم قيادته ، تماماً وكلية ، إلى حاكمه ، لأنه يفترض فيه كل الخير وكل الصدق وكل ما فيه مصلحة عامة الشعب** . وإذا لم يتحقق كل ذلك أنقلبت الصورة إلى الضد ، وعانى الناس

جميعاً أشد المعاناة من سوء تصرف حاكمه وبطانته . ولما كان الإيمان الشديد بالخالق (قديما كان بآلهة كثيرة متعددة كما نعرف) كان اللجوء إليه هو الحل الأوحد أمام الشعب وفى أحسن الأحوال كتابة الشكاوى أو الإلتماسات إلى الرئيس المسئول عن المصلحة أو المنفعة التى لم تتم لخدمة أهالى منطقة من المناطق ، ولسوف نرى نماذج لها من وثائق البردى اليونانية العديدة التى كشفت عنها الأقدار لنتمكن من اعادة تصور مشاكل الحياة اليومية فى مصر البطلمية أو الرومانية من جراء ضعف الإدارة الحكومية وفضائح الإدارة الرسمية أمام مشاكل الناس .

إن شخص الملك – فى مصر القديمة – وسلوكياته كانت هى العامل الأول فى حسن سير الإدارة الحكومية أو تخبطها . ومصداقاً لذلك ، نلاحظ هنا (وبالتحديد إبان فترة تاريخ مصر تحت الاحتلال البطلمي ثم الرومانى) كيف تحول الوضع فى مصر إلى النقيض تحت حكم البطالمة الأوائل – الأقوياء – إلى وضع مهين أعطى الفرصة سانحة لرجالات روما وقادتها الطموحين للتدخل فى سياستها ، بل – إلى أبعد من ذلك – فى تعيين وتحديد من يحكم عرشها !!!

وإذا ما استعرضنا – سريعاً – بعض الملامح التاريخية لمصر تحت حكم البطالمة ، لأمكننا أن نسجل تلك المظاهر أو العلامات المميزة فى تلك الفترة :

(١) نجاح المشروع الاستثمارى البطلمى على أرض مصر – بإن جاز لنا ذلك التعبير المعاصر – وإن كان لفترة زمنية قصيرة ، إذا ما قيس ذلك بطول فترة تواجد هذه الأسرة الأجنبية ، على أرض أجنبية ، وبأيد أجنبية الإدارة ، على أرض مصر .

ذلك لأن فترة الإزدهار الحقيقى ، سياسياً ، وإقتصادياً ، وثقافياً ، وعسكرياً ، بدأت منذ عام ٣٢٣ ق. م. والتدهور منذ عام ٢٠٤ ق. م. أى أن المملكة البطلمية حققت أهدافها كاملة ، تقريباً لمدة مائة عام فقط ، أى طيلة ثلث مدة تواجدها على أرض مصر ، لأن ما كان قبل عام ٣٠٥ ق. م. ، كله صراع دائم وحروب على الحدود الشرقية مع خلفاء الاسكندر الآخرين فى الممالك الشرقية ، الذين أرادوا أن يفرضوا سلطانهم ، بالقوة على أكبر مساحة من أرض الامبراطورية الموروثة وكذلك فإن ما بعد عام ٢٠٤ ق. م. وحتى عام ٣٠ ق. م. كانت سنوات التدهور الحقيقى فى أوصال المملكة البطلمية داخل الإدارة مركزية وفى المحليات ، بسبب الصراع الأسرى (١) داخل البيت البطلمى الحاكم على عرش مصر وتدخل روما الدائم فى شئونها وفقاً

لمصالحها هى .

وظلت روما على هذا الحال مكتفية بالتدخل السياسى لصالح أحد أفراد البيت الحاكم ضد الآخر ، محققة مصلحتها المادية من رشاوى وغيره للقادة الرومان - وغير مستعدة للتدخل المباشر السافر عسكرياً نظراً لأنشغالها هى بمشاكلها الداخلية ومشاكل بعض الولايات الخارجية الأخرى فى الشرق والغرب ولهذا تأخر فتح مصر عسكرياً وضمها إدارياً إلى أملاك الامبراطورية الرومانية حتى ٣٠ ق. م.

(٢) فشل سياسة الاعتماد على مرتزقة فى الجيش كقوة أساسية له ، وهذا ما وقع بالفعل للجيش المصرى فى عهد أماسيس (Amasis) أشهر فراعنة الأسرة السادسة والعشرين (العصر الصاوى) عند دخول الفرس مصر على يد قمبيز عام ٥٢٥ ق. م.(٢) ، وهروب المرتزقة اليونانيين إلى صفوف المعتدين الفرس وكان تحول قائد الجيش المصرى آنذاك ، وكان يونانياً ، ضربة قاصمة للفرعون الذى وثق به وبرجاله ، وكانت المفاجأة أن هزم الجيش المصرى المعتمد على الجنود المرتزقة الذين كانوا - يوماً ما - ضمن القوات الأساسية . هذا الدرس القاسى ، لم يستفد منه ملوك المملكة البطلمية فى مصر ، بعد ذلك وراحوا يجندون الآلاف من المرتزقة اليونانيين . وغيرهم ، حتى أصبحوا هم عماد الجيش البطلمى(٣) . ولكنهم فى معركة رفح عام ٢١٧ ق. م. أعطوا الملك البطلمى درساً وتقاعسوا عن الدفاع عن مصر ولم يقم بهذا الواجب إلا الجنود المصريون(٤) . ويقول الاستاذ الدكتور/إبراهيم نصحى فى هذا الخصوص ما يلى :

(١) لمزيد من المعلومات عن هذا الصراع البطلمي ، راجع د./ عواد حسين "النزاع الأسرى فى مصر البطلمية" مجلة الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٥٣ ، ص ص ١١١ - ١٣٦ .

(٢) يذكر عالم المصريات الراحل الدكتور/أحمد فخرى (دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، الطبعة الرابعة ١٩٨٤ ، القاهرة ، ص ٢٠٧) ما يلي : ولم يكن نقض اليونانيين عهدهم مع مصر (ويقصد تخلى بوليكراتيس حاكم ساموس عن مساعدة أماسيس ضد الفرس) هو كل ما حدث بل زاد الطين بلة ، أن اليونانيين الذين كانوا يعملون كجنود وقواد الجيش فى مصر، وكان قائدهم يونانياً خانها وذهب إلى قمبيز وأفشى جميع أسرار الدفاع عن البلاد .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

(٤) قائد القوات المصرية كان يُسمى باؤوس (Páos) وكان تعدادها حوالي ٢٠٠٠٠ راجع / Polybius, I, 65.9 .

«ولم يكن انتصار رفح انتصاراً باهراً لفيلوباتور وسوسيبيوس(٥) فحسب ، بل كان أيضاً انتصاراً رائعاً للمصريين(٦)» .

(٣) فشل السياسة البطلمية الخارجية فى المرحلة الثانية من تاريخ البطالمة فى إرضاء كل الاطراف والقوى الخارجية فى الشرق والغرب ، وعدم الثبات على مبدأ واحد . فتارة يعقد البطالمة المحالفات مع آل سليوكس فى سوريا ، ويصل الأمر إلى حد المصاهرة كما رأينا من قبل زواج عام ٢٥٥ ق. م. أو المعاهدات ، كما رأينا فى صلح أنطيوخوس من بطلميوس الخامس عام ١٩٥ ق. م.

ولكنه عقب وفاة أريستومينيس ، الوصى على العرش البطلمى ، والذى كان يوجه السياسة البطلمية بحكمة بالغة تجاه محالفة السليوكيين فى سوريا وبسبب بطانة السوء حول الملك الطفل (٧) كره الملك الصغير أريستومينيس وأجبره على الانتحار(٨) ، تغيرت دفة السياسة البطلمية الخارجية إلى الغرب وراحت مصر تتقرب إلى روما على يد وصى جديد يميل إلى روما واستبدل بسياسة أريستومينيس الحكيمة الوقورة سياسة ذليلة مستكينة أملاً فى الفوز برضاء روما لتعيد إلى مصر ممتلكاتها السابقة (٩) .

عندئذ ، يستطيع الدارس أن يضع يديه على نقاط ضعف خطيرة فى

---

(٥) هناك رسالة دكتوراه فى هذا الموضوع من جامعة سالونيكا باليونان عام ١٩٧٤م أعدها المرحوم الدكتور/عبد العظيم الراعى حول دور المصريين في معركة رفح ، أنظر كذلك/ابراهيم نصحى، تاريخ مصر في عصر *البطالمة، الطبعة الثانية* ١٩٦٠، ص ص ١٤٠ - ١٤٣ .

(٦) كان الجيش البطلمي يتكون من ثلاث فرق رئيسية أو ثلاث فئات عرقية هى : *القوات المقدونية* والقوات المرتزقة والقوات المصرية، راجع/مصادر معلوماتنا عن ذلك عند Polybius, A, 65.9 ; 79.2 ; 82.6, p. Petric, II 31. a ; IIII 53, وكذلك فى *الوثائق البردية* عند/ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر في عصر البطالمة ، جـ١ ، ص ص ٣٣٤ - ٣٥٩ ، وجاء عند ديودوروس (Diodorus) الصقلى (78.14.1) أن *بطلميوس الأول* وجد مصر غنية عندما جاءها في عام ٣٢٣ ق. م. مما يسر عليه إنفاق ٨٠٠٠ (ثمانية آلاف تالنت) في شراء خدمات جنود مرتزقة لجيشه وتجهيزه .

(٧) ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عصر *البطالمة* ، جـ١ ، ط٢ (١٩٦٠) ص ١٧٢ .

(٨) ديودوروس ، الكتاب XXVIII ، الفصل ١٤ .

(٩) كان بطلميوس الخامس (الظاهر Epiphanes) يبلغ من العمر ١٤ عاماً عندما تُوِّج ملكاً سنة ١٩٧ ق. م.

السياسة البطلمية والتى يمكننا أن نصفها بأنها بداية مرحلة جديدة فى تاريخ العلاقة بين المملكة البطلمية فى مصر وروما الصاعدة الناهضة القوية والتى أجبرت سوريا على الخروج من الممالك الشرقية فى اليونان ولاسيما بعد هزيمة أنطيوخوس فى ماجنيسيا عام ١٨٩ ق. م. هنا لم تجد مصر البطلمية من بد من الارتماء فى أحضان روما ، بدليل ما يلى :

أ - بعثة بطلمية إلى روما عام ١٩٢ ق. م. لتقديم مساعدة مالية كبيرة إلى الرومان ليستمروا فى طرد أنطيوخوس من بلاد الإغريق (١٠) .

ب - بعثة أخرى إلى روما ، عام ١٩١ ق. م. ، لتقديم التهانى إلى رجالات السناتوس الرومان ، للانتصارات الحربية الرومانية المتكررة ضد أنطيوخوس ، وعرضت تقديم أى شئ لاستكمال طرد الملك السورى من اليونان(١١) .

وكانت معاهدة أباميا (Apamea) (١٢) بين الطرفين المتحاربين عام (١٨٨) بمثابة صفعة قوية على وجه السياسة البطلمية الخارجية إزاء روما وخيبة كبيرة للحسابات السياسية للقصر البطلمى ، إذ لم تخرج مصر بأى مكسب من وراء تأييدها الدائم والمستمر لروما فى حربها مع أنطيوخوس وفعلاً خابت ظنونها . وصدق الاستاذ الدكتور/ابراهيم نصحي عندما قال (١٣) :

«أما مصر فإنها لم تجن من وراء سياستها إلا الخزي والعار فهى لم تسترد شيئاً من ممتلكاتها المنهوبة ولم يتبق لها من امبراطوريتها إلا قبرص وبرقة» .

وهكذا دفعت مصر البطلمية الثمن غالياً من جراء الاعتماد على سياسات الأوصياء على العرض الملكى الذين تأرجحت سياساتهم الخارجية تجاه الشرق والغرب تبعاً لأهوائهم ومصالحهم مع هؤلاء أولئك .

وهكذا ، مع مطلع القرن الثانى ق. م. وكانت هناك تيارات سياسية عديدة واشتباكات حربية كثيرة ومتقطعة فى منطقة حوض البحر المتوسط ، حيث كانت روما طرفها الدائم فى كل مرة . فتارة ضد أنطيوخوس فى سوريا وتارة أخرى ضد

(١٠) راجع شروط المعاهدة وتقسيم ممتلكات سليوكس المنهزم من رودوس . وجاء ذلك عند كل من Diod 29, 10;36, 55056; Polyb.

(١١) ورفضت روما ذلك العرض كذلك : Livius, XXXVII, 3.

(١٢) ولكن روما رفضت تلك المساعدة : Livius, XXXVI, 4.

(١٣) المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

فيليب المقدونى اللذان كان يسببان لروما قلقاً دائماً واضحاً وفى عدة أماكن . وخرجت روما ، من كل ذلك منتصرة وأملت شروطها على الجميع شرقاً كان أم غرباً .

وحاول البيت البطلمى أن يتخذ سياسة خارجية أكثر ثباتاً وليس بالتعبية لروما فقرر السير على سياسة مستقلة عن روما ، وفى عام ١٨٥ أو ١٨٣ ق. م. تم عقد معاهدة تحالف بين مصر البطلمية وبين العصبة الآخية فى اليونان ، والتى كانت حليفة غير مطيعة لروما آنذاك ولكن ، موت إبيفانيس ، الملك الظاهر ، عام ١٨٠ ق. م. قضى على هذا التوجه الجديد فى السياسة الخارجية التى كانت تستهدف ، ضمن ما استهدف اليه أيضاً ، إظهار البطالمة بالدفاع والمساندة فى صف الحريات الأغريقية ، ضد روما المتعجرفة . وهكذا لم تحتج روما ولم تضطر لاستخدام القوة لإجبار مصر على أن تدرك حجمها وإمكانيات جيوشها ، وأنها أى روما – هى الألف والياء فى مسألة الحرية الإغريقية وليس الملوك البطالمة الضعاف ولا داعى للطنطنة الكاذبة (١٤) .

ولعلنا ، بعد ذلك العرض السريع ، نستطيع أن نوجز فى عدة نقاط محددة مراحل تطور علاقة مصر بروما طيلة الثلاثة قرون ، التى حكم فيها الملوك البطالمة مصر القديمة .

(١٤) لم تلبث الخلافات أن دبت بين اركان الأسرة البطلمية الحاكمة في عام ١٦٤ ق. م. ولجأ أحدهم وهو الملك فيلوميتور إلي روما لنصرته ضد أخيه يوإرجيتيس الثاني ، وتستغل روما النزاع لنفسها عام ١٦٣ وقسمت المملكة بين الأخوين .

مراحل تطور علاقة مصر البطلمية بروما

ليس بالمستحيل أو الصعب على الدارس المدقق أن يميز ثلاثة مراحل واضحة فى مشوار تطور تلك العلاقة التى كان الرومان هم الجانب الفيصل فى شكلها ، وحجمها ، وزمانها (١٥).

المرحلة الأولى :

ويمكننا أن نسميها مرحلة «توازن القوى» أو «الند للند» ، وهى تلك التى تعاصر فترة ازدهار وقوة مصر البطلمية ، داخلياً وخارجياً ، إبان حكم الملك بطلميوس الثانى (المحب لأخته (١٦) : Philadelphos) (٢٨٢ – ٢٤٦ ق. م)(١٧)، واستمرار ذلك حتى عام ٢٠٤ ق. م. أى حتى نهاية حكم بطلميوس الرابع ، أو إن شئت أكثر دقة فلنقل حتى موقعة رفح (٢١٧/٢١٦ ق. م.) ذلك لأن الأمور تغيرت جذرياً بعد ذلك مباشرة ، ولا سيما على صعيد السياسة الخارجية لمصر البطلمية .

ولقد أوجز الدكتور/إبراهيم نصحى العوامل التى أثرت فى تحديد سياسة مصر البطلمية الخارجية فى الفترة الواقعة بين ٢١٦ وحتى ٣٠ ق. م. ، أى فى الشطر الثانى من تاريخ مملكة البطالمة فى مصر ، وذكرها كالتالى :

١ – الروح المعنوية العالية للمصريين ، أهل البلاد ، بعد انتصارهم فى رفح، واثبات كفاءتهم العسكرية وقدرتهم على الدفاع عن أرضهم وترابهم الوطنى . مما أسفر عن ثقة كبيرة بالنفس ، وبالتالى طالبوا بالمزيد من الحقوق التى كانوا محرومين منها قبل ذلك ، وقاموا بثورات محلية .

٢ – ظهور روح التنافس والنزاع الدائم بين أفراد الأسرة الحاكمة على الانفراد بكرسى العرش ، مما أضعف الدولة .

٣ – ظهور قوة روما فى حوض البحر المتوسط ، وكانت مصر البطلمية ، هى الدولة الهيللينستية الوحيدة التى أنشأت علاقات رسمية مع روما الناهضة ،

---

(١٥) راجع د. آمال الروبي ، مصر في عصر الرومان ، القاهرة ١٩٨٠-١٩٨١م ، ص ص ١٦ – ١٧ وكذلك راجع / Bell, H. Skeat, J. E. A., XXI (1935) p. 263

(١٦) هو لقب شاع استخدام المؤرخين له للدلالة علي هذا الملك ولكنه لم يستخدمه أبداً طيلة حياته، لأنه كان يطلق علي أخته وزوجته (أرسينوي Arsinoe) .

(١٧) هو تاريخ انفراده بالحكم ووفاته ، أنظر/ابراهيم نصحى، المرجع السابق ، ص ٩٣ .

وعقدت معها معاهدة عام ٢٧٣ ق . م . على أثر سفارات وبعثات من الجانبين ، وذلك كتقدير سليم ، من قبل الدولتين ، للظروف الدولية آنذاك ، ومستقبل المنطقة الذى كان يفرض علي القوى العظمى أن تحسب حساباتها بدقة . إن توقيع مثل هذه الاتفاقية ليؤكد بعْد نظر واضعى السياسة البطلمية آنذاك ، كما يؤكد على السياسة العملية لقادة روما الأول .

ذلك لأنه ، هنا ، لا يهمنا كثيراً معرفة من الذى بدأ أولاً فى إرسال سفارته، أكان البطالمة أم الرومان ، وإن كانت الدلائل الأخرى والقرائن الأثرية التى تم الكشف عنها فى أماكن متفرقة ، سواء فى مصر أم فى إيطاليا ، لتؤكد حاجة روما الأكثر لمصر ، وليس حاجة مصر لروما ، فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ مملكة البطالمة على أرض مصر .

ومع ذلك ، ليس من المستبعد ، ولا سيما أننا لا نملك دليلاً اثرياً قاطعاً حتى يومنا هذا ، أن يكون بطلميوس الثانى هو الذى كان قد أرسل السفارة الأولى ، مستهدفاً تكوين حلف سياسى عسكرى مع روما الناهضة ولكنه ، على الأرجح ، أن روما كانت هى التى أوفدت سفارة بهدف الاستفادة الفعلية من خيرات مصر وإمكانياتها الكبيرة ، ولذلك غلب على مطالبها الطابع الاقتصادى ، كما يقرر ذلك بعض المؤرخين(١٨) .

ويوجز أستاذنا الدكتور/ عبد اللطيف أحمد على وجهات النظر المختلفة حول هذا الموضوع فيقول :

«ولا يزال الغرض الحقيقى لتبادل هذه السفارات مثار خلاف بين الباحثين: إذ يرى فريق منهم أنها كانت ترمى إلى تدعيم أواصر الصداقة بين بلدين ، أحدهما بدأ نجمه يصعد فى الأفق الدولى ، بينما اشتهر الآخر بأنه أغنى مستودع للقمح فى العالم الهيلليستى . وفى رأى فريق آخر ، أنها كانت ترمى إلى تنمية العلاقات التجارية بين مصر والجمهورية الرومانية . وثمة فريق ثالث يذهب إلى أن القصد منها كان عقد محالفة سياسية بين الدولتين(١٩)» .

وهكذا فإن الهدف من تبادل السفارات هذا ، فى أول إتصال فعلى بين مصر

---

(١٨) المرجع السابق ، ص ص ١٤٤ - ١٤٦ .

(١٩) استعرض أستاذنا العظيم ، أ. د. عبد اللطيف أحمد علي يرحمه الله ، الأدلة الأثرية ولا سيما البردية منها باستفاضة تامة فى كتابه : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ص ١ - ٢٠ .

البطلمية وروما الجمهورية ، إنما يمكن أن ينحصر فى ثلاثة إحتمالات :

(١) إما لتدعيم أواصر الود والصداقة .

(٢) وإما لعقد صفقات تجارية .

(٣) وإما لقيام تحالف سياسى (عسكرى) .

ونحن لا نميل ، فى رأينا ، إلى تغليب أحد هذه الاحتمالات على الآخر ، ونعتقد بأن الغرض الأساسى والرئيسى لتلك السفارات هو قيام تحالف سياسى عسكرى وإن أخذ مقدمات إقتصادية التفاصيل ، ولا سيما إذا عرفنا ظروف مصر البطلمية آنذاك ودخولها حروباً طويلة مع السليوكيين دفاعاً عن «جوف سوريا» (Koile Syria) ، وهى الحروب التى عرفت بأسم «الحروب السورية» منذ أن استولى عليها بطلميوس الأول (المنقذ : Soter) عام ٣١٩ - ٣١٨ ق. م. ، وضمها إلى أملاكه الخارجية ، وبصفة خاصة بعد أن احتدمت المشكلة السورية عام ٣٠١ ق. م. وحرم الحلفاء بطلميوس من جوف سوريا وأصبح من نصيب سليوكس . عندها آل خلفاء بطلميوس الأول على أنفسهم ضرورة ضم جوف سوريا إلى ممتلكاتهم بالقوة أو بأى وسيلة ممكنة ، إذا لم يجدوا للقوة سبيلاً . ولهذا نجد بطلميوس الثانى يقوم بحروبه ، الواحدة تلو الأخرى لانتزاع ذلك المكان الهام من بين اسنان آل سليوكس، فقامت الحرب السورية الأولى عام ٢٧٥ ق. م. واستولت الحملة البطلمية على دمشق وقامت الحرب السورية الثانية ، عام ٢٦١ ق. م. فى غرب آسيا الصغرى فيها أنطيوخوس الثانى واستقطع لنفسه تلك الأراضى وخلص أهلها من حكامها الطغاة (Tyranoi) حتى لقبه مواطنوها بلقب إله (Theos) (٢٠) .

ولم تفلح محاولة بطلميوس الثانى بأن زوّج ابنته برينيكى (Berenike) للملك السورى السليوكى، أنطيوخوس الثانى ، فى زيجة سياسية الهدف عام ٢٥٣ ق. م.(٢١) ، حتى يوقف العداء المستحكم بين الدولتين الجارتين ، ولكن ذلك الزواج جر على مصر البطلمية متاعب كثيرة فيما بعد ، بسبب قوة تأثير وسلطان الزوجة السورية فى قيام حرب سورية ثالثة بين مصر البطلمية وتلك المملكة الشمالية عام ٢٤٥ ق. م. على أثر مقتل برينيكى وطفلها ، وقام بها بطلميوس الثالث ، يوراجيتيس (Euergetes) إنتقاماً - ربما - لأخته التى أهدر السوريون دمها وأعدموها .

(٢٠) المرجع نفسه ، ص ٢ .

(21) Appianus, Syriace, 65 .

هكذا تتضح العداوة المستحكمة بين حكام مصر البطلمية وحكام سوريا السليوكيين ، والذين ، ربما كانوا هكذا (وبسبب طموحاتهم فى مملكة البطالمة وأملاكها) هم وراء حرص بطلميوس الثانى ، عام ٢٧٣ ق . م. لعقد تحالف مع روما ، عسى أن ينفعه ذلك عند الضرورة إذ أنه ظلال الحرب السورية الأولى (عام ٢٧٥ ق . م.) لم تكن قد انقشعت بعد ، أو أن الرؤية البطلمية السليمة للمستقبل القريب فى تلك المنطقة ، لم تكن تحدوها الآمال الوردية ، بل رأته فى الأفق غيوم وسحب ، وكان عليها أن تستعد لها بكل السبل الممكنة ، ومنها ما أقدمت عليه بالفعل وهو عقد تحالف مع روما .

ويبدو أن الوضع السياسى والعسكرى فى المنطقة كلها كان قد فرض على الإدارة البطلمية فى مصر تفكيراً مستقبلياً وفقاً لمفهوم السياسة الشائع فى تلك العصور ، وكان طبيعياً ، عندئذ الإقدام على عمل «تربيطات» احتياطية ضد غدر الزمان وتقلب الأيام .

وفى دراسة قصيرة ، لكنها مركزة جداً ، عن علاقات مصر البطلمية بروما فى القرن الثالث ق . م . أوضح صاحبها العلامة نيتبى (Neatby) مدى الارتباط الوثيق بين ظهور أول عملة رومانية فضية ، عام ٢٦٩ ق . م . ، وتاريخ سفارة روما إلى مصر عام ٢٧٣ ق . م . ، ولا سيما أن القنصلين اللذين أصدراها ، كان لأحدهما أخ عضو فى سفارة روما إلى البيت البطلمى الحاكم فى مصر فى ذلك العام (٢٧٣ ق . م.) . كما أكد الأستاذ الدكتور/ عبد اللطيف أحمد على ، فى تعليقه على هذا العمل [٢٢] ، على مدى التأثير البطلمى الواضح فى صناعة العملة ، وتدهورها كذلك ، على أوضاع وقيمة العملة الرومانية وتأثرها بالظروف ذاتها .

المرحلة الثانيـة :

وهى تلك يمكن أن نسميها «بداية التدخل الرومانى فى شئون مصر البطلمية» أو «بداية الوصاية الرومانية» ذلك لأنه مع مطلع عام ٢٠٠ ق . م . ، انتشرت شائعة حول قيام تحالف عسكرى بين فيليب المقدونى وأنطيوخوس الثالث مما أزعج الدويلات الصغيرة والممالك الكبيرة على السواء ، خوفاً من مثل هذا التحالف القوى .

(٢٢) ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص ص ١١٥ – ١١٧ .

يقول أبيانوس (٢٣) فى هذا الخصوص ما يلى :

«وكان هناك كلام حول قيام معاهدة تحالف(٢٤) بين فيليب الخامس وأنطيوخوس الثالث (Antiochus) ، الملك السورى ، حيث سيتولى فيليب – من ناحية – القيام بحملة ضد مصر وقبرص اللتان كان يحكمها ، عندئذ ، بطلميوس الرابع الذى كان لا يزال طفلاً ، وكان يدعى فيلوباتور (Philopator) بينما سيقوم أنطيوخوس – من ناحية أخرى – بمساعدة فيليب فى الاستيلاء على ضم قوريني (Kyrene) ، وجزر الكيكلاذيس (Kyklades) وإقليم ايونيا (Ionia)» .

وبسبب تلك الاشاعة ، أو ربما قل ذلك الخبر الذى لا يمكننا التثبت من وقوعه أو حتى رفضه كلية ، شهد حوض البحر المتوسط نشاطاً غير عادى ، وهرجاً سياسياً تحسباً لتلك الخطوة الخطيرة التى جمعت قوتين من أعظم القوى العسكرية فى المنطقة فى شكل تحالف واحد ، فتحركت الوفود والبعثات قاصدة روما ، المعادل الغربى الوحيد لتلك القوى الشرير فى الشرق (!!!) .

ويصف أبيانوس الوضع القائم فى المنطقة على إثر ذلك قائلاً :

«وقد تظلم أهل رودوس (Podos) إلى الرومان من ذلك الاتفاق(٢٥) ، الذى هز (أربك) كل الناس ،....كما أرسل الرومان السفارات إلى الملوك ، آمرين إياهم بأن يمنعوا أنطيوخوس من غزو مصر ...؟؟

وهنا ندرك ، أساليب روما آنذاك لحل المشكلات التى تكون هى طرفاً فيها ، ويتأكد لنا :

(١) الثقة الزائدة بالنفس لدى الرومان حيث يكتفون بإرسال سفارات فقط وليس اللجوء إلى الجيوش .

(٢) حتى اليونان ، الأعداء التقليديين للرومان ، لم يجدوا غير روما ، منقذاً لهم من أطماع القوى المقدونية الطاغية ، مما يؤكد على التواجد الرومانى المستمر ، فى المنطقة ، وقدرتها على النعل ، ولو سياسياً فقط .

(٢٣) المرجع السابق ، ص ص ٢-٣ .

(٢٤) يذكر أبيانوس (Appianus) فى تاريخه عن الحروب السورية ، «وانتقم بطلميوس ، بن فيلادلفوس ، لهذه الجرائم ، فقتل لاوديكى ، وغزا سوريا وتقدم حتى وصل إلى بابل» .

(٢٥) وقع المؤرخ فى خطأ المسميات الكثيرة للملوك البطالمة ، فالأصوب أن بطلميوس المقصود كان هو الخامس ، وليس الرابع ، وهو المعروف باسم "الظاهر : Epiphanes" .

(26) App. Syr.,

Status Aegypti in Imperio Romano

الفصل الثانى

وضع مصر كولاية رومانية

يقول مايكل جرانت (Michael Grant)

"The battle of Actium had not been a very spectacular engagement in itself, since the strategic issue had already been settled elsewhere.(1)" .

أى أن معركة أكتيوم(٢) ، عام ٣٠ ق. م، لم تكن إلتحاماً أو معركة حربية من نوع خاص ، فى حد ذاتها ، لأن الوضع الاستراتيجى فى منطقة حوض البحر المتوسط(٣) (بالنسبة لغلبة الرومان وتفوقهم وسيادتهم على كل دولة) كان قد تحدد بالفعل فى مكان آخر والمقصود بذلك هزيمة قرطاجة وتدميرها فى عام ١٤٦ ق.م. على أيدى الرومان كآخر قوة أجنبية مناوئة للرومان فى العالم القديم ، واستيلاء الجيوش الرومانية على ولايات خارجية عديدة (provinciae) سواء فى شرق أو غرب ، أو شمال أو جنوب هذا البحر المتوسط (٤) ، الذى سموه - والحق معهم - بحرنا : (Mare Nostrum):

(1) History of Rome, London - Boston 1977, p. 202.

(٢) هذا المكان يقع إلى الغرب من اليونان ، على الساحل الغربى من إقليم (Epirus) ويسمى (AKTION) أى الساحل ، وبالتالى فإن الأصوب أن نقول (أكتيون) .

(٣) من الأخطاء الشائعة تسمية هذا البحر بالأبيض ، فليس هناك أية تسمية له بهذا المعنى طيلة العصور القديمة بل أن صفة المتوسط هى الدائمة له (Mare Interum) أى البحر الداخلى «المتوسط».

(٤) حول الفتوحات الرومانية الخارجية بالتفصيل ، راجع :

إبراهيم نصحى ، تاريخ الرومان ، الجزء الثانى ، منشورات الجامعة الليبية ١٩٧٣ ، ص ١٦٣ - ٢٢٢ ، ٢٩٣ - ٣١٣ ، ٤٣٥ - ٤٥٧ . وكذلك صفحات ٤٥٧٣ - ٦١٥ .

أما العالمان A. R. Book, W: G. Sinnigen فى كتابيهما

A History of Rome to A. D. 565, (Sixth edition), New York 1977, pp. 96. 132 فقد أفردا بابا عن تلك الفتوحات ، هو الباب الثامن (Chapter 8) بعنوان : Conquest of the Mediteranean 146- 264 . ولكن حوليات المؤرخين الرومان هى أفضل ما يقرأ عن أحداث تلك الفتوحات ولا سيما حوليات تاكيتوس (٥٦ - ١٢٠) (؟) ميلادية عن روما الإمبراطورية وهناك ترجمة إنجليزية فى طبعة (Penguin Classics) بعنوان : Tacitus The Annals & Imperial Rome, Great Britain.

وبالرغم من ذلك فقد مَجّدها الكتاب الرومان وراحوا يتبارون فى إظهار تَشَفيهم وغِلّهم فى الملكة البطلمية على مصر ، كليوباترا السابعة حتى أنهم تطاولوا عليها كثيراً ووصفوها بأقذع الصفات والألفاظ(٥) .

إن معركة أكتيون كانت ذات نتائج خطيرة على مستوى الأوضاع السياسية الرومانية ، سواء فى روما ذاتها ، أو فى الشرق كله كما أن بصماتها تركت آثارها على مستقبل شكل الزعامات أوكتافيانوس أوجوستوس(٦)(Augustus) .

والأخطر من كل ذلك ، هو هزيمة كليوباترا فى اكتوين التى عصفت بآمال وطموحات آخر محاولة شرقية لتسيير دفة العالم القديم تحت زعامة شرقية ، وبالتالى فقد أسلمت القياد للغرب ، ممثلا فى روما وقادتها ، ولذلك لعدة قرون تلت(٧) .

كلنا يعرف كيف كان العنصر اليونانى متمركزاً فى الإسكندرية التى كانت عاصمة للحكم البطلمى وكيف لعب اليونانيون دوراً أساسياً فى تطور الأحداث وشكل الحياة وأساليبها داخل حدود ذلك المجتمع السكندرى ، الذى اصطبغ بصبغة يونانية خالصة ، وبالرغم من تواجد عناصر سكانية أخرى ، كاليهود مثلاً . ولكن كان لمواقف يونانى الاسكندرية من تصرفات الملوك البطالمة الضعفاء إزاء وصاية روما المستمرة على عرش مصر آنذاك ، وثورتهم ضد كل ما هو رومانى أو له

---

(٥) كان الشاعر بروبرتيوس (Propertius) أكثر الشعراء اللاتين الذين سخروا من كليوباترا باحط الألفاظ مثل قولة (III, 11-29-30) : «ولماذا اتحدث عمن لطخت أسلحتنا بالخزى منذ قريب ، المرأة المبتذلة حتى بين خدمها « "quid, modo quae nostris opproblia vexerit:
armis et famuas inter femina trita suos,"

ووصلت شماتته إلى أقصاها ، فيقول .

«نعم قد اجترأت الملكة العاهرة ، ملكة كانوب الدنسة

"Scilicet incesti meretrix regina Canopi". «

الترجمة العربية هنا ، هى ترجمة أستاذنا الدكتور عبد اللطيف أحمد على ، فى كتابه ، مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٦٥. ص ٣٤ .

(٦) من الأفضل أن نصيغ لفظة "Augustus" كما تنطق فى اللاتينية وهكذا نتفادى الخلط بين لفظة (أغسطس) العربية التى نشير بها إلى الشهر الثامن من التقويم الافرنجى وبين لقب هذا القائد الفذ ، المبجل المعظم ، كما تعنى تلك الكلمة اللاتينية ذاتها .

(7) Grant, M., op. cit., p. 202

علاقة بروما(٨) ، رد فعل رومانى عنيف عقب احتلال مصر رسمياً عام ٣٠ ق.م.(٩) وإدخالها فى حظيرة أملاك الامبراطورية الرومانية ووضع مصر فى إطار خاص كولاية رومانية ، ليست ككل الولايات الرومانية الأخرى .

وهذا لابد لنا من وقفة تأمل وتمحيص لتلك الأسباب والدواعى التى حدت بزعماء روما المنتصرة أن يجعلوا مصر ولاية رومانية (Provincia) ولكن ذات وضع خاص وفريد فى الامبراطورية الرومانية المترامية الأطراف .

فلماذا يا ترى اتفق أوجوستوس والسناتوس (Senatus) على إتخاذ مصر ولاية تخضع للإمبراطور شخصياً ولا تتبع السناتوس كبقية الولايات الخارجية ؟

هل كانت تسوية عام ٢٧ ق. م، بين الطرفين السابقين ، تضع فى اعتبارها عوامل سياسية أم عسكرية استراتيجية أم اقتصادية ، حتى أنها فضلت هذا الوضع الجديد تماما(١٠) على أنظمة إدارة الولايات الرومانية الخارجية ؟

أولاً : يجب أن نقرر حقيقة تاريخية فرضت نفسها على أحداث ذلك الزمان ، وهى أن القائد أوجوستوس.أثبت كفاءة سياسية وبراعة فائقة ، يندر أن يجود بها الزمان ، وبصفة خاصة من رجل عسكرى . لقد كان داهية سياسية فى إدارة حلقات صراعه مع أنطيونيوس (Antonius) . وكان التاريخ القديم على موعد مع القدر ليسجل لنا صراع الذكاء أو الخداع بين الشرق والغرب ، أو أن شئت

---

(٨) نذكر – على سبيل المثال – موقف السكندريين من بطلميوس الخامس وكذلك موقفهم من كليوباترا ذاتها فى حربها ضد أخيها بطلميوس الثالث عشر ، نظرا لمسانده يوليوس قيصر لها .

(٩) تصرف أوجوستوس تصرفا دبلوماسيا ذكيا ، عندما منع جنوده من تخريب مدينة الاسكندرية كما صفح عن أهلها ، أوعز إلى كليوباترا بسوء المصير فانتحرت بعد انطونيوس وبذلك نفض يديه من تحمل وزر موتها ، ولكنه عندما زار قبر الاسكندر ، وبجل صاحبه وكرمه، رفض رفضا قاطعا أن يزور مقابر الملوك البطالمة ، قائلاً : «لقد تشوقت إلى أن أرى ملكا لا أمواتا» .

وكان فى ذلك إهانة لذكرى البطالمة وجرح لكبرياء السكندريين كما قال بذلك الدكتور عبد اللطيف أحمد على ، مصر والامبراطورية الرومانية ، ص٤٣ .

(١٠) سبق بومبى أوجوستوس فى تطبيق نظام الإدارة العسكرى للولايات الخارجية عن طريق إيفاد (Legati) قادة أوفياء له . وهذا ما فعله فى إسبانيا ولكن اثناء تواجده خارج العاصمة الرومانية روما أى "In absentia" أنظر : Grant, M., op. cit., p. 203 .

فقل : صراع فن الممكن ، بين أدهى شخصية شرقية آنذاك . وهى كليوباترا ، وأمكر شخصية غربية يمثلها أوجوستوس بكفاءة يحسد عليها .

ولكى نعرف بعض تفاصيل ذلك الصراع المرير ونوايا أصحابه نترك ديون كاسيوس(١١) يحكى لنا ما يلى (وذلك عقب الهزيمة العسكرية فى المعركة البحرية فى أكتيون، وهروب كل من كليوباترا وأنطونيوس ووصولهما إلى مدينة الاسكندرية حيث بدأ كل منهما استعداداته ، كل بوسائله الخاصة لإقناع أوكتاڤيانوس المنتصر الذى لحقهما فى الاسكندرية كذلك ، حتى يعفو عنهما) .

يقول كاسيوس : «.... وفى الوقت نفسه ، أرسلت كليوباترا من جانبها ، ودون علم أنطونيوس إلى قيصر(١٢) صولجانا ذهبياً وتاجا ذهبياً كذلك ، بالإضافة إلى كرسى العرش الملكى ، معلنة بذلك أنها متنازلة عن السلطة له ، وآملة فى أن يصفح عنها هى حتى ولو كان يكره الآخر أى أنطونيوس.»

ويكمل ديون كاسيوس روايته ، بعد أن تصدع التحالف بين كليوباترا وأنطونيوس وجاءت ساعة التفكير فى خلاص كل واحد لنفسه من براثن الموت المحقق على أيدى الفاتح المنتصر .

(١١) هو : ديوكاسيوس (Dio Cassius)

من مملكة بثنيا اليونانية الأصل وابن حاكم كيليكيا (Cilicia) . تولى منصب البرايتورية والقنصلية من عام ١٩٤م . التاريخ الرومانى الذى ألفه يعتبر كاملا فقط فى اجزائه من الكتاب ٣٦ إلى ٥٤ ، وتؤرخ للفترة من ٦٨ – ١٠ ق. م.) ظل ديون يجمع مادة تاريخه عشر سنوات واستغرق ١٢ عاما فى كتابته . أنظر Cary, E. Dio's Roman History, LI, 6. 6. (L.C. L.) Vol. VI, 1960

(١٢) والمقصود به أوجوستوس ، فلقبه «قيصر» (caesar, aris) – أطلق على كل الاباطرة الرومان فى الأسرة اليوليو كلاودية ومن بعدهم ، تيبنا بصاحب اللقب الأول وهو يوليوس قيصر ، أما اللفظة ذاتها فإنها تعنى – كما جاء عند بلينيوس (فقرة رقم ٤٧، ٧ – ٩) صاحب الشعر الأصفر إذا كان الاشتقاق من كلمة قايازوس : "Caesarus" أما إذا كان الاشتقاق من كلمة قيزيوس : "Caesius" فإن اللقب سيعنى صاحب لون جلد مميز ، لمزيد من التفاصيل والاشتقاقات أنظر : Lewis, ch. T. Short, ch., A Latin Dictionary, Oxford, 1975, P. 265.

وجدير بالذكر أن الاباطرة الرومان بعد اكتافيانوس كانوا يسمون ، أيضاً تيمنا بمؤسس الامبراطورية ، قيصر اوجستوس (Caesar Augustus) ولكن بعد الامبراطور هادريانوس (أى بعد عام ١٣٧م) أصبح هناك تمييز بين الامبراطور الحاكم الذى يحمل اللقبين السابقين ، بينما يلقب ولى العهد بلقب قيصر فقط .

ثم يضيف «قَبل قيصر الهدايا ، من ناحية ، كفألٍ حسن ، ولكن رده على أنطونيوس كان سلبيا وكان رده على كليوباترا من ناحية أخرى ، واضحاً ، وأرسل إليها تهديدات وأعلمها بأنها إذا استسلمت عسكريا، ونزلت عن عرش البلاد فإنه سيفكر فيما يجب أن يفعل بخصوصها ، كما أنه أرسل سراً إليها (يخبرها) إنها إذا قَتَلت أنطونيوس فإنه سوف يعفو عنها ، ولم يمس حكمها بسوء» .

وهكذا ندرك إنْ صَحّت رواية كاسيوس ، أن كليوباترا ظنّت فى البداية أن تنازلها واستسلامها السياسى عن كل رموز الحكم كاف : ولكن هذا التصرف الأولى لم يأتِ بفائدة ، فابلغها (كما فى الفقرة الثانية من النص) أكتافيوس بأن تستسلم عسكريا كذلك . ليس هذا فحسب ، بل تمادى هذا الملعون فى اللّعب بالملكة البطلمية المهزومة وأراد أن يبتزّها أكثر وأكثر وعرض عليها خيانة زوجها أنطونيوس والإقدام على قتله بيدها هى ، حتى يتخلص هو – أمام الشعب الرومانى– من جريمة الإجهاز على منافسه وعدم تلطيخ يديه بدمه .

إن أوكتافيانوس جاء إلى مصر وفى ذهنه هدف واضح محدد يمكن أن نعرفه ، أو على الأقل نخمنه ولاسيما فى ضوء ما عرفنا عنه فيما بعد ومن قبل ذلك كذلك .

لقد عمل هذا القائد الماكر بكل جهده على استغلال الفرصة المتاحة أمامه فى أن يتخلص من غريمة الأخير على الساحة السياسية والعسكرية فى روما ، فأخذ يتصيد له أخطاءه ويبرزها ويضخمها أمام السناتوس فى روما حتى كسب ثقة الشعب الرومانى وزعمائه السياسيين وأخذ موافقتهم فى القضاء على انطونيوس، ولهذا أراد أن يحقق ذلك سرا ، ودون مواجهة صريحة بينهما بعد هزيمة غريمة العسكرية فى أكتيون ، ولم يتورع فى أن يألب عليه بعشيقته ملكة مصر ، كليوباترا، وحاول فى نفس الوقت أن يقايضها على ذلك ، مما يعطى انطباعا بأن كان على استعداد أن يصفح عن كليوباترا إذا نجحت فى تنفيذ غرضه . ولكن ذلك لم يكن على الأرجح سوى حيلة ماكرة منه حتى يتخلص منهما الواحد تلو الآخر .

ولعل بقية رواية ديون كاسيوس تفصح عن تلك النوايا الخطيرة لهذا القائد الرومانى العظيم والسياسى البارع ، فلندعه يحكى لنا تطورات الأحداث .

يقول ديون[١٣] : (ولما سمع أنطونيوس وكليوباترا ما نقله سفراء قيصر إليهما ، أرسلا إليه فى الحال . فبينما وعدته هى أن تعطيه مالا كثيراً ، نجد أنطونيوس ، من جانبه ، يذكره بصداقته وقرابته ، ويضيف على ذلك تبريره (دفاعه) عن ارتباطه بالمرأة المصرية ، ويعدد له ما كانا يفعلانه سوياً ، يوما ما ، وما كان يسعدها معا فى شبابهما . وأخيراً فقد سلم أنطونيوس إلى قيصر پوبليوس تورو لليوس (Publius Turullius) الذى كان عضواً بمجلس الشيوخ ، وواحداً من الذين قتلوا (يوليوس) قيصر ، وكان عندئذ يرافق أنطونيوس كصديق . وقد عرض أنطونيوس على قيصر (أوكتاڤيانوس) أن يقتل نفسه ، إذا كان ذلك سينقذ كليوباترا . ولكن قيصر ، من ناحية ، قتل تورولليوس ، ولم يرد ، من ناحية أخرى ، على أنطونيوس ولذلك أرسل أنطونيوس إلى قيصر سفارة ثالثة ، على رأسها ابنه أنتيللوس (Antyllus) حاملا ذهباً كثيراً ، قبل قيصر الذهب ، ولكنه أعاد الغلام صفر اليدين ، ولم يعطه أية إجابة» .

أما بالنسبة لكليوباترا ، فإنه فى المرة الأول وكذلك الثانية والثالثة أرسل إليها تهديداته مصحوبة بوعوده[١٤] .

يستطرد ديون فى توضيح موقف أوكتافيانوس بعد كل هذه المحاولات اليائسة من جانب كليوباترا وأنطونيوس ، وإصرار القائد الرومانى المنتصر على موقفه منهما ، ومجموعة الخيارات التي كان يفكر فيها عندئذ . فإن قيصر بن قيصر ، الفاتح الجديد لمصر ، كان يخشى ، إلى حد ما ، أن يدخل اليأس إلى قلبى كل من عدويه وبالتالى يوقفان محاولاتهما لاقناعه . كما كان أمامه أن يستمر فى قبول سفاراتهما فيؤكد بذلك تفوقه وانتصاره عليهما ، إلا أنه كان يخشى أن يضيع عدواه ويستنزفا كل ثرواتهما ، التى لطالما سمع عنها بأنها ضخمة جداً. وقد نال منها قدراً لا بأس به من خلال هدايا كليوباترا وأنطونيوس إليه طالباً للصفح . هنا وفى جملة اعتراضية يضيف المؤرخ إلى معلوماتنا أن كليوباترا كانت قد جمعت

---

(١٣) فقرة ٨ ، ١

(١٤) يستخدم المؤرخ ديون هنا فعلين ، دون أن يوضح ما هى هذه التهديدات ولا الوعود .

كل ثرواتها ووضعتها داخل مقبرتها الملكية ، وهددت بإحراقها جميعها إذا لم يوافق قيصر على أقل القليل من مطالبها(١٥).

عندئذ ، يعيد قيصر خططه ويقلب أفكاره على كل الوجوه وهداه تفكيره الماكر إلى حيلة مؤكدة فى رأى كاسيوس وهى التظاهر بحب كليوباترا ، فأرسل إليها يخبرها بذلك ، حتى يرضى غرورها كامرأة مرغوبة من الجميع . وهكذا يستطيع أن يبعدها عن أنطونيوس من ناحية ، وأن يضمن بألا لا تمس ثرواتها من ناحية أخرى . أى أنه هكذا ضرب عصفورين بحجر واحد ، وهذا ما حدث عند هذا الحد من تفاصيل دراما نهاية أخر ملكة بطلمية على مصر . ونقف عند هذا القدر من الأحداث لا تهمنا قياسا بهدفنا من موضوعنا لكننا يجب علينا أن ندقق النظر فى موقف أوكتافيانوس الانتهازى الاستغلالى الذى حاول قدر إمكانه الخروج من هذا الصراع بينه وبين عدويه وقد فاز بكل ثرواتهما بعد أن أذلهما وفرق بينهما بالخداع والحيلة ، ونفذ هو ما أراد .

لقد كانت ثروات مصر فى يد كليوباترا وحاشيتها وقصرها ، ورسم أوكتافيانوس خططه للفوز بها كلها . وصدق قول ديون : « **ولطالما سمع عنها بأنها ثروة ضخمة جداً** » وإلا لما تأخر أوكتافيانوس فى مصر حوالى عام كامل لينهى مهمته خير نهاية ، كما وضع خيوطها عقب الفتح . إن الباعث على إحتلال مصر عسكريا ورسميا فى عام ٣٠ق. م، (وقد تأخر هذا الاحتلال كثيراً ، بسبب انعدام توافر أسباب قوية لاتمامه آنذاك ، منذ أوائل القرن الثانى ق. م. ، ووصول الهدايا الرومانية من أرض مصر وملوك مصر حتى كان التدخل السافر الأول من جانب روما لحماية مصر من أطماع أنطيوخوس الرابع عام ١٦٨ ق. م. ولم يزد هذا التدخل عن إرسال بعثة أو سفارة تهديد ، وهى السفارة المعروفة بما قامت به (دائرة بوبيليوس) التى غدت رمزاً لمهانة ملوك الشرق القديم جميعاً أمام قوة وجبروت رجالات روما) لم يكن لاهمية مصر الاستراتيجى ، آنذاك بل طمعا فى

(15) Idem, 8-6 .

فى أحدث دراسة أجنبية ، يحاول فيها صاحبها الدفاع عن كليوباترا ، ومحاولاتها إلى جانب أنطونيوس وكيف أن الأخير هو الذى وجد فيها سندا قويا لتحقيق أطماعه ، أنظر Bianchi, R. S. "Cleopatra the Great" Egypt then and Now, vol. II, Nr. 4 (1985), pp. 20-22.

بالرغم من أن تلك المقالة الصغيرة هى بحث أثرى أكثر منه دراسة عميقة كاملة الأسانيد .

ثروات هذا البلد الغنى وضمانا للاستئثار بها .

إذن ، لقد كان الموقف الاستراتيجى قد تحدد منذ زمن بعيد لصالح روما ولم يكن لمصر أو الشرق كله من أهمية عسكرية لروما تجعلها تستعجل هذا الاحتلال . فضلا عما لحق بالمجتمع الرومانى طيلة النصف الأول من القرن الأول ق. م. من صراعات إجتماعية واختلافات وانتكاسات زعماء وتحالف آخرين وصراع سياسى بين أولئك جميعا وبين رجالات مجلس الشيوخ «السناتوس» (Senatus) الناتوس وتقارب بعض الزعامات منهم ومعارضة البعض الآخر .. كل ذلك ادى إلى عدم استقرار الأوضاع الداخلية إلى أن جاء يوليوس قيصر ولم يحمله إلى الوصول إلى مصر الا اقتفاء لأثر پومپى [١٦] غريمه ومنافسه .. ومع أوكتافيانوس تتكرر القصة، ولم يحمله على الوصول إلى مصر إلا للقضاء النهائى على غريمه الأخير ومنافسه على السلطة فى روما وهو أنطونيوس .. أى أن احتلال مصر وضمها رسميا إلى أملاك الشعب الرومانى ، أولاً ، ثم جعلها ضيعة من ضياع الامبراطور وكونها ولاية ذات وضع دستورى فريد تتبع أوجوستوس مباشرة ثانياً ، فيما بعد عام ٣٠ ق. م. **لم يكن إلا استكمالا لواقع جديد فى مشوار آخر للقائد الرومانى الكبير اكتافيانوس، لتصفية حسابات بين أصدقاء الأمس [١٧] .**

كان أوجوستوس حريصا (بما لديه من معلومات كافية عن ثروات مصر فقد رأى ذلك بعينيه) أن يضم مصر إلى أملاكه الخاصة فى تسوية عام ٢٧ ق. م. فأهداه السناتوس مصر إلى جانب سوريا وإسبانيا وجاليا ، لتكون إدارة كل تلك الولايات تحت سيطرته الشخصية ، فيتولى أمورها حكام يعينهم هو بنفسه . كانوا

---

(١٦) فى دراسة حديثة لشخصية وأعمال بومبى (Pompeius) قام بها John Leach بعنوان : Pompey the Great, Londeon أفرد هذا المؤلف فصلا طويلا (pp. 78 - 101) عن مقالة بومبى بالشرق وفتوحاته به بأسم : "The Conquerer of the East" «هازم الشرق» ، وذلك فى الفترة من عام ٦٦ إلى ٦٢ ق. م. وكذلك محاولاته لتكوين امبراطورية جديدة مترامية الاطراف فى هذا الجزء من العالم. وعن دور بومبى فى المسألة المصرية ودور رفقاء السلاح إلى جانبه فيقول (Leach)

"Pompey's followers in Rome may have been influenced more by Ptolemy's gold than by their leader's wishes. " p. 13

(١٧) كان أوكتافيانوس وأنطونيوس رفقاء سلاح فى موقعة فيليبى (Philippi) فى مقدونيا عام ٤٢ ق. م. ضد قتلة يوليوس قيصر ، بروتوس (Brutus) وحليفه فى مؤامرته ، وكاسيوس (Cassius) وكان انطونيوس عندئذ هو المنتصر الرئيسى فى معركتين إثنتين .

قـادة عـسكريين حـربيين (Legati) يُسَـمّى الواحـد منهم برايفكتـوس (Praefectus)(١٨) .

وكـان مـايكل جـرانت (١٩) محقا حينما وصـف مصـر ووضعـها الجديد تحـت حـكم الرومـان بأنهـا كـانت : (personal domain) وكـذلك :

(Major but peculiar new province)

ويؤكد آخرون على نفس المعنى قائلين :

(Although Augustus incorporated Egypt, as a province it occupied a peculiar status within his imperium and was kept more directly under his control than other provinces (20)) .

فقد كانت مصر – بالرغم من إنضمامها إلى أملاك الامبراطورية الرومانية فى عام ٣٠ ق. م. على يد أوجوستوس ، إلا أنها كانت تحتل مكانة فريدة وخاصة داخل السلطة المطلقة للحاكم الفرد (Princeps) فى النظام الجـديد الذى وضع اساسه وارسـى دعـائمه ذلك الداهية والدبلوماسى العظيم أوجوستوس منذ تسوية عـام ٢٧ ق. م. مع السـناتوس بفضل كـونه المنتـصر الأوحـد على السـاحـة السياسية فى رومـا ، فأملى شروطه ولكن بحذر شديد متتبعا سياسة حكيمة تؤمن بالتدرج فى تثبيت أركان حكمه بالطريقة التى يرضاها وفى الوقت الذى يختاره. لقد وقع اخـتياره على مصر لتكون ضمن أمـلاكه الخاصة ويدير شئونها بنفسه.

هنا تجدر الاشارة إلى ما سبق ، وكيف تأكدنا من أن السبب الرئيسى لهذا النظام الجـديد فى إدارة مـصـر تحت الحكم الرومـانى أنما يرجع إلى ثرائهـا الاقتصادى ، بالدرجة الأولى(٢١) .

---

(١٨) بينما كان حكام الولايات السناتورية ، أى التى يحكمها ولاة من قبل السناتوس الروماني، فكان كل واحـد منهم يدعى بروقنصل (Proconsul) حـتى لو كـان من الطبـقـة البرايتورية (Praetores) وكان يساعد البروقنصل فى حكم الولاية السناتورية كوايستور (Quaestor) أى تقريباً : أمين الخزانة = وزير مالية + ثلاثة من القادة (Liga ti) العسكرين الذين يصدق على تعيينهم الامبراطور (الأمير : Princeps) .

(19) Op. cit., p. 203.

(20) Sinnigen, W. - Boak, A., A History of Rome to A. D. 565, London 1977, p. 349.

(21) Ibidem, "this was primarily becuse of its wealth and impotrance for the grain supply of Rome. "

وتتضح نظرة هذا الفاتح الرومانى لمصر ووضعها الجديد فى الامبراطورية الرومانية فى عهد أوجوستوس، من خلال النقوش اللاتينية التى خلدها الزمن ، فأصبحت وثائق إدانة أو أدلة اثبات على عصره .

قام أستاذنا الكبير عبد اللطيف أحمد على بدراسة هذه الجزئية وأفرد لها عددة صفحات مكملاً دراسته بترجمة النصوص الخاصة بهذا الموضوع(٢٢).

وسنحاول هنا أن نوجز فى نقاط أساسية أهم بنود خصوصية وضع مصر كولاية رومانية فى ضوء بعض النصوص اللاتينية ، سواء أكانت نقوشا أو كتابات تاريخية عند بعض المؤرخين القدماء .

أكد ديون كاسيوس وكذلك تاكيتوس(٢٣) على أهمية تعداد سكان مصر الكبير ووفرة قمحها وثرواتها ، الأمر الذى جعل أوجوستوس يحرم على أى عضو من أعضاء مجلس السناتوس زيارتها أو الاقامة فيها إلا بإذن خاص منه شخصياً(٢٤). وكان هذا الإجراء فى حد ذاته أولى خطوات أوجوستوس للاستئثار بمصر، وذلك : «**خشية أن يحتل أحد تلك الولاية ومفتاحى البر والبحر ولو بحامية بسيطة ضد جيوش ضخمة فيصيب إيطاليا بمجاعة**» على حد قول تاكيتوس(٢٥) .

هذا التصرف من قبل أوجوستوس يناقض ما سجله هو شخصيا فى أثر أنقرة (Res Gestae Divi Augusti)(٢٦)، كدعاية له ولسياسته العامة لصالح الشعب الرومانى ، حيث ذكر : «ضممت مصر إلى سلطان الشعب الرومانى» .

(٢٢) مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ص ١٤ - ٥٧ .

(23) Tacitus, Hist., I. 11.

(24) Piganiol, P., "Le Status Augusteen de L'Egypt et sa Destruction" Museum Helveticum, X, fasc. 3/4 (1953), pp. 200-202.

(25) Tacitus, Annales, II. 59, : " ...... Seposuit Aegyptum ne fame urgeret Italiam quisquis eam provinciam claustraque terrae ac maris quamvis levi praesidio adversum ingentis exercitus insedisset."

(٢٦) حول تعريف أثر انقرة (Manumentum Anyramum) وقيمة هذا الكشف الأثر منذ عام ١٥٥٥م ، وترجمته ، راجع عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

"Aegyptum imperio populi Romani adieci"(27).

ويتضح أن أوجوستوس كان حريصا على عدم استثارة مشاعر العداء ضده ، إذا ما أعلن أنه ضم مصر إلى أملاكه الشخصية وبالتالى فإنه يسجل للتاريخ خلاف ما حدث بالفعل . وهذه هى عادته يعلن على الشعب خلاف ما يفعل ، ولا سيما إذا كان هذا الاجراء أو ذاك يخص خطواته لاستكمال حلقات إحكام قبضته على السلطة (Infinitum Imperium) التى نفذها بكل دقة وبراعة ودون احداث أى صدام أو مواجهة صريحة مع أى طرف من أطراف السلطة التقليدية فى روما سواء فى السناتوس ، أو حتى بين زملائه من القادة العسكريين(٢٨).

نعم ، كانت مصر ولاية (Provincia) كما أكدت ذلك المصادر القديمة ، فهاهو سويتونيوس (Suetonius) يذكر لنا (٢٩) ، وهاهو استرابون(٣٠) ، كذلك يسميها ابارخيا (Eparchia) أى (ولاية).

ولكنها كانت ولاية من نوع خاص، من طراز فريد داخل الإمبراطورية الرومانية ، كما عرفنا بعلاقة أوجوستوس بهما والذى وضع على رأس الإدارة فيها وكلاء عنه من طبقة الفرسان (equites) وليس ولاة عاديين كما كان يحدث مع الولايات السناتورية .

كما يظهر هذا الوضع الخاص لمصر من العدد الكبير للقوات الرومانية التى رابطت فيها بأمر من أوجوستوس . فكان على أرض مصر ثلاثة فرق

---

(27) Ibidem.

(٢٨) يميل بعض دراسى التاريخ الرومانى إلى تسميته عصر اوجوسترس بأنه «عصر الوفاق» أنظر :

White-Kennedy, Roman History, Life and Literature, London 1942, pp. 111-112 . وعن تخليه عن سلطته العسكرية العليا (Imperator)، أى ما يمكن أن نسميه اليوم «الحاكم الفرد» ، كمحاولة ذكية لتهدئة مشاعر الحقد ضده من رفقاء السلاح ، ينتقل سلطته إلى السناتوس ليدير مصالح الشعب الرومانى - هكذا سجل ذلك فى أعماله (Res Gestae) حول ذلك كله وتبريرات تلك المحاولات الذكية لاختيار أنسب الوسائل فى أنسب الأوقات ، راجع : Dio, op. cit., Lii, 1-2

(29) Div. Aug., XV 111.2 :

« ... بعد أن جعل مصر (فى شكل) ولاية» .

"Aegyptum in provinciae formam redactam."

(30) Strabo, XVII. 12.

عسكرية (Legiones) بالإضافة إلى القوات المساعدة (auxillia) وهذه الاعـداد أكثر بكثير مما يحتاجه تأمين حدود هذا البلد المسالم ، بينما الفرقة التى كانت فى نيكوپوليس ، فربما يمكن تبرير بقائها هناك نظرا لشغب أهل مدينة الأسكندرية(٣١).

ونَخلُص إلى النتيجة المنطقية وهى أن مصر كانت ولاية رومانية ضمن أملاك الشعب الرومانى ، ولكن من طراز فريد - كما يسميها كذلك أستاذنا الدكتور عبد اللطيف أحمد على(٣٢) يتبع الأمبراطور شخصيا فى كل صغيرة وكبيرة ، وأصبح هذا الوضع بمثابة القاعدة لحكم مصر تحت الاحتلال الرومانى ، ولم يشذ عن ذلك أحد إلا بعد أن تدهورت مكانتها الاقتصادية وضعف مركزها المالى مما يؤكد مقولتنا السابقة من أن هذا الوضع الفريد جاء نتيجة لمركز مصر الاقتصادى وثرائها الذى فاق كل حد وتحدث به كليوباترا وأجدادها - من قبلها - ضمائر القادة والزعماء الأجانب ، وعلى رأس هؤلاء جميعا ، القادة الرومان : بدءا من بومبى ويوليوس قيصر وأنطونيوس، وحتى أوجوستوس، الذى نجح فى أن يقوض أركان المملكة البطلمية على أرض مصر ، واستولى هو وشعبه على خير هذا البلد، بل طمع فيه هو شخصيا فاختصه لنفسه .

وإذا كان أوجوستوس قد نجح فى خداع الشعب الرومانى آنذاك، وحاول بكافة السبل ، عدم إظهار نواياه الحقيقية عارية أمام شعب الامبراطورية الرومانية، فزور وثيقة أعماله الخالدة (Res Gestae) - على الأقل فيما يخص مصر - وأعلن أنه اضافها إلى أملاك الشعب الرومانى ، فإنه أمام توافر الأدلة التاريخية العديدة ، وفى ضوء مواقفه الشخصية ازاء بعض الأحداث الاقدم قليلاً ، لا يستطيع الدارس المدقق لتلك الفترة التاريخية الحاسمة فى مشوار حضارة البحر المتوسط، إبان القرن الأول ق.م ، إلا أن يؤكد على أنانية ذلك القائد العظيم ، ونواياه الخبيثة ،

(٣١) يعمم الكتاب الرومان وصفهم على مصر كلها وظلموا أهلها بأنهم «مستهترين ومتقلبى الطباع وسريعى الانفعال وميالين للفوضى » وكان أولى بهم أن يخصوا مدينة الإسكندرية بذلك نظرا لوجود العنصر اليونانى الذى يعادى اليهود، مما أسفر عن حروب كثيرة ومصائب كبرى .

راجع تاكيتوس : Tacitus, Hist., I. II.

ولكن بوليبيوس (Polybius) وديون خريسوستوموس حددا اتهامهما للاسكندر وشعبها فقط.

(٣٢) المرجع السابق ، ص ص ٥٢ - ٥٣ .

التى أعلنت عن نفسها ، مرات عديدة ، سواء قبل أكتيون أو بعدها .

وإن قراءة متعمقة فى أحد المصادر التاريخية ، وهو ديون كاسيوس ، لتعطينا صورة (وإن كانت متأخرة قليلا وليست معاصرة للاحداث أو شاهد عيان ، إذ لم يجرؤ كاتب أو مؤرخ واحد على تسجيل الحقائق كما هى فى عهد أوجوستوس، ولم نسمع عندئذ إلا أصوات النفاق والفخار) ، هى أقرب تصور لأسلوب ذلك الداهية الرومانى فى التخطيط والتنفيذ المحكم وصولاً لأهدافه ، التى لم تكن، دائماً ، نزيهة . ولهذا السبب نوصى – هنا فى هذه العجالة باللغة العربية– بضرورة الإطلاع على مادة البحث الأصلى باللغة الإنجليزية – فى أخر هذا الكتاب – لمعرفة مزيد من التفاصيل .

الفصل الثالث

الإدارة الرومـــــانيـة

أولاً : الإدارة المركزية :

يقول آيدرس بل (Bell) (١) :

«إن تاريخ مصر الرومانية قصة محزنة من قصص الاستغلال الذى يدل على قصر النظر ، وينتهى حتما بالانهيار الاقتصادى والإجتماعى» .

فى هذه العبارة الموجزة ، التى هى تقييم شامل لفترة الاحتلال الرومانى لمصر ، استطاع العلامة «بل» أن يلخص مظاهر الفشل الرومانى وادارته السيئة لمصر القديمة والتى أفضت إلى أفظع صور الاستغلال وبالتالى إلى الإنهيار التام لكل شئ فى مصر آنذاك .

نعم ، إنه برغم إحكام قبضة الإدارة الرومانية على مصر إلا أن هذا الجبروت الإدارى والهيمنة الكاملة على كل صغيرة وكبيرة (اقتصاديا أو اجتماعيا) لم يؤدِ إلى نتائج طيبة ، بل كان ضرره فظيعا على البلاد ، لأن تلك الإدارة الرومانية كانت قد قامت على أساس نظرى خاطئ وفاسد (٢) .

لقد نظرت روما - من بعد الفتح الرومانى لمصر على يد اوجوستوس إلى ذلك البلد الغنى (الغنى بثرواته والغنى بأهله وتعداده) على أنه ضيعة خاصة بالامبراطور والحاكم الرومانى ، ويجب أن تستغل لصالح هؤلاء ذلك لأنه إذا كان من المؤكد أن ثروات مصر - تحت الحكم البطلمى - كانت تدخل خزائن الملوك البطالمة ، إلا أنهم كانوا هم بمثابة المالك الحاضر ، وذلك على عكس روما وحكامها الذين كانوا المالك الغائب ، الذى انتقلت اليه هو - فى عاصمة الامبراطورية ، كل ثروات مصر وفائض انتاجها العينى والنقدى على السواء (٣) .

ويعلل العلامة بل (Bell) ذلك الفشل الرومانى فى سياساته تجاه ولايات

(١) مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة/محمد عواد حسين، وعبد اللطيف أحمد علي، القاهرة ١٩٥٤، ص ١٤٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٤٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ص ١٤٨ - ١٤٩ .

الامبراطورية الشرقية بقوله «بيد أن روما كانت أقل توفيقا فى الشرق، حيث اتصلت بحضارة أعرق من حضارتها وأرقى» (٤).

وفى ذلك التقييم ، من متخصص فى تاريخ الحضارة اليونانية - الرومانية ، وغربى الأصل ، أى شاهد من أهلها ، لأقوى دليل على فشل السياسة الأولى التى وضعها أوجوستوس لحكم مصر .. لأنها حققت صالح روما فحسب - على الأمد القريب - وأغفلت صالح البلاد المحتلة وصالح شعبها المقهور .

ولكننا ، نعود فنقول ، أليس هذا المعيار الذى وضعه «بل» للمقارنة ، بين سلوك روما مع أوروبا وسلوكها مع الشرق ، فيه مجافاه لواقع التاريخ القديم .. فماذا يمكن أن ننتظر من مستعمر محتل .. ؟! وماذا عساه هو فاعل بانتصاره على أمم ضعيفة لم يقدم على فتحها بقوة السلاح ، إلا لاعتبارات قوية وحسابات محددة ، جعلته يقدم على مثل تلك المخاطرات والمغامرات.. ابعد كل ذلك ، يحسن التصرف فى أملاك الولاية الخاضعة لسلطانه ؟! فلماذا إذن جاء إليها فاتحاً؟! إنه الطمع فى ثروات مصر ، أولا وقبل كل شئ . تلك الثروات التى طالما سمع عنها أنها كثيرة ومتنوعة باعتراف المؤرخ الرومانى ديون كاسيوس . نعم لقد صدق هذا المؤرخ الذى أحسن تحليل الوقائع التاريخية وبواعث إقدام أوجوستوس على فتح مصر .. لقد كانت هناك بالطبع أسباب وبواعث أخرى كلنا يعرفها (ارجع إلى الفصل الثانى) ، وهى أن أوكتافيوس - بفتحه مصر وضمها إلى املاكه - ضرب أكثر من عصفور بحجر واحد :

١ - العصفور الأول : القضاء على أنطونيوس نهائياً .

٢ - العصفور الثانى : القضاء على آخر آمال كليوباترا وارغامها على الانتحار .

٣ - العصفور الثالث : ضم مصر إلى ممتلكات الشعب الرومانى (؟!) ، لا ، بل إلى ممتلكاته الشخصية .

لقد كان هدف أوكتافيوس - بمجرد أن انتحر انطونيوس وتبعته كليوباترا ، أن يوطد دعائم حكمه الجديد ويحكم قبضته على تلك البلاد الجديدة ، ذات الماضى العريق والثروات الهائلة وكان عليه أن يواجه متطلبات الوضع الجديد لمصر ، وهى ضرورة ضمان قيام حكومة قوية تستمد قوتها من قوة الامبراطورية الرومانية وتعكس اهتماماتها الكبيرة فى هذا البلد الكبير .

---

(٤) المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

ولكى يحقق أوكتافيوس هذا الهدف رأى أن يسير على نهج البطالمة الأواخر فى تقسيم مصر إلى ثلاثة مناطق إدارية كبرى ، تكون حكومتها المركزية – كما كانت فى الاسكندرية :

أ) إقليم طيبة (Thebaïs)

ب) إقليم مصر الوسطى : وسمى ، رسميا ، الاقاليم السبعة وإقليم ارسينوتيس (Arsinoitis)

جـ) الدلتا (Délta)

ولم يكن لمديرى تلك الاقاليم – أو المناطق الإدارية الثلاثة ، أية سلطة عسكرية أو مالية ، بل كانت اختصاصاتهم لا تخرج عن كونها ذات طبيعة إدارية تنفيذية بحتة ، ويحق لهم تعيين الموظفين المحليين .. هنا تتضح أسرار السياسة العليا للامبراطور أوجوستوس ، الذى أدار مصر ، بهذه الكيفية ، حتى قبل أن يعود إلى روما ويأخذ الموافقة النهائية من مجلس السناتوس الرومانى الذى – كان فى نيته هو باعتباره الوحيد الأوحد على الساحة السياسية والعسكرية فى روما – أن يحجمه وأن يقلل دوره إلى أقصى درجة ، وبالفعل كان على السناتوس الجديد – أى بعد عام ٣٠ ق . م . – أن يستمع إلى الامبراطور الجديد وليس أن يستمع الامبراطور إليه . هكذا فرض أجوستوس سياسته فرضا – ومعه الحق التام فى ذلك على كل شئ سواء فى روما أو فى الولايات .

ولما كان أوجوستوس حريصا كل الحرص على أن تكون له مصر فقد وضع مجموعة من الضوابط والمعايير لكل منصب فيها ولكل موظف ، حتى حكام الاقاليم ، الذى ابعدهم – برغم التسمية أو اللقب الوظيفى الذى كان كل منهم يحمله ، وهو إبيستراتيجوس (Epistrátegos)(٥) . واقتصر دوره – كما ذكرنا – على المهام المدنية (كمدير عام للاقليم) . وكانت ملامح ذاك النظام الإدارى المركزى كالتالى :

أولاً : الحاكم (أى والى مصر القديمة من قبل الامبراطور) اختاره أوجوستوس من طبقة الفرسان. أى من رفاق سلاحه ومن بين أصدقائه المقربين الذين يثق فيهم ويعرف طموحاتهم المحدودة، خوفاً من أولئك الطموحين الذين –

---

(٥) هذا اللقب يعنى – فى اليونانية – الحاكم العسكرى ، أى أنه كان عسكريا (أى نائب الجنرال) ولكن أوجوستوس أفرغه من كل مضمون عسكرى.

ربما – يستأثرون بمصر ويستقلون بها عن الامبراطورية وبالتالى يحرم الامبراطور من أن يجنى ثمار مجهوداته السابقة . ولذلك لم يسمه الامبراطور كما كان (Pro Consule) أى نائب القنصل ، ولكن (Legatus Augusti) نائب أوجوستوس العسكرى . وكانت مهامه الإدارية تتمثل فى :

١ – القائد الأعلى للجيش الرومانى فى مصر .

٢ – الرئيس الأعلى للإدارة المدنية .

٣ – المدير الأعلى للشئون المالية .

٤ – الرئيس الأعلى لشئون القضاء والعدالة .

وأحاط أوجوستوس مصر – بصفة خاصة – بمجموعة من الاجراءات التى كانت سياجا حديدياً لا يقربه أى رومانى إلا بتصريح خاص من الامبراطور نفسه : وهى التى سماها (Arcana Imperii) أى أسرار الامبراطورية وعهد بها إلى خليفته تيبريوس(Tiberius) وبموجبها حرم على أي عضو من أعضاء السناتوس أو أى رجل مشهور من طبقة الفرسان (eques Illstris) أن يزور مصر دون إذن سابق أو موافقة من الامبراطور ، ووصل هذا التحريم إلى حاكم مصر من قبل روما، كذلك ، إذ أمر الحاكم الرومانى على مصر(praefectus Aegypti) ألا يركب النيل فى زمن الفيضان ، وذلك حتى لا يتشبه بفراعنة مصر القدماء وما يستتبع ذلك من إجلال وتعظيم بل وتأليه لمن يفعل ذلك أو أن فى ذلك – إذا أقدم الحاكم على هذا التصرف – أن ينافس الإمبراطور ذاته ، وهو صاحب الحق الوحيد فى أن يرث كل شئ فى مصر ، كما كان الملوك البطالمة . فظل أوجوستوس «سيد الأرضين» أى الشمال والجنوب ، وهو «الملك المسئول» وصاحب الحق الإلهى فى امتلاك كل البلاد ، وحملت أراضى مصر صفة «الأراضى الملكية» .

(أ) الجيـــــش

وفيما يخص الجيش الرومانى فى مصر ، فقد أبقى أوجوستوس فيها ما لا يقل عن ثلاث فرق رومانية (Legiones) أى حوالى ١٥,٠٠٠ (خمسة عشر الفا من الجنود الرومان)[٦] .

(٦) كانت الفرقة الرومانية (Legio) تتراوح ما بين (٥) إلى (٦) آلاف جندي روماني ، ينتمون إلي روما نفسها ، أو إلى الأقاليم الإيطالية ذاتها ، كما عرفنا بعد ذلك ، خلافاً للقوات المساعدة (cuxilia) التي كانت من الولايات الخارجية للإمبراطورية .

هذا بالإضافة إلى القوات المساعدة الملحقة بها (Auxilia)(٧) لكن الامبراطور تيبريوس (١٤م - ٣٧م) سحب واحدة من تلك الفرق لاحساسه بعظم القوات الرومانية فى مصر دون وجه حق (٨).

هنا ، نتوقف قليلا عند وصف العلامة ، الذى خانه التوفيق وجاء كلامه عاما تنقصه الدقة، وهو آيدرس بل (Bell) الذى يقول (٩) :

«وأما مصر ، التى لم تفتحها روما إلا فى وقت متأخر ، والتى اشتهر شعبها بالميل إلى الشغب ، فكانت بحاجة إلى حامية قوية» .

إن المقصود بذلك الوصف هو شعب الاسكندرية ، وليس عموم الشعب المصرى ، الطيب المستكين ، الذى لم تهمه آنذاك ، كما كان دائما وأبداً طيلة تاريخه الفرعونى القديم ، ماهية الإدارة العليا فى البلاد، بقدر ما يهمه حسن سير واستقرار نشاطه اليومى وتمتعه بخبرات أرضه وجنى ثمار تعبه وكده طيلة العام .. **إن السياسة وأمور الحكم لم تكن لتثير فى المصرى أى اهتمام - طيلة تاريخه القديم - ولكن حتما سيثور إذا ما تعرضت حياته ورزقه اليومى إلى الاخطار أو إلى الانتقاص منها لدرجة كبيرة، وحتى ذلك لا تكون ثورته مباشرة للتعبير عن ذلك ، بل يتخذ الأساليب الأخرى التى أصبح يتقنها ومحترفا فيها مثل** ، كتاباته للشكاوى والالتماسات الكثيرة إلى الإدارة العليا، أو الفرار وهجرة المكان كله (Anachoresis) ، حيث واجه جبروت الإدارة العليا وقسوتها فى جمع الضرائب ، بترك قريته والفرار إلى الصحراء أو أقاليم أخرى .

أما شعب الاسكندرية ، الذى كان فى غالبيته ، يونانيا ، وورث العداء الدائم ضد الرومان، فكان هو المقصود بالشغب وعدم الهدوء والسكينة إزاء مواقف الرومان المتحيزة ضده، ولا سيما بعد أن احتقرهم الفاتح الرومانى ، أوكتافيوس ، وحرمهم حقوقهم الدستورية وتكوين مجالس نيابة لهم (Boulai) .

(٧) المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٨) تذكر إحدي برديات ميتشيجان (P.Mich. VII, 441.) أسماء الفرق الرومانية فى مصر .

(٩) كانت من كتائب من المشاة (Cohortes) والفرسان (Alae) ويتم تجنيدهم من رعايا الولايات، علي عكس الفرق الرومانية التي تضم فقط المواطنين الرومان (Cives) ضمانا للولاء ، وكانت مدة الخدمة فيها تصل إلي ٢٥ عاما ، يمنح بعدها الجندى المسرح أو المحارب القديم (Veteranus) حق المواطنة الرومانية (Civitas) وحق الزواج (Conalium) ولا نعرف على وجه اليقين - عدد القوات المساعدة التى كانت فى مصر .

وهكذا لا تستقيم دعوى وجود قوات رومانية بهذا الحجم الكبير فى مصر ، مما يفسر قيام خليفة أوجوستوس، الامبراطور تيبريوس بسحب إحدى الفرق واستدعائها إلى روما .

(٢) القضـــــــــاء

وإذا ما انتقلنا إلى القضاء وإدارته الرومانية الجديدة ، نلاحظ بعض التعديلات كالتالى :

أ – تكوين مجلس القضاء الأعلى (Conventus)

وكان ينعقد ثلاث مرات فى العام ، فى ثلاثة أماكن عند رؤوس دلتا النيل(١٠) .

كما جرت العادة على أن يفوض الحاكم الرومانى فى مصر بعض الموظفين المحليين ، فى الأقاليم ، للقيام بمهمة الفصل فى بعض القضايا وذلك تيسيرا على رجال القضاء فى الإدارة المركزية فى الاسكندرية – كما كان الحاكم الرومانى – فى بعض الأحيان – يقوم بجولات تفتيشية فى أنحاء الولاية تتفقد أحوال البلاد بنفسه والاطمئنان إلى حسن سير الأمور وقيام مديرى الاقاليم بواجباتهم ، وهناك برديات . من العصر الرومانى – تؤكد على يقظة الحاكم الرومانى أو ربما الامبراطور نفسه – الذى يوصى أحد مديرى الاقاليم بضرورة عمل جولات تفتيشية ومعرفة أحوال البلاد وإزالة أسباب الشكوى من كتبة القرى (Komogrammateis) وكذلك من العمد (Komárchai) الذين يسيئون استغلال السلطة ، وأن يعامل الناس معاملة طيبة .

وكانت مهمة مجلس القضاء الأعلى(Conventus) ، غير مقصورة على النظر فى القضايا والمشاكل ، بل أيضاً القيام بعملية فحص للتقارير والحسابات الواردة من موظفى الاقاليم.

وكان على رأس القضاء الرومانى ، وظيفة تسمى (Iuridicus) أى «القاضى»(١١). ويختار من طبقة الفرسان والرومان ، وليست لدينا مصادر كافية

---

(١٠) مرة عند بلوزيوم (Pelusium) ، رشيد تقريباً، ومرة فى الاسكندرية ، ومرة ثالثة فى منْف الحالية للنظر فى قضايا الجنوب .

(١١) وكانت تسمى – فى العصر البطلمى – بلفظة (dikaiodótes) «واهب العدالة» أى (من يمنح العدل) .

لتوضيح مهام وظيفة ذلك الموظف الكبير ، الذى ربما كان بمثابة قاضى القضاة فى مصر الرومانية.

ويوجد فى البرديات المعاصرة ذكر لوظيفة قضائية أخرى ، هى الـ (Archidikastes) ، أخيدكاستيس بمعنى «رئيس قلم القضاة» (١٢).

أما وظيفة الـ (Idios Logos) - «إديوس لوجوس» وهى «مراقب الحسابات الخاصة» ، تأتى على قمة الهرم الوظيفى الإدارى .

(٣) الإدارة

كانت وظيفة الإيديوس لوجوس ، هى أخطر وأهم الوظائف الإدارية الرومانية فى مصر على الإطلاق نحو ذلك بالنسبة للرومان والامبراطور بوجه خاص . لقد سمى بذلك ، مما يعنى أن عمله خاص وحساباته خاصة . بمن ؟ ولصالح من ؟ .. إنها خاصة بالخزانة الملكية ، الامبراطورية ، أى لحساب الامبراطور نفسه ولذلك كانت وظيفة «اسم على مسمى» ، إذ يقوم القائم عليها بتجميع كل موارد الدخل ، ولاسيما غير المنتظمة منها ، مثل الغرامات والمصادرات أو دخول الاملاك التى لا أصحاب لها .

وكان الوالى الرومانى لمصر (Praefectus) له سلطة الاشراف النهائى على جمع الضرائب الاشراف النهائى على جفع الضرائب وعليه المسئولية الكاملة لارسالها سنوياً إلى روما .. ويذكر المؤرخ فيلون (Philo) - اليهودى (النصف الأول من القرن الميلادى) - أن الوالى الرومانى كان يقضى معظم وقته فى مراجعة التقارير الضرائبية التى تأتيه من مديرى الاقاليم كل عام لدرجة أننا سمعنا وعرفنا كيف أن الوالى الرومانى آيميلوس ركتوس (Aemilius Rectus) أراد أن يتقرب إلى الامبراطور الرومانى تيبريوس(Tiberius) (وكان معروفا عن هذا الامبراطور عطفه واعتداله(١٣) وزهده فى السلطة) فأرسل اليه الجزية السنوية أكثر من عام ، أى زائدة عن المدة المطلوبة منه ، فما كان من الامبراطور إلا أن عنفه وأرسل إليه ينصحه :

---

(١٢) يشبهها بل (Bell) بوظيفة رئيس دار المحفوظات أو قاضى محكمة الاستئناف ، المرجع السابق ص ١٣٤ ، أو أمين المحفوظات ، كما في انجلترا .

(١٣) عكس ما أشيع عنه ، بانه الامبراطور الرهيب ، بسبب اعدامه لكل معارضيه والخونة . راجع سيد الناصرى ، تاريخ الامبراطورية الرومانية ، القاهرة ١٩٨٥ (الطبعة الثانية) ١٣٢ .

«لقد أرسلتُك لتَجز صُوفَها ، لا أن تَسْلَخها» !

وإذا أنتقلنا إلى وظيفة هامة أخرى ، فى سلك الوظائف العامة فى مصر ، تحت الاحتلال الرومانى ، وجدنا وظيفة «الكاهن الأعلى للاسكندرية وسائر مصر»(١٤) . واختلف الحال تحت حكم الرومان ، عنه فى عصر البطالمة ، فأصبحت هذه الوظيفة مدنية ، وصاحبها رومانى الجنسية ، ويملك السلطة العليا على كل المعابد فى مصر ويشرف على طقوس العبادة والهيئة الكهنوتية ، لما لها من دور خطير فى أوساط عامة الشعب المصرى وثوراته .

وكانت الحكومة الرومانية - تقديراً منها لهذا الدور ولخطورته عليهم كأجانب محتلين - تقوم بالتفتيش الدورى على المعابد لتحدد عدد الكهنة وأنشطتهم وممتلكاتهم . كما كان عليهم أن يقدموا - سنويا - التقارير التفصيلية حول اسمائهم واعدادهم وممتلكاتهم فى كل معبد .

ويبدو أن الكهنة كانوا يحاولون - قدر الامكان - أن يستميلو الحاكم المحتل بكافة السبل ، وظلوا صابرين مدة طويلة على عملية الانتقاص الشديدة من قوتهم الاقتصادية ، حتى وصل الأمر إلى حيث لا صبر بعده ، فبدأوا يناوئون الحكم الرومانى وذلك بالتحريض على الثورة الشعبية ضد المحتل ، ولكن ذلك جاء متأخرا ، أى بعد مرور وقت طويل من الاحتلال الرومانى لمصر .

ثانياً : الإدارة المحلية فى العواصم :

عموماً ، لم يطرأ عليها تغيير جذرى ، وبقى الحال على ما كان عليه فى العصر البطلمى ، إلا أن أوْجوستوس ، واستمراراً لسياسته الرئيسية فى معاداة العنصر اليونانى وإذلاله ، وكما حرم مواطنى الاسكندرية من مجلس الشعب الخاص بهم (Boule) ، ألغى معاهد الجمناسيا (gymnasia) - معاهد التربية الخاصة - التى كانت منتشرة فى عواصم الاقاليم حيث الجاليات اليونانية ، وكذلك كانت منتشرة فى القرى ،هذا وإن كان قد أبقى الصبغة الرسمية للمعاهد التى كانت موجودة فى عواصم الاقاليم (Metropóleis) . كما استخدم المسميات اليونانية ذاتها - التى كانت معروفة فى العصر البطلمى وأبقى على الوظائف ذاتها كذلك ، مثل :

---

(١٤) وكان اللقب باليونانية هكذا : Archiiereus Alezandreias kia páses Aigyptor وهو من بقايا العهد البطلمى.

١) الـ إكسيجيتيس : (Exegetés) :

وهو صاحب الاختصاصات الإدارية الكثيرة ، ولا سيما الأوضاع القانونية ، حيث يقوم هو بشرحها والتقديم لها ، وتوصيفها قانونيا ، أى أنه كان رقيبا ومحافظا على التقاليد الهيللينية داخل إطار المدينة (١٥).

٢) الـ كوزميتيس : (Kosmetés) :

وكان يقوم بكل ما يتعلق بالشباب ومنظماته مثل منظمة الشبيبة (Ephebeía) ، وكذلك أنشطته ، بما فى ذلك التعليم(١٦) .

٣) أرخياريوس :

وهو كبير الكهنة وسدنة المعبد ويهمن على كل ما يتعلق بالشئون الدينية وعبادة الآلهة .

(٤) الـ «هيبومنيما توجرافوس» (السكرتير العام)(١٧) :

وكان أمينا للسجلات ، والذى يحفظ كل الالتماسات (Hypomnémata) والشكاوى ، فى أرشيف خاص بها .

(٥) الـ أجورونوموس (Agoronómos)

وهى وظيفة مسئولة عن شئون الأسواق «الأجورا» (Agora) وقوانينها وأسعارها (Timai) وهى أشبه بوظيفة «المحتسب»(١٨) فى الدولة الإسلامية .

وهناك وظيفة أخرى ، جاء ذكرها فى بعض البرديات(١٩) المالية ، وربما كان مسئولا عن التموين ، وبصفة خاصة توزيع حصص القمح

(١٥) د. آمال الروبي ، مصر فى عصر الرومان ، دراسة سياسية إقتصادية اجتماعية ، فى ضوء الوثائق التاريخية : ٣ق. م – ٢٨٤ ، القاهرة : ١٩٨٠ – ١٩٨١ ، ص ٢١٠ .

(١٦) ويأتى مركزه الوظيفى هذا ، فى الدرجة الثالثة ، بعد مدير معهد التربية (الجمْنارسيارْخوس)، والرقيب (الإكسيجيتيس) ، أنظر ، آمال الروبى ، المرجع السابق ، ص ص٢١٠ – ٢١١ .

(١٧) كما يسميها الاستاذ الدكتور العبادى (الامبراطورية الرومانية) دار النهضة العربية (بيروت)، د. ت ، ص ١٨٣ .

(١٨) آمال الروبي ، المرجع نفسه ، ص ٢١١ .

(١٩) المرجع نفسه .

المجانية(؟)(٢٠) ونحن نرجح أن يكون هذا الموظف يقوم بتلك الوظيفة . ينتدب مؤقتاً ، لتحمل أعباء مسئولية مؤقتة كذلك ، وهذا ما يوضحه اشتقاق اسم الوظيفة (٢١).

الإدارة المحلية : (ب) فى المركز والقرى

كان كل إقليم فى مصر (كما علمنا من الوثائق البردية التى تم الكشف عنها فى مصر، ويؤرخ معظمها بالعصر الرومانى ، وبصفة خاصة القرن الأول والثانى الميلاديين) ويمسى نوموس (Nomós) وله عاصمته ، وهى « Metropolis » (الميتروپوليس) ، كما ذكرنا آنفا ، وكان طبيعيا أن ينقسم الاقليم الواحد إلى عدة مراكز، سماها الرومان ، بعد البطالمة بذات الأسم ، أى توبارخياى (Toparchiai) ، وصل عددها فى إقليم هيرموپوليس ماجْنا (الأشونين)(٢٢) ، إلى ٦ (ستة) مراكز .

وكان كل موظف من هؤلاء الموظفين السابقين الذكر يُسَمى «أرْخون» (Archon) ، ويعتبر ، من وجهة النظر الرسمية مسئولا قائما بذاته ، لا يتدخل فى اختصاصات الموظفين الآخرين فى الإدارة الحكومية ، ولكنه قبل نهاية القرن الثانى الميلادى، أصبحوا يؤلفون هيئة أو نقابة تعرف بأسم كينون (Koinon) ، وهى التى كانت الشكل الأول – أو المرحلة الأولى – من أشكال مجلس الشورى (البولى : Boule) التى كونها – فى مطلع القرن الثالث الميلادى الإمبراطورسبتيميوس سيڤيروس (S. Severus) .

ويذكر العلامة آيدرس بل (٢٣) أنه كان هناك بكل عاصمة من عواصم الأقاليم أنه كان هناك الجمعية العمومية لمواطنى الإقليم . ويسجل لنا جونز (Jones) فى دراسة موجزة طريقة اختيار وانتخاب حكام العواصم(٢٤) .

---

(٢٠) لا يمكننى تخيل قيام وظيفة بهذا الدور الخير (؟!) ، فى ذالك الزمان الأغبر الذى لم يكن همه إلا الجمع المستمر للموارد النقدية والعينية على السواء لتمتلئ بها خزائن روما . فربما كان ذلك أثناء النكبات فقط وبالتالى فهى وظيفة مؤقتة .

(٢١) تسمى الوظيفة : (Etésios) وتعنى القائم على الأشياء الزائدة عن الحاجة فمتى كانت هناك وفرة إنتاجية لا تحتاجها روما تبقيها ؟! ربما كان هذا مسئولا أمام الجهات الرومانية فى روما ، وليس فى مصر .

(٢٢) إحدى قرى محافظة المنيا ، اليوم ، وتابعة لمركز ملوى ، وتقع فى الطريق إلى المنطقة الأثرية المشهورة «تونا الجبل» وعلى بعد حوالى ٧٠ ك. م من المنيا ، غرب النيل .

(٢٣) المرجع السابق ، ص ص ١٤٠ – ١٤١ .

(24)"The Election of the Metropolitan Magistrates in Egypt. " Journal of Egyptian Archaeology, 24 (1920), pp. 65-72 .

نظام القيد والتعداد :

كان البطالمة ، هم أول من أدخل نظام القيد السكانى فى قوائم خاصة . وهو النظام الذى عرفوه بأسم «أبو جرافى : (Apographé) . ولكن الرومان جاءوا (ووفقا لاستراتيجية الاستغلال المنظم لكل طاقات وامكانيات مصر القديمة آنذاك أوجدوا نظام التعداد المنتظم الدورى كل أربعة عشر عاما . وهو النظام المعروف باسم «لاوجرافيا» (Laographia) وكان يتم على صورة إحصاء لكل الناس وكل الأشياء داخل المنزل الواحد ، أى «كاتا أويكيان أبو جرافى» (Ckatá oikían apographén)

وكان المالك مُجْبراً على أن يكتب إقراراً عن كل التفاصيل الدقيقة عنه وعن أسرته ، فرداً فرداً ، وعن كل ممتلكاته ، سواء الحالية – أى وقت إعداد الإحصاء – أو التى كانت فى حوزته من قبل وباعها . ومن تلك المعلومات ما يلى :

أ) اسمه . ب) أصله جـ) أوصافه الجسدية

د) أسماء أولاده هـ) عمره وأعمار أولاده وأوصافهم

و) ممتلكاته الأخرى فى أماكن أخرى : عقارات ، حيوانات ، أراضى ، عبيد .... إلخ .

ل) تعليمه وثقافته هو وأولاده ى) أسماء المواليد والوفيات

وتحول كل هذه المعلومات داخل الإقرارات إلى لجنة خاصة تتكون خصيصاً لهذا الغرض .

هكذا نرى كيف أن الإدارة الرومانية حرصت تماماً على أن تضيق الخناق، على رعاياها المصريين من فلاحى بلد النيل المساكين ، فى كل إتجاه وتعلم عنهم كل شيء ، وذلك – كما رأينا – تحقيقاً لكل أهدافها من احتلالها لمصر: سياسياً ، واقتصادياً ، وأمنياً ، حتى يستمر الحال على ماهو عليه ، ويستمر تدفق الأموال والجزية على روما ، لتزداد رفاهية شعبها ، على حساب شقاء وكد وعرق الملايين من أبناء مصر المقهورين .

قراءة في/تاريخ مصر القبطية

أولاً : دخول المسيحية وقيام الرهبنة وظهور القبطية :

(أ) دخول المسيحية إلى مصر :

لقد كان لدخول المسيحية إلى مصر على أيدى القديس مرقص – كما قال لنا المؤرخ يوسيبيوس(١) (Eusebius) – أبعد الأثر فى مشوار التاريخ والحضارة المصرية القديمة طيلة القرون الأربعة السابقة على دخول الإسلام . إذ هكذا شاءت الأقدار حتى يرتوى عطش المصريين الدينى ، فى فترة ترقب وحذر ، وتوجس من الأجانب المحتلين ، الذين ساموا شعبنا ، الطيب المسكين ، كل صنوف العذاب والمهانة والاحتكار (٢) ، وكذلك بعد أن عم الفساد وانتشر الظلم وخربت الذمم ، وتقلص الإيمان بالمعبودات الوثنية ، وسرت النبوءات التى تعد بالخلاص والأمل فى حياة أفضل (٣) .

والحق أننا لسنا على يقين تام من تاريخ دخول المسيحية إلى مصر بالتحديد، وكذلك دخولها إلى الاسكندرية وهنا يقول R. Harris ما يلى :

The diffusion of Christianity to the hinterland, to Egypt proper, is as obsecure a story as its advent and development at Alexandria itself (4).

ولقد أثبتت الاكتشافات البردية من مدن الفيوم المختلفة ، ومن البهنسا (Oxyrhynchus)، ومن أنتينوبوليس (Antinoopolis) – الشيخ عبادة فى محافظة المنيا – وغيرها ، أن تحول المجتمع المصرى إلى المسيحية جاء تدريجيا منذ القرن الثانى الميلادى ، وبخاصة فى مصر الوسطى والعليا .

(١) هو مؤرخ من قيسارية (Caesarea) في القرن ٤ – فى فلسطين – Ecclesiastical History, II : XVI.

(٢) راجع/أبو اليسر فرح : الدولة والفرد في مصر (ظاهرة هروب الفلاحين فى عصر الرومان)، القاهرة ١٩٩٤ ، ص. ص ١٤٨ – ١٥٢ .

(٣) قارن نبوءة كليوباترا فى أواخر ايامها – حيث تعترف بالفساد والظلم المنتشر ، وتغرس الأمل في سيدة تغير الأحوال إلي الأفضل (déspoina)؟!!

(4) The legacy of Egypt, (2nd edition), Oxford, at the Clarendon Press, 1971, p. 396.

ففى أوكسيرنخوس ، مثلاً ، (والتى كانت فى العصر البطلمى والرومانى واحدة من أهم المراكز الإقليمية للوجود اليونانى خارج الإسكندرية) ، تؤكد برديات القرنين الثانى والثالث الميلادى أنه كان هناك فقط كنيستان ، فى حين كان هناك – فى المقابل الوثنى – حوالى عشرون معبداً أو مقراً للديانة الوثنية . ولكنه مع وأثناء القرن الرابع الميلادى حدث العكس ، فأصبح هناك ما لا يقل عن (٤٠) اربعين كنيسة أوديرا [٥].

هذا من ناحية الأوضاع الداخلية فى مصر ، فى القرون الميلادية الأولى ، والتى كان أهمها ، على الإطلاق – بعد دخول المسيحية اليها + قيام دقلديانوس (Diocletianus) بإصلاحاته الإدارية والتى تناولت الشكل دون المضمون :

(أ) أصبحت مصر (٣) ولايات بدلا من واحدة ، وعدة أقاليم[٦].

(ب) فَرْض اللاتينية كلغة رسمية فى كل الشئون الإدارية .

(جـ) إلغى منْصب الحاكم العسكرى (Strategós)[٧] .

(د) إضافة وظائف إدارية جديدة ، رومانية المفهوم ، وسياسة الهدف [٨].

ومع ذلك ، وبشهادة شاهد من أعظم دارسى تلك ما لحقبة وأكثرهم اعتدالا وموضوعية فإن «التغير الفعلى» كان تافها ، حيث أكد آيدرس بل(I. Bell) أن المظاهر الإدارية والحياتية الأقدم – قبل الاصلاحات الرومانية – ظلت كما كانت، مثل :

(أ) استمرت اللغة اليونانية لغة رئيسية فى المحاكم والإدارات وكتابة الإلتماسات والشكاوى .

---

(5) Harris, Op. Cit., P. 397,

(٦) أصبحت البلاد عبارة عن مدن مستقلة اولبيات (Cinitates) ، تتبع منطقة أكبر ، هى(Territorium) ، التى تنقسم بدورها إلي مراكز صغري ، هي (Pagi) ، راجع/أيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتي الفتح العربي (ترجمة وتعليق الأستاذ الدكتور/عبد اللطيف أحمد علي ، القاهرة ١٤٥٤ ، ص ص ١٥٥ – ١٥٨ .

(7) Cf., Thomas, J. D., "The strategus in Fourth Century Egypt, " Chron. d'Egypt, 35 (1960) pp. 262 - 270 .

(٨) مثل وظيفتى (Exactor) منذ عام ٢٩٩م وهو رئيس المركز أو المدير ، وكذلك (Defensor) أي/النقيب الذي يدافع عن الفقراء من بطش الأغنياء !!!

(ب) ظلت المسميات اليونانية الأقدم ، لبعض الوظائف ، مثل رئيس مجلس الشورى (Propoliteuómenos) قائمة ، بل وتداخلت مع المصطلحات اللاتينية الأحداث.

وهنا لابد لنا أن نؤكد على حقيقة تاريخية هامة ، فيما يخص تطور الاوضاع الداخلية فى مصر آنذاك ، وهى أن السياسة الداخلية واحوال البلاد والعباد كانت مرهونة بالأحوال السياسية الخارجية ، بل يمكننا أن نقول ، ب اطمئنان ، أن ما كان يجرى على الساحة المصرية ، طيلة القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، كان بمثابة ردود أفعال أورجع صدى – إيجابى أو سلبى – لمجريات السياسة الرومانية العالمية آنذاك . وعن ذلك يقول ريتشاد هاريس ما يلى :

"The course of political events outside Egypt was however, the decisive factor [9].

وللتأكيد على ذلك ، يمكننا أن نضع فى اعتبارنا ما يلى من أحداث عالمية خطيرة :

١ – فى عام ٣١٣م : الإمبراطور قسطنطين يعطى لرعايا الامبراطورية حق حرية العبادة والدين .

٢ – وفى عام ٣٤١ م : يأمر بالتوقف عن الممارسات للغزعبلات والخرافات وإلغاء تقديم القرابين :

٣ – وفى عام ٣٩٢ : أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس (Theodosius) قراراً بتحريم كل أشكال العبادات الوثنية ومعاقبة الخارجين بتهمة الخيانة (Maestas).

وهكذا ندرك الرباط القوى بين أحوال الداخل ، فى مصر المسيحية ، وبين ظروف الخارج وسياسات الرومان العالمية . والحق أن التناقض بين مصالح مصر الداخلية وسياسات روما الخارجية ، وإصرار الرومان على تنفيذها حرفياً دون مراعاة لأية خصوصيات لأية ولاية كائنة من كانت ، كان هو السبب الحقيقى وراء كل الأحداث الدامية التى شهدتها مصر آنذاك .

لقد رفض المسيحيون ، منذ البداية ، المشاركة فى العقائد الوثنية من ناحية ، كما اختلفوا – فيما بعدهب الطبيعة الواحدة الذى تبنته روما ، من ناحية ثانية ، واستغل الامبراطور جاليريوس مرض دقلديانوس وأصدر قراراً بفرض عقوبة

(9) Harris, Op. Cit., p. 397 .

الإعدام على المسيحيين (١٠) . وهنا كانت البداية باضطهاد دموى راح ضحيته الالاف من المصريين المسيحيين الأوائل الرواد ، حتى أن الكنيسة القبطية ، فى مصر ، والحبشةو كذلك ، لازالت تؤرخان الأحداث فى تقويمهما ببداية عصر دقلديانوس ، أى منذ عام ٢٨٤م ، ذلك لأن الاضطهاد الرومانى لهما كان شاملا حيث :

أ - دُمِّرت الكنائس .

ب - أحْرِقت الكتبُ السماوية (الأناجيل)

جـ - كثُرَ الشهداء المعْترفين ، رجالا ونساء .

وكانت إرادةِ الله أقوى وأبقى ، فقد أدى الاضطهاد إلى زيادة عدد المؤمنين بالمسيحية ، وضربَ الشهداء أروع الأمثلة فى التضحية والشجاعة فجذبوا الناس إلى دينهم الجديد . وحقاً قال آيدرس بل : وإذا أخذنا بما جاء فى الأوراق البردية ، فقد كانت مصر فى عام (٣٠٠) م بلداً وثنيا فى جوهرِه ، برغم وجود عدد كبير من المسيحيين ، بينما أصبحت فى عام (٣٣٠) م بلداً يدين معظم أهله بالمسيحية . **ولا شك أن بعض هذا الانقلاب كان يرجع إلى توقف الاضطهاد لا إلى استمراره** (١١) وذلك بسبب دماء المظلومين ودماءِ الشهداء وأنات المساجين وآلام المنفين المضطهدين ، فانتقم لهمِ رب العالمين فأقعدَ ذاك الإمبراطور المفترى جاليريوس (Galerius) بمرض عضال كَريه، مما أجبره علِى وقف اضطهاد المسيحيين أملاً فى سماحتهم وطمعاً فى غفرانهم عن ذنبه ، وطالباً منهم أن يصلوا من أجله .

(ب) قيام الرهبنة وظهور اللغة القبطية :

وإنه لمن دواعى احساسنا بالمسئولية القومية وواجب الموضوعية العلمية ، وعظم الأمانة التاريخية ، أن نرجع هنا إلى أحد رواد علماء تلك الفترة من تاريخ مصر القديم وهو آيدرس بل (H. I. Bell) الذى وهب عمراً طويلاً لدراسة برديات تلك الحقبة الهامة من تاريخ بلدنا الغالى ، ومنْ ثَم وجب علينا أن نستمع إليه (١٢)

(10) Bell, I., Cit., pp. 159 - 160 .

(11) Cf., e.g., " Evidences of Christianity in Egypt during the Roman Period", Harv. theol. Rev., XXXVII (1944) , pp. 185-208 .

(١٢) آيدرس بل ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ ، ولقد تنازل دقلديانوس عن العرش اعتراضاً على تسلط رفيقه جالس يريوس راجع / Baynes, N. H., C. A. H., Vo. XII, P. 668

وكلنا آذان صاغية ، حيث يقول :

«ولدينا الآن ما لا يقل عن (٧) قصاصات من البرديات الإنجيلية ، التى يمكن أن ننسبها بإطمئنان إلى القرن الثانى ، بل إن جميع الباحثين الثقاة ينسبون إحدى هذه القصاصات ، التى تتضمن فقرات من إنجيل القديس يوحنا ، إلى مستهل القرن الثانى ، ولابد أنه كان يوجد فى مقابل كل بردية مسيحية حفظتها لنا محض الصدفة ، مئات البرديات التى عفا عليها الزمن ، وأن كل مسيحى كان لديه مثل هذه البردية يقابله عشرات لم يكن لديهم شئ (١٣) »

ويؤكد هذا العلامة ، أى/آيدرس بل ، على سماحة الإدارة الرومانية العليا إزاء العبادات الدينية المختلفة فى الولايات أو حتى داخل روما ، إلا فى حالتين اثنتين ، حيث لارحمة من روما إزاءهما ، وهما :

أ - فرق المبادئ الأخلاقية المتعارف عليها آنذاك .

ب - معارضة السياسة العامة الرومانية ، أو لأى من أركانها .

وهنا يضيف آيدرس بل قائلا :

«كان المسيحيون فى نظر السلطات مواطنين أشراراً وعنصراً خطراً فى المجتمع ، لأنهم كانوا يترفعون عن ممارسة شعائر الديانة الرسمية ، ولا يقدسون صور الأباطرة ، ولا يشتركون فى عبادة «روما المؤلهة» أو الروح الحارس ، للأمبراطور . وكانوا فى تضامنهم وخلوتهم ، وقت التعبد ، مايوحى بأنهم جماعة سرية . وقد اتهموا بممارسة أبشع العادات كالزواج المحرم ، والشعائر المخلة بالآداب وإهراق الدماء البشرية - طبقاً للطقوس . هذه هى التهم التى كالها الوثنيون للمسيحيين ، وهى نفس التهم التى كالها المسيحيون لليهود فى القرون التالية (١٤) .

ولعل تفاصيل قصة القديسة بريتوا (Perpetua) فيها من البطولة والشجاعة والإصرار على الإيمان بالمسيحية والاستعداد التام للتضحية بالنفس بالرغم من كل الرزايا والبلايا التى حاقت بالشهداء (١٥).

---

(١٣) مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة وتعليق أستاذنا الدكتور/عبد اللطيف أحمد علي ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص .

(١٤) المرجع نفسه .

(١٥) المرجع نفسه .

وإذا كانت الخصوصية المصرية القديمة (الفرعونية) كما أكد عليها مؤرخو اليونان القدماء ، أمثال سترابون ، الذى قال بذلك وأسماها (Idióteta) تلخيصاً لتفرد جغرافيتها ونظامها السياسى وعظمة انجازها الحضارى ، وسماحة أهلها وقناعتهم وهدوء طباعهم وكبر عددهم السكانى هى التى أفرزت خصوصية الديانة المسيحية الجديدة ، فأخرجت إلى العالم المسيحى كله ، أعلى مراتب الإيمان فيها ، وهى الرهبنة ، فإنها كذلك اخترعت – تبعاً لذلك – لغة خاصة بها ، هى اللغة القبطية .

إن أقدم قصاصات إنجيلية مكتوبة بالقبطية تؤرخ بالقرن الرابع الميلادى ،عندما ازدادت الحاجة ، لدى المصريين المسيحيين ، أن يكون لهم كتابهم المقدس الخاص بهم وبلغتهم، ومن هنا ظهرت الكنيسة القبطية فى مواجهة كنيسة الإسكندرية التى كانت يونانية خالصة . والحق أن نجاح انتشار المسيحية فى مصر، بسرعة ملحوظة ، ربما ترجع إلى مجهودات مخلصة وإصرار عظيم من رجالات الدين المسيحى مدفوعين بالحاجة الماسة للغة و طنية يتعبدون بها(١٦) . وهنا يجب أن نشير وأن نلفت النظر إلى أن العوامل الاقتصادية السيئة، فى العصر الرومانى ، ممثلة فى الضرائب الثقيلة والأعباء الاقتصادية والواجبات الإلزامية على الفلاحين المصريين آنذاك ليست هى السبب فى ظهور الرهبنة مع وجود المسيحية (١٧) .

لقد ظهرت الرهبنة (Monasticism) فى مصر القديمة فى أشكال عدة ، وحتى فيما قبل دخول المسيحية إلى مصر ، حيث نلاحظ فى برديات ، ما قبل المسيحية ، مصطلح أنخوريتيس(Anachorites) ، وكانت تعنى ذلك الرجل ، الفلاح ، الذى يترك أرضه فاراً من السلطات المحلية لكيلا يدفع الضرائب التى عليه ، أوهارباً من ظروف العمل التى كان يعيشها ، ومن ثم كان تصرفه هذا كنوع من «الاحتجاج (١٨) ، السلبى من المواطن المصرى . وكذلك كان هناك الزهاد والنساك(Eremites) ، الذين يعتزلون المجتمع ، ويلجأون إلى وحدة

(١٦) راجع ، مثلا ، Robinson, J. A. Texts and Studies, Vol. 1, No. 2, "The passion of S. Perpetua", Cambridge 1891, P. 70.

(17) Ibid., P. 401 .

(18) Shor, A. F., " Christian and Coptic Egypt., " in R. Harris book ; the Legacy of Egypt, 2 nd edition, Oxford 1971, P. 400.

الصحراء ، حيث حياة التأمل والتدبر ، والصلاة التضرع إلى الخالق . ولقد قيل عن القديس بولس (Paulos) – كما جاء عند المؤرخ جيروم[١٩] – أنه لجأ إلى الصحراء فى سن مبكرة، حوالى فى السادسة عشرة من عمره ، ليهرب من قرارات ديكيوس(Decius) فى إعدام المسيحيين وإضطهادهم ، واستقرا فى الصحراء الشرقية بالقرب من الدير المسمى باسمه (٢٠).

وجدير بالذكر أن المصادر القبطية قد أعطتنا أسماء عدد من النساك والزاهدين وبخاصة من مصر الوسطى والعليا . ففى بردية قبطية فريدة ، هى الآن فى المتحف البريطانى ' جاءتنا تفاصيل عن كيفية انتشار المسيحية إلى جنوب مصر وحتى أسوان ، حيث يحكى الراوى كيف أنه قابل أربع شخصيات فى الصحراء، وسألهم عن بلدانهم الأصلية وأسمائهم وكيف جاءوا إلى ذلك المكان . والجو العام مأخوذ من «أقوال الآباء» (Sayings of the fathers = phthégmata) وفيها يحكى الأب مكاريوس العظيم كيف أصبح راهباً حقاً ، وكان قول الحكيمين له : «**إذا لم يترك الرجل كل متاع الدنيا ، فإنه لا يمكن أن يكون راهبا و إذا لم تكن لديك المقدرة (الصحة/القوة) ، مثلنا ، فاذهب ، عندئذ ، واجلس فى صومعتك وابكى خطايك.**»(٢١)

---

(19) Shore, Op. cit., pp 402 - 403.

(٢٠) هو دير "أبوبولوس ، الذي بني في القرن (٥) أو (٦) الميلادي ، وتم هجره بعد ثورة عبيد الأديرة في نهاية القرن(١٥) .

(21) British Muscum, Or. 7029 .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر (بعضها بترتيب ورودها فى المتن) :

1 - Herodotus .

2 - Herodas .

3 - Polybius .

4 - Diodorus .

5 - B. G. U : Wilcken, U., Schubart,

6 - Cairo - Zenon Pap : Edgar, Zenon Papyri, I-IV; le Cairo, 1925-31 .

7 - Tebt. Pap. : Grenfell, Hunt .... etc., (1902 - 1938), London .

8 - O. G. I. S. ; Dittenberger, Lipsiae 1903 - 1905 .

9 - Strabo .

10 - Pausanias .

ثانياً : المراجع (بعضها وبترتيب ورودها فى المتن) :

أ - المراجع العربية :

(١) رمضان عبده السيد : تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته (الجزء الأول : إيران والعراق) مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ٢٠٠٠م .

(٢) سليم حسن : مصر القديمة ، القاهرة (د. ت) .

(٣) مصطفى العبادى : العصر الهيللينستى (مصر) ، بيروت، (د. ت) .

(٤) محمد عواد حسين : حركات المقاومة الوطنية فى مصر البطلمية ، القاهرة ١٩٤٩م .

(٥) إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ، القاهرة (طبعات عديدة) ، الأنجلو المصرية .

(٧) محمود السعدنى : تاريخ وحضارة مصر فى العصر البطلمى (سلسلة قراءات فى التاريخ القديم/٣) القاهرة ٩٨/١٩٩٩م .

(٨) محمود السعدنى : تاريخ وحضارة اليونان ، القاهرة ١٩٩٩م .

(٩) محمود السعدنى : مدخل لآثار مصر فى العصرين البطلمى والرومانى

(موضوعات مختارة) ، سلسلة – دليل تاريخى – أثرى (PAR/TO) ، القاهرة ٢٠٠٠م .

(١٠) محمود السعدنى : تاريخ وحضارة اليونان والرومان (موضوعات مختارة) ، القاهرة ٢٠٠٠م .

(١١) عبد المعطى شعراوى : أساطير إغريقية (أساطير الآلهة الصغرى) ، الجزء الثانى – طبعة أولى – الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٩٩م .

(١٢) عبد العزيز صالح : تاريخ الشرق الأدنى القديم (مصر) ، القاهرة .

(١٣) منيرة الهمشرى : تاريخ وحضارة مصر فى العصر البطلمى (سلسلة تاريخ المصريين/١٤٣) ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٩م.

(١٤) أبو اليسر فرح : الدولة والفرد فى مصر (ظاهرة هروب الفلاحين فى عصر الرومان) ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٩٤م .

(١٥) آمال الروبى : مصر فى عصر الرومان ، القاهرة ٨٠ – ١٩٨١ .

(١٦) عبداللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٦١ .

(١٧) آيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة / محمد عواد حسين ، عبداللطيف أحمد على ، القاهرة ١٩٥٤ .

(١٨) سيد الناصرى : تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، القاهرة ٢٩٨٥ .

(١٩) مصطفى العبادى : الإمبراطورية الرومانية ، دار النهضة العربية (بيروت) ، د. ت .

ب – المراجع الأجنبية (بعضها وحسب ترتيب ورودها فى المتن) :

1 - Walbank, F. W., Polybius, (Univ. of California Press), London 1972.

2 - Rowlandson, J., Women and Society in Greek and Roman Egypt, Cambridge Univ. Press, United Kingdom 1998.

3 - Lichtheim, M., Ancient Egyptian Literature, vol. III : The Late Period, (Berkeley - Los Angelos - London), 1980.

4 - Empereur, Jean - Yves, A Short Guide to The Graeco Roman

Museum, Alexandria, Egypt 1995 .

5 - Ehrenberg,V., Society and Civiliztion in Greece and Rome, Oxford Univ-Press, London 1964.

6 - Bevan, E., A History of Egypt under The Ptolemaic Dynasty, London 1927 (Revised ed. Chicago 1968) .

7 - Tarn, W. - Griffith, Hellenistic Civilisation, Univ. Paperback 1966 (Rep. 1978), Great Britain, London .

8 - Jouguet, P., "Le Roi Nubien Hurgonaphor et lès revolts dè la Thebaide" , Mélangès Navarre, 1935 .

9 - Festugiere, A., "Propos des Catalogies d'Isis, " Haryard Theol. Rev. 1949 .

10 - Pestman, P. W., " Haronnopris and Chaonnophris :

Two Indigcnous Pharaons in Ptolemaic Egypt (205 - 186 B. C.), " Acts of a Colloquium on Thebes and the Theban arca in the Graeco - Roman Period (Pap. Lugd. Bat XXVII, Leiden 1995 .

11 - Bell, I., " Popular religion in Graeco - Roman Egypt" , J. E. A., 34 (1948) .

12 - Thompson, D. J., Memphis under the Ptolemiec, Princeton 1988 .

13 - Rostovtzeff, M., The Social and Economic History of the Hellenistic World, Vol. II & III .

14 - Richter, G., The Porrtaits of the Greeks, London, 1965.

15 - Grant, M., History of Rome, London - Voston. 1977 .

16 - Cary, E., Dio's Roman History (Loeb Classical Library), vol. VI 1960 .

17 -White - Kennedy, Roman History: Life and Literature, London.

18 - Harris, R., The Legacy of Egypt, 2 nd edition, Oxford 1971 .

before in our analytical study in Dio's narrative. We can get the same result by noticing the arrangment of Octavian's desires, as Dio stated before(Quotation IO).

We may count, or just guess, other personal reasons such as :

1_- Revenge for his family insult caused by Antony.

2 - Jealousy and envy between the two " Princepes" of East, viz Antony and West, viz Octavian.

In fact it could not be the strategic reason that made Octavian so insistant that he specified a separate day, except that of Actium, to celebrate his spoils from Egypt. So, Octavian was quite aware of what he did and what Dio informed us (61) concerning this is undoubtedly a historical fact. It was the third day of Octavian's "νικητήρια", which Dio described as "the most precious : πολυτελεστάτη "and"the Most magnificent :ἀξιοπρεπεστάτη". This way of the victorious celebration indicates clearly the emperor's appreciation for Egypt's Subjugation achieved by him.

To the same thought, we add the information that Octavian ordered to consider the day on which Alexandria had been captured as a " Lucky Day " and should be used by the inhabitants of that city as a " Starting Point " in their evaluation of time (62).

(6I) LI : 2I,7-8. «.... κἀν τῇ τρίτῃ ἡ τῆς Αἰγύπτου καταστροφή. ἐπιφανεῖς μὲν δὴ καὶ αἱ ἄλλαι πομπαὶ διὰ τὰ ἀπ' αὐτῆς λάφυρα ἐγένοντο (τοσαῦτα γὰρ ἠθροίσθη ὥστε πάσαις ἐπαρκέσαι).»

(62) Id., I9,6:
« τήν τε ἡμέραν ἐν ᾗ ἡ Ἀλεξάνδρεια ἑάλω, ἀγαθήν τε εἶναι καὶ ἐς τὰ ἔπειτα ἔτη ἀρχὴν τῆς ἀπαριθμήσεως αὐτῶν νομίζεσθαι, ... ».

As for Octavian, the historian tried to show the Roman Emperor not greedy but far-sighted, broad-minded and tricky man. Dio attibuted to him very cunning plans and plots. He showed him also a consistent leader and undefeated hero before Cleopatra. He described Octavian's character very well saying :

" Cleopatra perceived that Caesar was not to be withstood. :

« καὶ τὸν Καίσαρα ἀνανταγώνιστον ὄντα ᾔσθετο, ...(59) ».

ELSEWHERE, Dio spoke about Octavian's intention towards Cleopatra and her treasuries (60) (Quotation 10) but we are here interested, only as we said before, in the ACTA of the persons and not in their intentions and inner feelings, and here the word "ἐπεθύμει" betrays that.

It is obvious now that Dio was not interested in examining why Octavian waged that " SACRED WAR " against Antony. He gave more detailed description of the events already happened in Egypt and dramatized the final scene of the great tragedy of the first century B.C.

We, however, can now conclude that Octavian attacked Egypt for many reasons, the first of which was its tremendous wealth, with all its sources either money or gold as we have seen

(59) LI : 9,5.
(60) Though Octavian was very distressed for not seizing Cleopatra alive (LI:14,6), he forgave both the Egyptians and the Alexandrians and showed himself a real far-sighted leader, i.e. a great politician, cf. LI:16,3-4, for knowing the true (τὸ ἀληθές) reason for this pragmatic behaviour.

knights, senators and even to the common people and children[53].

3- In addition to all other celebrations in honour of Octavian, a festival was held for him every four years[54].

4- Augustus declared Antony's birthday as accursed (μιαρόν) one and prevented his relatives to use his surname " Marcus " [55].

5- Away from Rome and Italy, Augustus permitted the inhabitants of the provinces to dedicate shrines to himself. This practice became a custom, later on under other emperors[56].

6- Augustus did not accept gold from the cities of Italy, as was usually done for the crowns of the victorious, because he had enough [57].

7- The price of goods rose and the rate of loans came down by two thirds, i.e. became only 4 % instead of 12 % [58].

Dio in his narrative of these phenomena, either those of political or social significance, was quite sure and sincere. This historian, being a senator for sometime, could fetch the Roman archives of the state and describe the above events with such accuracy and validity.

Now, we can see how deep and essential were the above results of the " καταστροφή " of Egypt on Rome. It was his task as a historian to find out the main sources of Roman wealth which prevailed in the early years of the Augustan rule.

---

(53) LI, 17. 6-8 ; 21.3.
(54) Id., 19.2.
(55) Id., 19.3.
(56) Id., 20.6-8.
(57) Id., 21.4.
(58) Id., 21.5.

Consequently, we may safely conclude that Egypt, at that time, was famous for its large quantities of MONEY (χρήματα) as a first source of wealth and . for its gold as it was in the New Empire period and precisely in the 18 th Dynasty.

It is also of great importance to note the Greek adjectives which Dio used describing that wealth:

- πολύς or πολλά = much
- πλῆθος = great, vast, etc.
- παμπληθῆ = huge, tremendous

On the other hand, all the previous references in Dio's text for the Ptolemaic treasuries under Cleopatra's rule indicate the Roman intention towards getting those riches by all means, otherwise, they would try to destroy them (Cf. quotation 7) as Dio above stated. It is quite enough to find Dio confessing the economic and social results of the spoils which the Romans gathered from Egypt.

We find it necessary to sum up those changes taken place in Rome after the destruction(καταστροφή), as Dio prefered to describe Egypt's subjugation,(51a) of the Ptolemaic kingdom. Our historian was really objective and trustworthy putting into his consideration the after Octavian's Victory consequences not only on Rome but also on the whole Italy, and the Roman empire. Those changes are understood as follows:

I- Chiefly because of Cleopatra's treasures, and some other sources, the whole Roman empire was enriched and its temples adorned.(52)

2- Great sums of money were paid everywhere: to the soldiers,

---

(51a) LI,21.7.

(52) LI,17.8 :
". τό τε σύμπαν ἥ τε ἀρχή ἡ τῶν Ρωμαίων ἐπλουτίσθη καί τά ἱερά αὐτῶν ἐκοσμήθη . ".

" τρίτην τε οὖν πρεσβείαν ἔστειλε, καί τόν υἱόν τόν Ἄντυλλον μετά χρυσίου πολλοῦ αὐτῷ ἔπεμψεν."

" ὁ δέ τά μέν χρήματα ἔλαβεν, ἐκεῖνον δέ διά κενῆς ἀνταπέστειλε, μηδεμίαν ἀπόκρισιν δούς. ".

7- (8.5-6): "....or else might destroy their wealth, which he kept hearing was of vast extent,........."

"....,ἤ καί τά χρήματα, ἅ παμπληθῆ ἤκουεν εἶναι , φθείρωσιν........................".

8- (8. 7) : "....she would make away with Antony and keep herself and her money unharmed."

"...,τόν τε Ἀντώνιον ἀναχρήσαιτο καί ἑαυτήν τά τε χρήματα ἀκέραια τηρήσειε.".

9- (11.2) : "At all events, she(i.e.Cleopatra)kept at hand fire to consume her wealth,................."

" ἀμέλει εἶχε μέν καί τό πῦρ ἐπί τοῖς χρήμασιν,..............................".

10-(11.3) : "Now Caesar was anxious not only to get possession of her treasures, but also to seize alive and to carry her back for his triumph,...."

" Καῖσαρ δέ ἐπεθύμει μέν καί τῶν θησαυρῶν ἐγκρατής γίνεσθαι καί ἐκείνην ζῶσάν τε συλλαβεῖν καί ἐς τά νικητήρια ἀναγαγεῖν,...........".

It is noteworthy that the words used by Dio in the previous passages referring to Cleopatra's richness are not the same in each case :

a) He more often uses the word (τά χρήματα)which indicates the money itself in drachms (δραχμαί),the well-known coins of that period.

b) Dio sometimes refers to that wealth of Egypt as "gold " or " golden " things(χρυσός)or (χρυσοῦν).

c) But, very rarely he used other words, for only one time each, such as (πλοῦτος) i.e.wealth and (θησαυρός)i.e. treasury.

Here was the real start of the drama's end.Dio,as we have seen, made a great emphasis on Cleopatra's wealth ((τά χρήματα),which he believed that it was the queen's first means in persuading any person and in doing any thing. He mentioned this more than ten times through IO pages of his text.

The places of Dio's text,where he referred to Egypt's wealth are as follows :

(All references here are quoted from Dio's History,Book LI and the translation is of Loeb Classical Library done by E. Cary, London 1917 (Rep. 1955).

I- (5.5) : ",and she (i.e.Cleopatra) proceeded to gather vast wealth .... "

"...,πολύν δέ καί πλοῦτον......ἤθροιζε ".

2- (6.3) : Antony and Cleopatra were ready to sail to Spain " and to stir up a revolt there by their vast resources of money and by other means,.."

"..,πλευσούμενοι καί τά ἐκεῖ ἄλλως τε καί τῷ πλήθει τῶν χρημάτων ἀποστήσαντες ,.........."

3- (6.5) : " Meanwhile Cleopatra,on her part,unknown to Antony,sent to him a golden sceptre and golden crown together with the royal throne,......."

"κάν τούτῳ καί ἡ Κλεοπάτρα σκῆπτρόν τε τι χρυσοῦν καί στέφανον χρυσοῦν τό τε δίφρον τόν βασιλικόν κρύφα τοῦ Ἀντωνίου,............".

4- (8.I) : "...Cleopatra promised to give him (i.e.Octavian) large amounts of money,......"

"...............................,ἡ μέν χρήματα αὐτῷ πολλά δώσειν ὑπισχνουμένη,...".

5-6(8.4) : "So Antony despatched a third embassy,sending him his son Antyllus with much gold.
Caesar accepted the money,but sent the boy back empty-handed,giving him no answer.".

II- Antony made a more serious step by sending Turullius to Octavian. At last he offered himself to the victorious as a ransom for Cleopatra's life (4I).

I2- Octavian put Turullius to death and gave no answer to Antony (42).

I3- Antony sent a third embassy with his son Antyllus bearing much gold (43).

I4- Octavian accepted the money, but sent the boy back empty-handed (44).

I5- Octavian changed his treatment of that problem and made a step towards putting a safe-for him of course-end : He pretended to be in love with Cleopatra(45).

I6- Antony left for Paraetonium to meet C.Gallus(46).

I7- Octavian took Pelusium(47).

I8- He marched against Alexandria(48)

I9- Antony returned back to Alexandria to meet Octavian(49).

20- Antony won a cavalry-battle but lost another(50).

2I- He took refuge in his fleet.

22- Cleopatra entered her tomb as a last chance of salvation and waited for Antony to follow her(5I).

(4I) LI,8:2. (42) Id., 3. (43) Id.,4 :"....μετὰ χρυσίου πολλοῦ αὐτῷ ἔπεμψεν."
(44) Id., "ὥστε τὰ μὲν χρήματα ἔλαβεν, ἐκεῖνον δὲ διὰ κενῆς ἀντιπέστειλε,..."
(45) Id., "καὶ ὅτι καὶ ἐρῶν αὐτῆς τυγχάνει,...."
(46) Id.,9:I. (47) Id.,5. (48) Id.,IO:I. (49) Id.
(50) Id.,I-3.
(5I) Id.,4-5: "...., καὶ αὐτὴ ἐς τὸ ἡρῷον ἐξαίφνης ἐσεπήδησε, λόγῳ μὲν ὡς τὸν Καίσαρα φοβουμένη ...., ἔργῳ δὲ καὶ τὸν Ἀντώνιον ἐκεῖσε ἐσελθεῖν προκαλουμένη· ".

4 - She gathered money from all sources in Egypt(32).

5 - Antony sailed to Africa and failed to persuade the Roman army there to fight to his side(33). Then he went to Alexandria.

6 - Cleopatra and Antony made preparations, hoping that they could wage a quick war both on land and sea (34).

7 - They had many alternatives and plans(35).

8 - Cleopatra began her <u>SECRET</u> contacts with Octavian by sending to him :

a) a golden sceptre (σκῆπτρον χρυσοῦν).
b) a golden crown (στέφανον χρυσοῦν).
c) The royal throne (δίφρος βασιλικός).

hoping that he, i.e. the victorious Octavian, would forgive her (36).

9 - Octavian threatened Cleopatra and Antony to surrender(37). That threat contained a <u>SECRET</u> proposal (38).

10- Antony and Cleopatra tried together to make Octavian take pity on them :

a) While Cleopatra promised to give him large amounts of money,(39)
b) Antony reminded him of their friendship and kinship (40).

---

(32) Id., 5. (33) Id., 6. (34) Id., 6, I-2.
(35) Id., 3-4. (36) Id., 5-6. (37) Id., 6 .
(38) LI, 6, 6: «....., λάθρα δὲ ὅτι, ἐὰν τὸν Ἀντώνιον ἀποκτείνῃ, καὶ τὴν ἄδειαν αὐτῇ καὶ τὴν ἀρχὴν ἀκέραιον δώσει.»
(39) Id., 8, I : «...ἡ μὲν χρήματα αὐτῷ πολλὰ δώσειν ὑπισχνουμένη, ...».
(40) Id., : «Ὁ δὲ τῆς τε φιλίας καὶ τῆς συγγενείας αὐτὸν ἀναμιμνήσκων, ...».

In a recent study, Prof. Etman concluded that Plutarch has created of Antony's character, by giving a balanced narative between his defeats and victories as well as his defects and merits, a tragic hero.(29)

On the contrary, we find Dio more inclined to give us a full description of the most important events with a fair distribution of the heroes' roles in that tragic drama. That means we have to see Octavian as a main character and the first hero of that drama.

It is of great importance that we must put in our consideration that ancient history, being a production of the remote past, is concerned, first of all, in doings and acts (ἔργα), and not in sayings. So we are going to try to understand the real impulses that pushed Octavian to continue his pursuit after Actium through his actions as Dio told us.

Dio's treatment of the relevant narrative runs as follows :

I - Antony and Cleopatra knew all Octavian's actions immediately after Actium(30).

2 - They went together to the southern part of Greece, viz The Peloponnese.

3 - . Cleopatra escaped to Egypt pretending that she won the battle(31).

---

(29) "Cleopatra and Antony : a study in the art of Plutach, Shakespear and Ahmed Shawky ", Ἀθηνά, τόμ. ΟΗ', Ἀθῆναι 1981, σσ. 97 – 107.

(30) LI, 5:2-3.

(31) Id., 4.

About fifty years later, we find our main source of Augustan conquest to Egypt, describing the drama of the most famous characters in the last decades of the first century B.C. It is the Roman senator and historian Dio Cassius(I55 - 230 A.D.). He wrote the last scenes of the tragedy of Antony and Cleopatra after Actium. It is noteworthy that no-body before Dio, not even Plutarchus[26], had specified a whole book in his narratives relating to the events and the circumstances of the Octavian's conquest tof Egypt.

Plutarchus, though an earlier historian?(46-I20 A.D.) by about one century, wrote a detailed biography of Antony [27] as a separate character among his 50 LIVES. Here I find it necessary to quote Clough's comment on Plutarch's Lives saying : "It is true, also, that his unhistorical treatment of the subjects of his biography makes him often unsatisfactory and imperfect in the portraits he draws . [28]" . Plutarch's portrait for Caesar Augustus, whom he dared not to include in his LIVES separately as he did with Antony, is incomplete and says nothing of that great leader and unique politician:

---

(26) Cf. Dryden, J., Plutarch, the Lives of the Noble Grecians and Romans, (Rep. by the Modern Library, New York of the first edition I846), Revised by A.H. Clough.

(27) For an English translation, see, e.g., the above edition of Dryden, pp. II05-II53. And for both the Greek text and an English translation as well, see Perrin, B., Plutarch' Lives, L.C.L., vol. IX(I959) pp. I38-343, including the comparison.

(28) Dryden, op. cit., the Introduction, p. XVIII.

I . Pompey did not advance into Egypt itself.[(19)]

2 . Though he had an invitation from the Ptolemaic king, in order to help him subduing a local revolt.[(20)]

3 . The Egyptian king sent to Pompey gifts and money. He also sent him clothing for the whole Roman army [(21)].

Immediately after that Appian tried successfully to explain Pompey's behaviour in this occasion, c.63-62 B.C. The historian's opinion can be summarized as follows : Pompey did not enter Egypt because :

a)He was afraid of the greatness of that country and its wealth [(22)].

b)He prefered not to irritate his enemies' feelings and provoke their envy [(23)].

c)He believed that in this way he kept himself away from bad omens [(24)].

Appian, in addition, thought that there were perhaps other reasons, which he will speak about in a separate volume called "τὰ Αἰγύπτια",[(25)] which we never found it.

---

(19) White, H., Appian's Roman History (Loeb Classical Library, Great Britain, rep. 1955), vol. XII, p. 461, The Mithridatic Wars, Chap. XVII, 114 :
" ἐς δὲ Αἴγυπτον αὐτὴν οὐ παρῆλθε.. "

(20) Ibid., " καίτοι στασιάζουσαν ἐς τὸν βασιλέα, καὶ καλοῦντος αὐτὸν αὐτοῦ βασιλέως,..... "

(21) Ibid., " καὶ πέμψαντος αὐτῷ δῶρα καὶ χρήματα καὶ ἐσθῆτας ἐς τὴν στρατιὰν ἅπαντα,..... ".

(22) Ibid., " εἴτε δείσας μέγεθος ἀρχῆς ἔτι εὐτυχούσης ".

(23) Ibid., " εἴτε φυλαξάμενος ἐχθρῶν φθόνον... ".

(24) Ibid., " ἢ χρησμῶν ἀπαγόρευσιν,..... ".

(25) Ibid., " εἴτε ἑτέροις λογισμοῖς, οὓς ἐξοίσω κατὰ τὰ Αἰγύπτια. ".

from him.There are many other reasons,which we can guess as probable factors of subduing Egypt at that time,immediately after Actium,though the strategic issue was settled undoubtedly on behalf of Octavian.

A reading in Dio Cassius(155-230 A.D.),is quite enough to learn those factors.Some may ask," Why Dio Cassius ? ". That is simply because none of the syncronoush sources is reliable as a historical record. Unfortunately what we have ,even in Livy(59 B.C. — 17 A.D.) is entirely irrelevant to Augustan period. Livy prefered to be in the safe side narrating events of the remote past.(18)

We are still searching for an answer through our readings in ancient texts of later historians.

Let us consult Appian's " Ρωμαϊκά "(95-165 A.D.) where he refers to Pompey's exploits in the East.This writer,though Pompey had nothing to do with Egypt at that time and did not make any military operation into that country of the Pharaohs,could not leave that part of the most ancient and civilized people in antiquity without giving us some informations :

---

(18) On the contrary of what was expected from him as a martyr who should witness his society and reflect what he sees and what he hears as well in his bulky work "Ab Urbe Condita",Livy devoted himself to extensive details of the past,such as the fabulous address ofLucius Lentulus to the Roman consuls after the fight of Caudinae in 321 B.C.(Cf.IX : 4,8-16).

(αὐλητής)to get his throne back in Egypt in 57 B.C.(I5) Gabinius was accused by Pompey's enemies.Later on,Primus,the Roman governer of Macedonia under the Princi - pate,c.25-23 B.C.,was accused also for " maiestas " because of his attack against the " Odrysae ",the friendly Thracian tribe,Here,again,Primus acted after Augustus' orders to him.In Primus' trial,Augustus came to the court and denied his role(I6)

Lacey,in a good decumented analysis,came to the following conclusion :

" In both cases men came forward to protest against military "principes",using the foreign relations of the " Res Publica " for their own purposes by prosecu- their henchmen (I7). ".

Thus,can we consider the above two events of patronage of Pompey and Augustus as "antequem" evidence for what we already doubted concerning the emperor's statement about Egypt's STATUS in his RES GESTAE ?

Knowing that peculiar feature in Augustus' character,i.e.he was very cunning and clever leader,as the Greeks usually describe such personalities by using the epithete " πολύτροπος ",we may expect him telling the half truth in his'Res Gestae'about Egypt in particular.Then,it is not impossible for a leader or (Pater Patriae)to show only what his people expect

(I5) Ibid.,p.3I.
(I6) Ibid.
(I7) Ibid.,p.32.

tween us and them makes this evaluation of those sources a big task.

Before getting through Dio's Text, which "τύχη", the fortune had preserved to us among the other lucky books of this great historian, we believe that it is of great importance to cast a look upon the opinions of some recent scholars about relevent details. That is because these points of view may throw light on the Augustan behaviour towards Egypt and perhaps we can find some clues to that great leader's personality and conducts in accordance with those of his forerunners, viz Pompey and Caesar.

1. In 1978, John Leach in his biographical book about Pompey, referring to his relationship with the East and especially his role in the Egyptian "Dielemma" with the other Roman generals, said : " Pompey's followers in Rome may have been influenced more by Ptolemy's gold than by their leader's wishes . ".(13)

2. In 1980, Lacey wrote a very concise and important article concerning the patronage(Clientela) of high leaders(principes), such as Pompey for Gabinius and Augustus for Primus.(14)

In the first case, Gabinius, after a secret approval of Pompey, he helped the king Ptolemy the Auletes

(13) Pompey the Great, London 1978.
(14) " Primus and Gabinius ", Greece and Rome, vol.27 (1980), pp.31-33.

estate.Of course there were many reasons in Octavian's mind,but we have nothing ,which might be mentioned literally and directly. refered to that matter, neither in Augustan syncronous poets nor in Livy . He,moreover,did not mention any thing except,as we have seen before,those five words concerning Egypt in his "Res Gestae.

To answer the above question we have to go back some decades before Actium so that we can guess the real impulses of Octavian's towards Egypt.

First,we must determine that our sources, at least now in absence of contemporary evidences of any kind,are the histories and biographies of later writers,such as Suetonius,Tacitus,Appianus,Plutarchus and Dio Cassius.

Consequently,we have to be more careful dealing with those sources because many anecdotes exist in the biographies of the emperors,especially those , which were written by Suetonius and in " Historia Augusta " (I2).

In fact,it is our responsibility,as historians, to investigate all the stories given by ancient writers,But it is true as well that the gap of time be-

---

(I2) Saller,R., " Anecdotes as Historical Evidence for the Principate ",Greece and Rome,27(I980), p.72.

In Actium 3I B.C., a military confrontation took place between the two ambitious Roman leaders with a decisive strategic victory on behalf of Octavian.

In 30 B.C., Egypt was subdued to the Roman yoke, and then Octavian became the sole master of the whole Roman empire, especially after the suicide of Antony and Cleopatra. Since that date, and precisely after 27 B.C. decree, Egypt was adminstrated by a prefect chosen by the emperor himself as his personal representative.(9).

Why did Augustus consolidate Egypt as if it were his own personal property or as something like a pocket borough of the emperor ? (IO)

In a very recent article we read the following : "Augustus gave control of the empire's more peaceful provinces to the senate. But he kept control of frontier provinces that needed protection or pacification, and maintained a standing army for this task.(II) ".

Does this mean that in 27 B.C. decree Augustus kept Egypt for himself because it was :

a) a frontier province , and

b) needs protection or pacification ?

Unfortunately we could not find any reason that betrays Octavian's speculations ruling Egypt as his own

---

(9) Lewis, op.cit., p.I5.
(IO) Ibidem.
(II) Gyles, M.F., The World Book Encyclopedia, vol.I, U.S.A. 1968, pp.893-894, s.v. Augustus.

As wey know a great dispute had happened between the Roman patricians and the plebians about the land owned by the state,viz " ager publicus ",outside Latium.This was very early in the first decades of the Res Publica.Every part wanted to add those new terrótories to his own domain [6]

In fact,the patricians were very shrewd and tried by all means to calm the " plebs " .But the prob - lem of possessing a territory by a victorious Roman leader for his own account or just adding it the public ownership(ager publicus) was still causing the interference of the " Senatus " ,for some compromises as it usually did,And nearly after four centuries and half,in 27 B.C. decree between Augustus and the Senate this problem came again to light.

A little bit earlier,after 40 B.C.,Antony and Octavian came to an agreement which divided the Roman empire between them.[7] Here,we agree with Naphtali Lewis saying : " Octavian and he (i.e.Antony)both knew that a show-down between them for the sole control of Rome and its empire was inevitable,and in choosing " Egypt and the resources of the East(together with) an Egyptian spouse ", Antony obtained the command of the Roman world that was by far the richer in men and treasure .[8] ".

---

(6) Grant,M.,History of Rome,Great Britain 1978,p.64.
(7) Ibid.,p.200.
(8) Op.cit.,p.14.

So, Augustus was quite aware of Egypt' STATUS under his reign.

Prof. Ali was the first Arab scholar who dealt with this problem and said : " All official syncronous records did not mention the name of Egypt accompanied by the word " provincia ", and though Dio Cassius refered to it among the provinces which were left to the emperor's domain in 27 B.C., its Status Had not been affected, in reality, by the decree of that year, and remained as it was when conquered by Octavian. It was ruled by a system and administration entirely and basicly different from those prevailing in other provinces[4]. " .

It is noteworthy that prof. Ali came to the previous conclusion after studying thoroughly all possible sources and criticising all other opinions[5].

Here, however, our approach to this pooblem is more inclined to search for the possible reasons that tempted Augustus to rule Egypt in a peculiar way. And more precisely, we are going to mark some notes concerning Dio' s narration in his " " about Egypt's conquest by Octavian in 30 B.C.

(4) Egypt and the Roman Empire under the light of Papyri, (Arabic), Cairo 1965, pp. 48-49.

(5) Ibid., pp. 49-57.

My paper, here, tries to reconsider and re-examine the STATUS of Egypt under the Roman empire. My main source is the Dio' ROMAN HISTORY and his relevant narration concerning Egypt.

In other words, we aim at giving an answer for the following question :

Why did Augustus say, so simply and designedly in a carefully bland statement (I), in his monument of Ancyra : (2)

Res Gestae : " Aegyptum imperio populi Romani adieci".

Was Augustus telling the truth or not and why ? , though it is understood by all later historians and scholars of Roman history that he kept it under his direct control.

We are also going to fetch the real reasons, which pushed and encouraged Augustus to continue his pursuit after his foes, Antony and Cleopatra. In Dio's text we find many, but our task is to put and arrange them, according to their importance, in a series.

First, we must not forget that Augustus erected that stela and distributed it in all provinces of the Roman empire toward the end of his life. Second, he never described Egypt as " PROVINCIA ", in spite of refering to Armenia, in the same monument, as province. (3)

(I) Lewis, N., Life in Egypt under Roman Rule, Oxford I983, p.9.
(2) Mon.Ancyr., 27.I.
(3) Ibid., 27.2 : "Armeniam .... cum possem facere provinciam

[2] Roman Egypt

the land; they did not improve the condition of the people. There was no desire to oppress the Egyptians; but there was no desire to help them, beyond keeping them fit to work, a thing done by every business-like slave-owner. Even that failed at the end; and though the political history shows that there was still plenty of wealth in Egypt at the top,[1] many of the common people, under the rule of 'corrupt, greedy, and lawless officials', became sunk in poverty and apathy. If the Library and the Museum glorify the Ptolemies in the eyes of world-history, that did not help their subjects; and material wealth and wealth of material need not blind us to the fact that their government, ethically considered, stood well below that of the other two Macedonian dynasties. The Antigonids, with small resources, but national rulers of a free people, were the shield of the Greek world against northern barbarism and enabled the growth of the rather wonderful culture of the third century; the Seleucids, overweighted and overworked, nevertheless strove, not without success, to raise the civilisation level of half a continent. But the Ptolemies farmed their estate and filled their Treasury.

[1] Isidorus' Hymns to Isis, *SEG* VIII, 548 *sqq.*, esp. 550, 551 (Fayum, early 1st century B.C.), may suggest the same.

an unknown writer of the third century, who has left an invaluable fragment on the theory of the Hellenistic monarchy, condemned some king—he certainly meant the reigning Ptolemy—who treated his people's possessions as his own[1]; and also enables us to study, both in its earlier efficiency and its later brutality and decay, the great bureaucracy which largely supplied the model for that of Imperial Rome. The widespread belief that the earlier Ptolemies were the fathers of their people, ready to fulfil the dictates of philosophy,[2] rests on scarcely any evidence except some exhortations to the officials to behave properly, even when, contrary to the custom elsewhere, the whole loss of a bad crop was being thrown on the peasantry; and we know too well the value of good and noble sentiments unaccompanied by action. Action did, no doubt, occasionally take place: Ptolemy III did remit some taxes in a year of a low Nile and famine,[3] and Ptolemy V is said in a priestly decree to have remitted a number after his accession,[4] but as he was only a child, whatever was done was done, not by that cruel ruler, but by his Greek minister Aristomenes of Acarnania. Certainly the later Ptolemies strove, *so far as they could*,[5] to protect their subjects against the monster which their fathers had created and which they continued to employ; but they were no longer strong enough to do more than issue edicts of which the bureaucracy took no notice.[6] These kings were not unpopular with the people; they were merely something remote, having little connection with the bureaucracy which governed that people's daily lives.

Doubtless the early Ptolemies desired to acquire money as an aid to the construction of a strong state; their condemnation is that the money they acquired was in no sense used for the benefit of those who made it. They improved

[1] Suidas, *βασιλεία* 3.

[2] See in the last place Rostovtzeff, *SEH* 911, 1379 n. 83, 1552 n. 191. Schubart's interesting article in *Archiv* XII (1936) p. 1 deals, not with what was, but with what ought to have been.

[3] *OGIS* 56 l. 18.

[4] *OGIS* 90 ll. 13 *sqq.*

[5] Rostovtzeff's phrase, 911.

[6] C. Preaux, *Un problème de la politique des Lagides; la faiblesse des édits*; Atti IV Congr. Pap. 153 *sqq.*, cf. *C.d'É.* 1937, 292, and *ib.* 1935, 343.

selves aloof; but a new mixed race formed intermediate between Greeks and fellahin, and Hellene came to mean a man with some Greek *culture*.[1] The dynasty came to rely, too, on many who were not even called Greek, like the bilingual non-Greek soldier Horus, or Hor, of the Adler papyri, who, whatever his race of origin, was called 'descendant of a Persian', and who may be taken as typical of his period: he was on active service in the Thebaid for about thirty years beginning in 124, on guard with others like him in a district which certainly needed watching.[2] The living Greek language of the third-century papyri was replaced by the barbarous Greek of the natives; some Greeks too learnt Egyptian.[3] The Egyptianised Greek adopted native religion[4] and customs, even to embalming his dead; in the first century brother and sister marriage appeared among Greeks,[5] and became so common that Rome subsequently had to stop it; even those who had passed through the gymnasium made offerings to Egyptian gods.[6] Popular literature began to prophesy the downfall of the hated Alexandria.[7] What the Ptolemies had brought to Egypt was not the spirit of Greece, but only external forms; by the first century Egypt was fast absorbing the foreign element in her body, and Augustus, to save what remained of Hellenism, had to return to Ptolemy I, nurse the Greek element, foster the gymnasia, and again break the re-acquired power of the priests.

Egypt was Ptolemy's estate. It enables us to study a thorough-going system of nationalisation, so thorough that

[1] Bell, *op. c.* 146; Otto, *Phil. Woch.* 1926, 39. Perhaps the weakening of Greek family organisation is illustrated by the appearance of marriages without *ἔκδοσις* of the bride (*συγγραφὴ ὁμολογίας*): so H. J. Wolff, *Written and unwritten marriages in Hellenistic and postclassical Roman Law*, 1939, esp. ch. I.

[2] *P. Adler, passim.* On the comprehensive term *Πέρσης τῆς Ἐπιγονῆς*. cf. p. 199 n. 5 *ante*, and see *P. Adler*, p. 3 n. 1 (bibliography), and M. Launey, *op. c.* I, 569.

[3] Wilcken, *Chrest.* no. 136.

[4] As *OGIS* 111, 130, 175; cf. Bell, 'Popular religion in Graeco-Roman Egypt', *J.E.A.* XXXIV, 1948, 82.

[5] Bell, *op. c.* 146.

[6] *OGIS* 176, 178.

[7] *Potter's Oracle* col. II l. 2 (see p. 228).

ambitions of Rome, and entertained the great idea of constructing a national Graeco-Egyptian monarchy; beside his other reforms he remodelled the native army organisation and made an Egyptian, Paos, his 'kinsman' and governor of the Thebaid.[1] His aim, like that of Antiochus Epiphanes, was to strengthen his kingdom as against Rome on a new basis; and by admitting Egyptians to participation he hoped to avoid the difficulties which had wrecked Antiochus' purely hellenising policy. But he in turn failed to create a national monarchy because it was incompatible with the economic system of Ptolemy II, and he did not attempt to revise that too lucrative system; hence he was unable to win over the Egyptians, and revolts continued till in 85 Ptolemy Lathyros suppressed the last and partly destroyed Thebes.

Many things illustrate the native revival[2] after 200, and the Egyptianising policy of the kings. No more great estates were conferred on Greek officials. Many new asylums were made or old ones restored; between 93 and 57 four were created in one village, Theadelphia,[3] and the right became so abused that Rome curtailed it drastically, though possibly it lasted till the Christian Church took it over. Under Euergetes II the long struggle between the calendars ended in the Macedonian having to conform to the Egyptian. After Raphia the Egyptian warrior-class, the *machimoi*, was revived; they were made cleruchs with smaller lots, and the Greek cleruchs began to be called *katoikoi* for distinction; later *katoikoi* came to mean cleruchs of Greek *culture*; finally *katoikoi* and *machimoi* lost all racial meaning, and only meant men who held larger or smaller lots.[4] In 215 a Greek and an Egyptian were joint tenants in a lease,[5] and after 200 mixture of blood began; names ceased to be any criterion of race,[6] as some natives rose in the scale and took Greek names and some Greeks sank; Greek and native names occur in the same family. Some Greeks kept them-

[1] *OGIS* 132.
[2] Generally: Oertel, *N.J. Kl. Alt.* XLV, 361; Bell, *J.E.A.* 1922, 139; Schubart 307.
[3] Lefebvre, *Ann. Serv.* XIX, 37.
[4] *OGIS* 731; Oertel, *Katoikoi* in P.W.
[5] *P. Frankf.* 2.
[6] Earliest case, Wilcken, *Chrest.* no. 51 (Ptol. III).

without proper trial, and re-established the power of the native judges, the Laocritae, on the basis that in contractual cases between Greek and Egyptian the forum should depend on the language of the contract, but that all suits between Egyptians should go before the Laocritae. He also introduced a number of measures for protecting the person and property of the taxpayer, and for repairing the damages of the war; for equity and fair-mindedness his regulations stand high above most things of the second century. He had little success, though the dynasty lasted another century, and in spite of a succession of poor rulers remained strong enough to conduct further exploration southward and to make a tolerable fight against Caesar. But the economic system itself Euergetes did not question; his aim was to restore its efficiency and to get it justly administered.

Raphia had aroused the national consciousness of the Egyptians, and in the second century the Greeks were on the defensive.[1] The priestly decrees for Ptolemy IV after Raphia[2] and for Ptolemy V (the Rosetta stone)[3] show strong Egyptian colouring and give to the kings the titles of a native Pharaoh; Ptolemy V was crowned in Egyptian fashion at Memphis, which became a second royal residence; the native risings which began in 216 culminated in the great revolt under Ptolemy V, and continued spasmodically throughout the century. Euergetes II greatly extended the powers, privileges, and possessions of the priesthood in an attempt to conciliate the natives. This strange man was hated by the Greeks—by the literary men because he temporarily broke up the Museum, by the Alexandrians because in the civil war he had let his troops loose on the hostile mob, by all because, as they thought, he favoured the Egyptians; and they have blackened his memory accordingly. But he partially understood the position, realised the

[1] On the Egyptians see in general Préaux, 'Esquisses d'une histoire des révolutions sous les Lagides', *C. d'É.*, 1936, 530; and 'Les Égyptiens dans la civilisation hellénistique', *ib.*, 1942, 148.

[2] Gautier and Sottas, *Un décret trilingue en l'honneur de Ptolémée IV*, 1925; Spiegelberg, *Bay. S.B.* 1925, Abh. 4; translation in Bevan, 388.

[3] *OGIS* 90.

Raphia.[1] The leading cause was Raphia itself (see pp. 22, 61), coming at the end of a century during which the Egyptians, though not positively oppressed, had been systematically exploited by foreigners who took their own superiority for granted.

But once the influx of Greeks ceased, even the military power of the Ptolemies soon decayed, and in 168 only Rome's intervention saved Egypt from conquest by Antiochus Epiphanes. The Ptolemaic system depended absolutely on the competence and honesty of the officials; it may have worked well in the strong hands of Ptolemy II, but under the weaker kings of the second century abuses began to multiply, till in the long civil war between Euergetes II and his sister Cleopatra II officialdom finally broke down. Euergetes' great series of decrees[2] about 118 give a vivid picture of the disorganisation: officials were collecting or extorting money for their own ends, and had seized the best of the King's land; they forced the people to work for them without payment, quartered troops on those exempt, cheated the taxpayer with false weights and measures, and seized even royal peasants for debt, with their cattle and implements; Egyptians were dragged before the Greek courts, and, worst of all, were imprisoned without trial by the officials themselves. Was the fault in the officials or in the system? Probably both; the system could only work decently if administered by men superior to the common failings of humanity. Doubtless the long civil war aggravated the mischief; but, whatever the faults of Euergetes II, once that war was over he met the evil vigorously, even to the imposition of the death penalty, stopped imprisonment

[1] A. Segrè in *A.J.Ph.* 1942, 174; G. Mickwitz in P.W., *s.v. Inflation*; Tony Reekmans, 'Economic and social repercussions of the Ptolemaic copper inflation', in *C.d'É.*, 48, 1949, 324. See also Rostovtzeff, *SEH* 710, who attributes the unrest mainly to high taxation, which amounts to the same thing, in the years (before 211) when taxes had to be paid in silver. On the coinage generally, see the full references in Rostovtzeff, *ib.* 1416 n. 201.

[2] *P. Tebt.* I, 5, with the commentary; summary, Bevan, 315; Preisigke, *Archiv* V, 301. Fully discussed, Rostovtzeff, *SEH* 878-96; and see Préaux, 'La signification de l'époque d'Euergète II', *Actes V^e Congr. Pap.*, 1938, 345.

Lake Moeris,[1] by his wife Metrodora after his disgrace and fall is a credit to human nature. The letters show a much greater degree of freedom among women than was expected, and they also show one of those strange contradictions of which Hellenism is full—a large measure of family affection and frequent exposure of children[2] (see p. 101).

But the Ptolemies, for all their early successes, failed to build a permanently powerful state on the exploitation of a people. And the economy of the kingdom itself, for all its wealth, was not so stable as it may have seemed. External shocks and internal stresses took effect. Ptolemy I had introduced a silver coinage, strange to most Egyptians, the mass of whom had not previously outgrown barter. But the Ptolemaic copper coinage was the one most used by the common people, the ratio of copper to silver being 60 : 1 (not very different from the ratio at Delos in the third century); some taxes, however, could be paid only in silver and others in silver or in copper with an agio. After 220 the ratio of 60 : 1 became disturbed, owing apparently to a scarcity of silver (though the symptom was not as yet widespread elsewhere in the Mediterranean). Although the consequent rise in prices (in terms of copper) was checked by the Government's decision in 211 to accept payment of taxes in copper, the balance was upset again in the 180's consequent on an approximate doubling of the Mediterranean ratio of copper to silver. In 174–3 the ratio 480 : 1 (the free market rate in Egypt by this time) was officially accepted for the conversion of tax-payments in copper, and the rise in prices was not immediately compensated by corresponding increases in wages, presumably for fear of an uncontrolled inflation. Altogether this copper inflation, the fluctuations of which cannot have failed to undermine confidence in the currency and to have caused hardship particularly to the poorest people, must be counted as a contributory cause of the native unrest in the period after

[1] Bouche-Leclercq, *Rev. E.G.* 1908, 121.
[2] Schubart, *Einführung*, 467.

school exercises in plenty, the subjects being reading and writing, some grammar and mathematics, and Homer; but illiteracy was not uncommon. Gymnasia were founded in all the nome capitals (*metropoleis*) and even in villages where Greeks were numerous, like Philadelphia in the Fayum; later one is found at Thebes[1] and even as far south as Ombi near the First Cataract.[2] With the gymnasium came the ephebe system. As to secondary education, many authors were apparently read, but rhetoric was the principal subject, for it led to the higher offices; mathematics were studied for land surveying and for working the complicated equations between the Egyptian and Macedonian calendars, so complicated that Apollonius' steward Zeno sometimes gave up trying to guess *what* day it was by Macedonian reckoning.[3] The formation of private associations extended to the native Egyptians; a long list of trade associations is known,[4] but it is not certain if they were more than religious and social centres. The mercenaries formed numerous clubs, some local, as the mercenaries in Cyprus,[5] others on an ethnic basis which called themselves *politeumata*[6] as though they were part of the state—those of the Cretans,[7] Idumaeans,[8] Cilicians,[9] Boeotians,[10] are known; their nationality of course soon became only a name. But the Greeks themselves, scattered about Egypt and unable to form cities, formed themselves into true *politeumata*; each might cover a considerable district—we get 'the Greeks in the Delta', 'in the Thebaid', 'in the Arsinoite nome',[11]—but the members imitated what of autonomous Greek organisation they could. Private life is illustrated by masses of extant correspondence, sometimes quite interesting; the letter[12] written to Cleon, the hydraulic engineer who drained

[1] *Rev. E.G.* 1924, 359. [2] Wilcken, *Archiv* V, 410.
[3] Edgar, *Ann. Serv.* XIX p. 32, XXIV p. 29.
[4] San Nicolo, *Äg. Vereinswesen*, I, 66; and in *Epit. Swoboda* 1927, 255.
[5] *OGIS* 143, 145–8, &c.
[6] Discussed fully by M. Launey, *op. c.* II 1064 with references.
[7] *P. Tebt.* 1 no. 32. [8] *OGIS* 737.
[9] *SEG* VIII 573. [10] *SEG* II 871.
[11] *OGIS* 709; Plaumann, *Archiv* VI, 176; Schubart, *Einführung* 247.
[12] Witkowski, *Epist. priv. graecae* no. 6.

prison for a limited time (say for the harvest) so that his labour might not be lost altogether. This had nothing to do with the liberty of the subject, but only with the man's work. Finally the whole bureaucratic system began to break down, and the brutality and greed of the officials passed all bounds; what the condition of the country became under their rule, with the kings little but ciphers (p. 208) can be seen in the great series of decrees issued by Ptolemy Euergetes II (p. 204).

The power of the priestly caste, the only remains of the old native aristocracy, was early broken; the king took the temple lands, the peasants on which became indistinguishable from the royal peasants, caused all priests to come to Alexandria to celebrate his birthday, and deprived them of their lucrative monopolies of oil and flax; he did, however, allow the temples—and this was the most important breach in the State monopolies—to manufacture sufficient linen and oil for their own use. The priestly caste had also to help to fill the smaller administrative offices, service in which was compulsory; the priests could hold meetings (synods),[1] but only apparently to regulate religious matters, and to confer honours on the king. But the kings at the same time took care not to offend the strong religious susceptibilities of the natives; they distinguished gods from priests, honoured and fostered the Egyptian religion, provided endowments, and built native temples at Dendera, Edfu, Kom Ombo, and Philae; for Ptolemy, like Pharaoh, was himself an Egyptian god, the Sun-god's son.

The Greeks[2] came to Egypt to grow rich; so far as they could they transported to Egypt their own life, and for a century did not mix freely with the Egyptians. They brought their own gods, read Homer and Euripides, and formed endless clubs. Their elementary education was neither compulsory nor run by the State, one of the few things in Egypt which was not; we have school books and

[1] Spiegelberg and Otto, *Bay. S.B.* 1926, Abh. 4.

[2] Generally: Bell, *J.E.A.* 1922, 142; Schubart, *Die Griechen in Ägypten*, 1927.

partly also through poverty and its consequence, more frequent exposure of children; there were fewer cultivators, and land began to go out of cultivation. When this happened, the officials would order someone else to cultivate the vacant farm in addition to his own; this was most unpopular, and that in turn reacted on the tempers of the smaller officials, who were personally liable for the State receiving its due; as full cultivation became more and more difficult to maintain,[1] they became more exacting and brutal; men not ready with their taxes were freely thrown into prison, and an Egyptian prison was a horror.[2] For a time, it would seem, some of the higher officials tried to behave honestly; they would make adjustments in difficult times,[3] or attempt to keep their subordinates in order; we possess an admonition[4] by a *dioiketes* to his *oikonomoi* to treat the people kindly and honestly, which shows it was not being done. But something happened more important than strikes, for a strike by its nature envisaged a final return to work. Peasants, unable to pay their taxes and dreading official brutality, would abandon their land altogether and try to escape (*anachoresis*)[5]; the man might get no further than sanctuary, but, if he had luck, he might get right away and join some native prince in revolt or the brigands in the marshes. This ended in the officials making the whole village responsible for the defaulter; the village had to pay his taxes and cultivate his land, the system of 'collective responsibility' which was to play such a part in ruining the Roman Empire.[6] But even so, whether a man escaped or was imprisoned, the State was short of one man's labour; and a system was invented—it had to be—whereby a prisoner was given a safe-conduct (*pistis*)[7] which released him from

[1] C. Préaux, *C.d'É.* 1935, 343.

[2] Cumont, *L'Égypte des Astrologues*, 192. [3] C. Préaux, *op. c.* p. 504.

[4] *P. Tebt.* III, 703; see Rostovtzeff, *SEH* 1421 n. 212.

[5] *Anachoresis*, see C. Préaux, *Écon. royale*, 500 *sqq.*, and in *C.d'É.* 1935, 343; cf. M. N. Lewis, *J.E.A.* XXIII, 1937, fasc. 1 (see *C.d'É.* 1938, 176).

[6] C. Préaux, *Écon. royale* p. 509.

[7] *Pistis*, C. Préaux, *ib.* 533–44, and in *C.d'É.* 1935, 109 *sqq.* See also the refs in n. 5 (above).

this system, stricter than anything they had ever known, and even in the third century, as well as later, strikes,[1] an old Egyptian custom, were numerous; not merely riots in which the manager got beaten, but regular withdrawals of labour; strikes are known of miners, quarry-men, boatmen, workers of all sorts, royal peasants, retailers, police, even officials. Workmen's strikes were not strikes for better wages or conditions, for there were none to be got; they were the product of blank despair, aggravated perhaps by some accident, as delay in sending seed-corn. The men had one weapon which officialdom feared; they could throw the machine out of gear by leaving their 'own place'. A strike notice reads: 'We are worn out; we will run away'[2]; and they usually took refuge in some temple with the right of asylum.[3] Asylum has been called the Egyptians' *Habeas Corpus*[4]; Ptolemy's power ended at the precinct wall, and the worried officials had no weapon but persuasion or some little concession with which to get the men back to their 'own place'. The first three Ptolemies reduced the number of temples that could give asylum; to abolish or violate the right even they did not dare. It is the more noteworthy, and evidence of the hatred felt in Egypt for Persian rule, that the Egyptian priests, with the sanction of Ptolemy I, themselves denied the right to one class, the descendants of Persians settled in Egypt. These cannot have been numerous, but their exclusion gave rise later to a strange legal fiction: creditors bringing actions would describe the debtor, whatever he was, as 'descendant of a Persian', to prevent him taking sanctuary.[5]

But by the second century things were changing, especially as regarded the peasantry. The country population was falling,[6] partly because of civil wars and revolutions, but

[1] Bouché-Leclercq, *Rev. E.G.* 1908, 140; Rostovtzeff, *J.E.A.* 1920, 178.

[2] *P.S.I.* IV, 421.

[3] Fr. von Woess, *Das Asylwesen Ägyptens*, 1923, and in *Z. d. Savigny-Stiftung, Röm. Abt.* 1926, 32.

[4] Woess, *Asylwesen*, 3.

[5] Following Tait, *Archiv* VII, 175; see Bell, *J.E.A.* XI, 98; F. Zucker, *s.v. Πέρσαι*, in P.W. XIX, col. 917 *sqq.*

[6] C. Préaux, *op. c.* 492.

the upper stratum, which supplied the bureaucracy, comprised the Egyptian priestly caste, the cleruchs (who were tending to form a military aristocracy), the civilian occupiers of 'private' land, and the Greeks of the three cities; the lower consisted of the vast mass of fellahin. The fellahin had no education, and orders, especially those relating to taxes, were often issued in demotic,[1] the late-Egyptian speech of the time. They suffered from the very efficiency of the system under which they lived; it had been tightened up till there were none of those loopholes for evasion which have so often tempered rigorous conditions in the East. Poor as their life was, they knew nothing better; but it is obvious, from the numerous risings from 216 onwards, that there was much discontent. For wages, an artisan got 2–3 obols a day, a labourer (in 254) one obol for heavy work, less for light.[2] Even on the wretched Greek standard (p. 120) such wages seem impossible; but bread was so cheap that it has been said that real wages, if the price of foodstuffs be taken into account, were higher than in Greece.[3] There was, however, except in the mines, no slavery in Egypt, apart from the household slaves of the Greeks; native labour was too cheap and too thoroughly controlled for slavery to be worth while.[4]

It has been noticed (pp. 187 *sq.*) that the Ptolemaic system was based on two principles, that each man had his 'own place' which he could not leave without official orders or permission, and that the king's cultivation must be carried on. The system may not have been too difficult to work under Ptolemy II, with a strong king who could manage his officials; it was a *dioiketes* who said of the system, 'No one has a right to do what he wishes; all is ordered for the best.'[5] But from the start the native Egyptians disliked

[1] Schubart, *Einführung* 307.

[2] Oertel, *N.J. Kl. Alt.* XLV, 364; Westermann and Laird, *J.E.A.* IX, 81; Beloch IV, 1, 321.

[3] Rostovtzeff, *SEH* 412 and 1420 n. 209.

[4] For slavery, see W. L. Westermann, *Slavery in Ptolemaic Egypt*, 1929, and *s.v. Sklaverei* in P.W.; Rostovtzeff, *SEH* 1393 n. 119.

[5] C. Préaux, *Écon. royale*, 566.

elements from Athens and (possibly) Asia Minor.[1] The Ptolemies recognised the Greek principle that law was personal, not territorial, and that the Egyptians must live under their own law; they had their old native judges, the Laocritae, their native land-law was translated into Greek, and later in the third century a special tribunal was erected to judge disputes between Greeks and Egyptians, taking account of both laws. For judging Greeks, panels of judges called Chrematistae, usually three in a panel, were created, each panel going circuit in its own district; appeals lay to the Chief Justice in Alexandria. Egyptian law could be pleaded before the Chrematistae. and they tended in time to oust the Laocritae. Naturally the two laws began to influence each other, but on the whole the Greek grew at the expense of the Egyptian. But much more important was the encroachment of the administration upon the law. A judge is actually found taking orders from Apollonius,[2] and even Greeks, if in conflict with the Treasury, were not allowed to employ advocates.[3] Also a habit grew up of taking to the administrative officials all small matters (magistrate's cases) instead of waiting for assizes, and in the second century the officials were fast cutting into the judges' powers, apparently in every sort of civil case; their decisions were apparently informal, not judicial, but people were content with the speedier and easier way. The same thing then was happening in Egypt as with the judicial commissions in Greece (p. 89): informal jurisdiction gained ground on the regular jurisdiction. Finally in Egypt the whole vast class of royal peasants and monopoly workers were withdrawn from the sphere of the regular courts and placed under the jurisdiction of the financial officials and the *dioiketes*, who gave severe sentences; administration and law had become confounded, normally a very bad thing, and administration had usurped the law's powers.

Egyptian society in the third century was sharply divided;

[1] *Dikaiomata.* [2] *P. Cairo Zen.* 59202–3.
[3] Letter of Ptolemy II, *P. Amherst* II, 33.

timber were curable[1]; by Augustus' time olives were plentiful in the Fayum.[2] The planting and care of trees native to the country was not neglected.[3]

The system necessitated a whole army of officials, administrative and financial. For administration each nome was divided into *topoi* and each *topos* comprised so many villages; over each village and each *topos* were two native officials, and, theoretically, two in each nome, the nomarch and his scribe. But the general was really head of the nome, his functions being chiefly civil and legal, though his name remained a symbol of conquest. The *dioiketes* or finance minister, the second man in the kingdom, was head of the financial side, and appointed the smaller financial officials; from his bureau in Alexandria he exercised control over the two great centres there, the King's Barn for the corn and natural produce, the State Bank for the taxes in money. In the nome capitals and the villages were the nome and village barns in which the corn was collected on its way to Alexandria, with their appropriate officials, and the nome and village banks, through which the money taxes passed; these were looked after by the subordinate of the *dioiketes* in each nome, the *oikonomos*, but later this office was doubled, one *oikonomos* for the produce and one for the money. No trust was placed in the honesty of the financial officials; they not only had to find sureties, but to each was assigned a 'counter-scribe' or checker; when a peasant brought his corn to the barn he got no receipt till the checker had verified the barn-master's weighing. If enough men did not volunteer, the smaller offices were filled compulsorily.

Ptolemy, as absolute monarch, was the fount of law, and his rescripts had legal force. But the ordinary administration of law[5] had to take account of two different systems, the Greek and the Egyptian; for though Greeks had come from many cities, their law had to be treated as a whole, and in fact the 'city law' of Alexandria shows a mixture of

[1] *P. Cairo Zen.* 59157.
[2] Str. 809.
[3] *P. Tebt.* III, 1, 703 l. 191.
[4] P. 57 n. 2.
[5] Rostovtzeff, *C.A.H.* VII, 894 (bibliography)

nome had a register for the nome, compiled from the village registers; at Alexandria there must have been a register for the whole country, compiled from the nome registers. There must have been a register of houses; all draught oxen and working animals were registered; if a man bought a licence to go fishing an agent followed him to register his catch. The official land register sufficed for the taxation of real property; taxation of movables was based on a system of declarations by the owners combined with official inspection. A form of census of the population was probably taken annually.[1] Supervision was as thorough as registration; everything was inspected, and Ptolemy knew each day what each of his subjects was worth and what most of them were doing. There was probably no such thing as independent trade in the home market, unless in the Greek cities; retail traders were only State agents for distribution, with their profits fixed. Even when the taxes collected in money were farmed out it was not a free operation, unless in the foreign possessions; the tax-farmer was controlled by the State[2]—about the best thing the Ptolemies did—and was only a piece of machinery for collecting the taxes; but care was taken that he did collect them, for, if he did not pay the calculated amount, his property and that of his sureties could be confiscated. Not only the royal peasants but other farmers were ordered what crops to sow; even Apollonius once received such an order, which could only have been given by Ptolemy II personally.[3] All the ploughing oxen of the royal peasants were at the State's disposal, and at seed time and harvest were so distributed as to get the land cultivated to the best advantage. A good deal was done to improve agriculture[4]; beside the stricter organisation, new seeds were experimented with[5] and Arabian sheep were introduced[6]; Apollonius too imported Milesian sheep for his estate,[7] and planted fir-trees to see if Egypt's dearth of

[1] Wilcken, *Grundzüge* 173.
[2] *Rev. P.* A col. 1 *sqq.*
[3] *P. Cairo Zen.* 59155.
[4] R. Johannsen, *C.P.* 1923, 156; *P. Cairo Zen.* 59033, 59156–7, 59159; Pliny XII, 56, 76.
[5] Athen. 369 F.
[6] *P. Cairo Zen.* 59430.
[7] *Ib.* 59195.

5 per cent. on the rent; a 10 per cent. tax on sales; 2 per cent. on sales in a market; 33⅓ per cent. on dovecots[1]; taxes on cattle and slaves; a poll tax, though apparently at differential rates, on the whole country except the priests and some privileged bodies—an economic measure and not, as was once believed, 'a political impost intended to mark the inferior status of the Egyptians"[2] There was an octroi on goods passing from Upper to Lower Egypt, and from the country into the towns; a 2 per cent. import and export duty at the Nile harbours; and import and export duties, some very heavy, at Alexandria and the other seaports. There were taxes for a gold crown on the king's accession, taxes to maintain the fleet and the lighthouse, and taxes for local objects, as police, doctors, baths. The reform was introduced of separating the Treasury from the king's privy purse, the latter being under an official called the *Idios Logos*[3] ('private account'), subordinate to the *dioiketes*; among other things (judging from the regulations of Augustus' time) all exposed babies were Ptolemy's perquisite and were collected by the *Idios Logos* as saleable articles.[4] The care taken over trifles was astounding; the great Apollonius makes a few shillings by selling his roses,[5] and re-uses Milesian oil jars.[6] Unhappily the income of the Ptolemies is unknown[7]; but the dynasty was generally regarded as much the richest thing in the world, and accumulated that 'Treasure of the Ptolemies' which so excited Roman covetousness.

To run a State on these lines full statistics were necessary; and the system of registration was very thorough. Every village had its land register, kept up to date, which described every parcel of land in the village territory; the capital of the

[1] A. Hunt, *J.E.A.* XII, 113.

[2] H. I. Bell, *J.E.A.* XXIII, 1937, 135; Préaux, *Écon. royale*, 382; Rostovtzeff, *SEH* 1392 n. 117; Bell, *J.R.S.* XXXVII, 1947, 17.

[3] Str. 797; *OGIS* 188.

[4] *BGU* V, 1, *Der Gnomon des Idios Logos*, § § 41, 107.

[5] *P. Cairo Zen.* 59269.

[6] *Ib.* 59015 (*recto*) (259 B.C., Miletus was in revolt).

[7] Jerome's figure (on Daniel xi, 5), 14,800 talents under Ptolemy II is worth little.

on which they fed the royal cattle. He also owned large flocks of pigs and geese, which were let out; no tree could be cut in Egypt but by his leave, for it was rooted in his soil.

Last came the *apomoira*,[1] a tax of one-sixth of the produce of vineyards, paid in kind, and of orchards and gardens, paid in money. The *apomoira* had belonged to the temples, but in 266/5 Ptolemy II diverted it to the cult of the deified Arsinoe Philadelphus, which probably meant that part went to the Treasury. As in addition to the *apomoira* Ptolemy II took a 33⅓ per cent. tax[2] on the produce of vineyards, orchards, and gardens, based on a three years' average, a large part of the year's vintage was his, even though wine delivered in kind at once passed into trade through the financial officials; the 33⅓ per cent. import duty[3] on fine Greek wines corresponded to the tax, nicely calculated so as not to spoil Ptolemy's wine-business and yet admit those Ionian wines which Alexandria could not do without. The form of the tax on vineyards made Ptolemy a partner with the vine-growers, who were often Greeks—a sort of racial discrimination, as he was not a partner with the Egyptian corn-growers; though generally speaking the kings had little race-prejudice as such.[4] What happened to the natural monopolies in the oountries which Egypt ruled—the silphium of Cyrene, the balsam of Jericho, the bitumen of the Dead Sea—is unknown.

These measures meant that, just as all the land in Egypt belonged to Ptolemy, so in a sense did all business, for those businesses which were not royal monopolies could, it seems, only be carried on upon terms either of purchasing a licence to do so or rendering to the king part of the product.

In addition there was a formidable list of money taxes and duties. A succession duty on estates; a house duty of

[1] Fully in Bevan 183.

[2] *P. Cairo Zen.* 59170, 59012, with Edgar's commentary, *Ann. Serv.* XIX, 23, 85, XXIII, 73; Rostovtzeff, *Large Estate*, 99; Westermann, *J.E.A* XII, 38.

[3] *P. Cairo Zen.* 59012.

[4] Préaux, *Écon. royale* 451 n. 3; Westermann, *American. Hist. Rev.* XLIII, 1937–8, 270–2, with good notes.

and Ptolemy's profits ranged from 70 per cent. on sesame oil to 300 per cent. or more on colocynth.[1]

Of many other things the king had either a monopoly[2] or a share in the business.[3] The manufacture of papyrus, the world's writing material, perhaps became a monopoly under Ptolemy II. In 333 a roll of papyrus cost in Greece 2 drachmae; in 296, with Egypt opened up, a drachma bought several rolls; but after 279 (under the monopoly?) a roll averaged nearly 2 drachmae again.[4] Further monopolies were mines, quarries, saltworks, and natron pits (carbonate of soda, used as soap); possibly too the business of fulling cloth. Hemp was treated like flax. All imported spices had to be sold to the king at his own price. He had a 25 per cent. share in all fisheries and all honey, with corresponding 25 per cent. import duties to protect his interests.[5] He owned part of the merchant fleet on the Nile, and perhaps leather factories; Cleopatra ran a wool mill, possibly with her own maids.[6] Banking was really a monopoly; there was a State bank in Alexandria, and banks in the nome capitals and the villages, let out to private individuals, which beside banking and moneychanging acted as branches of the State bank (if indeed they were not really branches under officials),[7] receiving the money taxes and making payments on Treasury account like the so-called State banks in Greek cities (p. 116). Many businesses beside banking, *e.g.* brewing, bee-keeping, and breeding pigs, could only be carried on by purchasing an annual licence from the Treasury; conceivably this applied to all businesses not monopolised. The king owned all pasture land, and had large herds of cattle; the royal peasants, after reaping their corn, had to grow a green crop

[1] Deduced from *Rev. P.* p. 151.

[2] Fullest list, Wilcken, *Grundzüge* 239–57.

[3] Generally: Wilcken, *Schmoller's Jahrb.* XLV, 49; Rostovtzeff, *J.E.A.* 1920, 161; N. Lewis, *L'industrie du papyrus dans l'Égypte gréco-romaine*, 1934, 125.

[4] Refs. Glotz, *J. d. Savants* 1913, 28; *Bull. soc. arch. Alex.* XXV, 1930, 83; Lewis, *op. c.* 152; Rostovtzeff, *SEH* 1391 n. 111. We cannot be sure, however, that the roll was always of the same length or quality.

[5] *P. Cairo Zen.* 59012; Wilcken, *Chrest.* no. 167.

[6] Oros. VI, 19, 20.

[7] So Wilcken, *Schmoller's J.* XLV, 85; Préaux, *Écon. royale* 280.

fruit,[1] and oil was derived from sesame (the best), croton, linseed, safflower, and colocynth (gourd seeds). The king decided each year how much land should be planted with oil-producing plants; planting was compulsory, and the king took the whole produce at a fixed price; the oil was made in the state factories, the workers being serfs, compelled to work and tied to their 'own place' unless shifted elsewhere by official orders; finally the oil was distributed through retailers at a fixed price. To prevent competition, there was a heavy import duty on foreign oil[2]; in 259 Ptolemy II sold his oil in Egypt at 52 drachmae the metretes, and the import duty was 50 per cent., with a regulation that oil imported must be sold to himself at 46 drachmae. It worked thus. The shipper of Greek oil had to pay 26 Ptolemaic drachmae duty and also the Alexandrian harbour and other dues, about 2 drachmae, and sell at 46 Ptolemaic drachmae; that left him some 18 Ptolemaic drachmae the metretes to cover the cost price of the oil, the 2 per cent. export duty of the city he shipped from, the cost of the voyage, and his own profit; he therefore could not ship oil to Egypt unless its cost price were very far below 18 Ptolemaic drachmae, which was equivalent to about 15 Attic (Alexander) drachmae. But about 259 the retail price of free oil at Delos ranged from 21 to 17 Attic drachmae; that is, the Egyptian duty was calculated to prevent import altogether, and if nevertheless Apollonius did import olive oil, using his own ships, the great *dioiketes* could afford to pay for his fancies. But Ptolemy took no chances; if anyone, despite the duty, *did* take foreign oil up the Nile for his own use he paid another 12 per cent., and if he tried to sell it it was confiscated and he was fined 100 drachmae the metretes. Oil was a cast-iron monopoly, in which everything was nationalised—production, fabrication, distribution;

[1] *P. Cairo Zen.* 59159, 59184; Str. 809; Ch. Dubois, *Rev. Phil.* 1925, 60; 1927, 7.

[2] These figures, from *P. Cairo Zen.* 59012, 59015 (*recto*), and the Revenue papyrus, are given by me in rather more detail, with the Delos references, *J.E.A.* XIV, 257. Mlle. Préaux' calculations, *Écon. royale* 85, differ slightly from mine.

pouring down to the capital.[1] Ptolemy was the greatest corn merchant the world had seen.

For the staples which were royal monopolies or contained some element of monopoly, like textiles and oil,[2] the treatment differed, as was dictated for textiles by the raw materials themselves. Although the king could decide each year how much flax should be sown in the country, he could not decide with any precision how many sheep could be reared: the most he could do here was to impose a 20 per cent. import duty on foreign wool,[3] which led to Apollonius experimenting with Milesian sheep (the merino of Greece) within the tariff wall.[4] For wool and linen alike no attempt seems to have been made to 'corner' the raw material by enforcing its sale to the king only. The royal workshops took what was needed probably to supply the court, the army and (in the case of linen) the export trade; but in the wool-weaving industry much seems to have been left to private enterprise as well. The weaving of linen was more closely controlled, though it was not a complete monopoly. Although each nome, and each weaver, was under orders to produce for the State goods of a certain quantity and quality, and the individual was liable to make good in money any deficiency, it seems that there was no ban on production over and above the quota for the State. The temples, for example, were still allowed to produce for themselves, provided that they produced their quota. As to the marketing of textile products, it is still uncertain to what extent prices and quantities were regulated by the government.

But the great royal monopoly was oil.[5] The olive, though long since introduced into Egypt, was scarce; the trees were planted for ornament, and the olives were only used as

[1] On the transport of grain from the nomes to Alexandria, see *P. Tebt.* III, 703 ll. 70–87; Rostovtzeff, *SEH* 1391 n. 115; E. Börner, *Der staatl. Korntransport in gr.-röm. Ägypten*, Diss. Hamburg, 1939.

[2] For textiles, see especially in addition to the works cited, p. 177 n. 1; *P. Tebt.* III, i, 703.

[3] *P. Cairo Zen.* 59012.

[4] *Ib.* 59195.

[5] B. P. Grenfell and J. P. Mahaffy, *The revenue laws of Ptolemy Philadelphus* (Revenue papyrus).

garden of a royal peasant were 'private'. Greeks sometimes called it property, but it was, like every other Ptolemaic form, not property but user; apart from the Greek cities, the property or legal estate in any land in Egypt never left the king. But the kings presently began to give to civilians the perpetual user of land other than house and garden—waste land, or cleruch land that had escheated, or even King's land that had become unoccupied; and this land also was reckoned 'private'. It grew greatly in importance by the first century, and even more under Roman rule; as the cleruchs furnished the military element of the State, so the 'private' occupiers probably staffed the smaller offices of the bureaucracy. One may compare the parallel forms in Seleucid Asia, where civil colonies are perhaps found alongside the military ones (p. 154).

We pass to the economic system itself.[1] The main Egyptian staple was wheat. All corn-land, in whatsoever hand, paid a tax in corn direct to the king[2]; and on the King's land no part of the crop belonged to the peasant till he had taken out the king's quota, which was the larger share, and transported this to the king's barn in his village. While in Asia the Seleucids were partners with the peasantry and must have shared losses in a bad year (p. 142), in Egypt every parcel of ground cultivated by the native peasantry contributed its allotted amount to the king as a first charge, loss falling on the cultivator alone[3]; this was one of the sources of Ptolemy's great wealth. The royal peasants had not more than enough left to live on; the king supplied next year's seed corn. From the village barns the wheat passed to the central barn of the nome, and was thence taken down the Nile and stored in the King's Barn in Alexandria; the wheat was a second Nile, a vast river fed by a thousand rills

[1] Cf. the works cited p. 177, see especially, for this section, Rostovtzeff, *SEH* 300 *sqq.*, Préaux, *Écon. royale*, 61 *sqq.*, Heichelheim, P.W., *s.v.* *Monopole*.

[2] Cf. A. H. Gardiner, *P. Wilbour* II and III, 1948, for the same principle, it seems, in Ramesid land assessments.

[3] Wilcken, *Grundzüge* 171. Seemingly this may not apply to large holdings, Greek or otherwise.

requisitioned, gave compulsory labour on the dykes and canals, and could be turned out at any time, they differed little in fact from serfs. How much of Egypt was King's land is unknown; certainly a very substantial part, and in the Fayum and the Delta perhaps the larger part.

Land in grant fell into four classes: (*a*) temple lands, (*b*) cleruch land, (*c*) gift land, and (*d*) the so-called private land. (*a*) The king, who was also an Egyptian god, cultivated the former temple lands himself, allotted what produce was required to the temple, and kept the rest. Probably extensive lands in the Thebaid belonged to this class. (*b*) The cleruchs (holders of a *kleros* or military allotment) were military settlers, originally mercenaries of many nationalities, Greeks predominating, grouped in settlements; to place them on the land ensured a supply of soldiers. In the third century they received good land; but subsequently they were settled on waste or uncultivated ground, the user being sold to them at a low price on terms that they should reclaim their lots; they could make it corn-land or garden-land as they wished (vineyards being reckoned with garden-land), and paid rent accordingly, for corn-land in corn, for garden-land in money; their rents were not heavy, as part of their rent was their obligation to military service. If a cleruch died, or failed to render his rent or military service, the king could resume the land; but by 218 the 'lot' had become heritable and passed to the cleruch's son, and later it became alienable.[1] (*c*) Gift land meant an extensive estate, comprising one or more villages with their lands, conferred on some official, who became the superior of the village authorities; the object was to get the land fully developed through his agency, but the king could resume the estate. The Zeno papyri have supplied much information about the estate in the Fayum bestowed by Ptolemy II on his finance minister Apollonius.[2] (*d*) Private land originally meant house, garden, and vineyard; even the house and

[1] Préaux, *Écon. royale*, 463–77.

[2] *P. Cairo Zen.* and *P.S.I.*; Rostovtzeff, *A large estate in Egypt*, 1922; F. Zucker, *Hist. Zeits.* 1924, 69.

to 26 per cent.,[1] rates unknown in Greece except upon maritime loans. As regards the fellahin, the basis of the system was that each man had his 'own place', which he could not leave except by official order or permission.[2] The germs of the monopoly system have been traced in the old temple monopolies of Pharaonic times and in the famous corner in wheat brought off by Alexander's financial superintendent Cleomenes[3] when he was virtually in control of the country; but the system as we know it appears as the creation of Ptolemy II, though conceivably his father originated it.

The king was the State; and Ptolemy I after Perdiccas' death had claimed Egypt as 'spear-won' territory,[4] which by Macedonian custom passed to the king. He therefore claimed to own the entire soil of Egypt, except the lands of Naucratis, Alexandria, and Ptolemais: not only the old royal domains, but also the temple lands and the lands of the feudal nobility, whom the Ptolemies abolished. The entire land[5] was divided into two categories only: King's land in the narrower sense, *i.e.* land in hand, and land in grant. King's land was farmed for Ptolemy by the 'royal peasants', the 'king's people'. These formed a substantial part of the fellahin population of the villages, and their ancestors had cultivated King's land for untold centuries; many were small peasants, but among them were farmers of some substance. Their customary tenure became partly translated into Greek forms: they were registered as lessees. But they had no written leases and the king did not undertake the corresponding duties of a lessor; and as they could not leave their villages, were compelled to cultivate their land and could be compelled to cultivate more if ground fell vacant (for the State was built up on the maxim that the king's cultivation must be carried on), could have their animals

[1] Beloch IV, 1, 323.
[2] Rostovtzeff, *Kolonat* 305–8; Wilcken, *Grundzüge* 26.
[3] Ehrenberg, *Alexander und Ägypten*, 50; Tarn, *Alex.* II, 303–5, and notes.
[4] Diod. XVIII, 39, 5.
[5] Land: to general works cited add Rostovtzeff, *Kolonat* ch. 1 and in *J.E.A.* VI, 165; Kornemann, *Bauernstand* in P.W.

Greek courts which administered a law compounded of the 'city law'—the law of the Greek citizens—and royal rescripts, and which seemingly had jurisdiction over all the inhabitants except (after the third century)[1] the Jewish *politeuma*; the land attached to Alexandria was the land 'of the Alexandrians', *i.e.* of the Greek *politeuma*, and if a Council be ever discovered it is probable that it will be that *politeuma*'s governing council, which must have existed. There were, however, many Greek inhabitants not members of the Greek *politeuma*, and the whole population was subject to Ptolemy's governor,[2] who in the later period had military power; there were other royal officials, like the prefect of police, the *exegetes* (who wore the purple), and the *eutheniarch*; one of the two latter may have managed the food supply,[3] but the king himself saw to it that the great city was fed.[4] The interesting thing about the constitution is to see the personal 'city law' of the Greeks, by its extension to non-Greeks, well on its way to become a true territorial law; this may have been part of Alexander's scheme for fusing different races, and certainly, after Graeco-Egyptian intermarriage began in the second century, Alexandria, apart from the Jews and a minority of Greeks, did ultimately fuse into a more or less homogeneous mass, turbulent, crazy for shows, sarcastic and sometimes hostile towards the dynasty, for which at the end it nevertheless fought and which it long regretted.

To describe the Ptolemaic system is to describe a body without a head, for all threads ran to Alexandria, and of the central bureaux there nothing is known; the extant information comes from the country. Already under the Persians payment in money was displacing payment in kind, and the process gained momentum under the Ptolemies; but the latter form of economy still persisted, and capital was always relatively scarce in the country, interest being 24 per cent.

[1] Because of Mitteis, *Chrestomathie* no. 21.
[2] Polyb. V, 39; *OGIS* 743; Schubart, *Klio* X, 68.
[3] Cf. Wilcken, *Grundzüge* 365 n. 5; Bell, *J.E.A.* XIII, 174.
[4] Kunkel, *Archiv* VIII, 212 no. 15; Wilcken, *Hermes* LXIII, 48.

the inhabitants drew; later on some houses apparently could get their water by pumping. The city overflowed its wall on both sides; on the west lay the native Egyptian quarter, on the east, beyond the suburb of Eleusis, the gardens of the wealthy extended to Canopus, Alexandria's playground. By 200 Alexandria was the greatest city of the known world though Rome passed her later; by Augustus' time the total population was perhaps a million.[1] In a recently discovered dialogue an enthusiast claims that Alexandria *is* the world: the whole earth is her city-land, and other cities only her villages.[2] Something of her wealth and magnificence under Ptolemy II can be gathered from Callixenus' account, preserved by Athenaeus, of that king's festival procession.

That this vast agglomeration of humanity could ever be a 'city' in the strict Greek sense was a physical impossibility.[3] Alexandria was a collection of *politeumata* (p. 147), based on nationalities, the Greek *politeuma* being much the most important; outside these stood a few privileged Macedonians at one end and the mass of Egyptians at the other. It had not even a city Council (though some think otherwise)[4]; and Wilcken's argument[5] that Alexander could not have founded a city without a Council presupposes that what he founded was a 'city', a *polis*, whereas his foundations were probably of a new mixed type. The Greek *politeuma* of Alexandria, however, approximated more closely to the *polis* type than any other actually known; the Greeks were called 'the citizens', 'the Alexandrians', and were divided into tribes[6]; they supplied the magistrates, of Greek type, who looked after building, public health, and so on, and also

[1] Beloch IV, 1, 287, makes it too small. *SEG* III, 378 B l. 9, speaks of the king who ruled in Alexandria and Egypt.

[2] *P. Berl.* 13045 l. 28, in *B.G.U.* VII, 13; cf. Lumbroso in *Archiv* VIII, 60.

[3] On this section: *Dikaiomata*; Schubart, *Klio* X, 41, and *Einführung* 245, 280, 284; Plaumann, *Archiv* VI, 77, *Klio* XIII, 485. On politeumata, besides p. 147 n. 4, see Rostovtzeff, *SEH* 1401 n. 137.

[4] Boll, *Jews and Christians in Egypt*, 1924 (Claudius' letter); see *J.E.A.* XI, 95; XIII, 98, 106; XIV, 146; XV, 123; XVII, 128; and especially *Aegyptus* XII, 1932, 173, 'The problem of the Alexandrian senate'.

[5] *Archiv* VII, 308, 310. [6] Perdrizet, *Rev. E.A.* 1910, 217

a double harbour, a type known at Syracuse, Sinope, and Cyzicus; to the east of the mole was a natural basin, now neglected, to the west an artificial port, Eunostos, formed by breakwaters, and connected with Lake Mareotis by a canal. Each had a small closed inner harbour opening from it—from the eastern harbour Ptolemy's private port, and from Eunostos the war harbour, Kibotos. The harbour on Lake Mareotis took the Nile traffic and was said to clear a bigger tonnage even than the sea-harbours; there lay the gorgeous pleasure fleet of Ptolemy II, and later the splendid villa mounted on a barge built for Ptolemy IV. On the eastern harbour lay the Royal quarter, Brucheion, where amid temples and spacious gardens stood the Palace, the Museum and Library, the quarters of the Guard, the tombs of the Ptolemies, and the wonderful tomb built for Alexander's body by Ptolemy II when he brought it from Memphis, a tomb still regarded as holy by the Roman Emperors and to which Caracalla made a pilgrimage. Over the whole kept watch the Pharos, the lighthouse erected on the island by Sostratus of Cnidus for the safety of mariners (p. 313).

Within the city were the buildings which housed the central bureaux of the whole administration, the central stores for corn, oil, and other products, the Hall of Justice, and the Gymnasium; beyond the east gate lay the stadium, and the hippodrome for chariot races; in the west, near the native quarter, stood the great temple of Sarapis[1]; an artificial hill dedicated to Pan gave a view of the whole city. Shops and bazaars lined the central thoroughfare, and by 100 the houses were probably several storeys high; lodging houses were known, managed by the owner's slaves. A canal brought Nile water to the city, distributed through conduits to fill a system of underground cisterns,[2] from which

[1] Wilcken, *Archiv* VII, 78. See now A. Rowe, 'Discovery of the famous temple and enclosure of Serapis at Alexandria', (*Suppl. des Annales du Service*, 1946); reviewed by C. Préaux, *C.d'É.* 48, 1949, 362. The question whether the temple, built by Ptolemy III, of which the foundations have now been discovered, can be that of Parmeniscus is still unresolved; cf. P. Jouguet, *Hommages à Joseph Bidez et à Franz Cumont*, 1949, 159.

[2] Hirtius, *Bell. Alex.* 5.

structed to connect the Red Sea with the Nile by way of the Bitter Lakes, and early in his reign began to drain Lake Moeris to create the Arsinoïte nome, the Fayum, thus recovering much fertile land which he made a centre of Greek settlement[1]; the original swamp was ultimately reduced to a lake about the size of Lake Karun to-day. The caravan route from Coptos on the Nile to Berenice on the Red Sea was equipped with wells and block-houses[2]; there was a swift official post modelled on the Persian, and a slower method of forwarding heavy parcels and persons, based on a system of requisitioning draught animals along the route[3]; Ptolemy II introduced the camel,[4] and later a camel post ran from the south to Alexandria. The notable series of explorations along the Red Sea coast are mentioned elsewhere (Chap. VII). But the greatest achievement was probably the completion of Alexandria.

Alexandria,[5] called Alexandria *by* Egypt and distinguished from the rest of Egypt as 'the city', stood on the neck of land between the sea and Lake Mareotis, with harbours on both. Deinocrates had laid it out on the rectangular plan usual in Hellenistic cities (p. 310) and found even in Greek villages in the Fayum; but the roads actually uncovered are Roman, and the Hellenistic city is known principally from Strabo, who describes a great street 100 feet wide running east and west, and crossed at right angles by a second. Several streets bore the cult-names of Arsinoe II.[6] Alexander had joined the island of Pharos to the mainland by a mole seven furlongs long called Heptastadion, which formed

[1] Topography: *P. Tebt.* II App. II; cf. Rostovtzeff, *SEH* I, 420, for Philadelphia the new settlement (not a city in the Greek sense).

[2] *OGIS* 132.

[3] Rostovtzeff, *Klio* VI, 249; Preisigke, *ib.* VII, 241.

[4] Athen. 200 F; *P. Cairo Zen.* 59008, 59010, 59143, 59207; *P.S.I.* VI, 562.

[5] Str. 791–5, 801; Diod. XVII, 52; Ausfeld, *Rh. Mus.* 1900, 348; E. Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum*, Eng. ed. 1922; Schubart, *Ägypten von Alexander d. Gr. bis auf Mohamed*, 1922; Bell, *J.E.A.* 1927, 171; E. Leider, *Der Handel von Alexandria*, 1935; Bell, *J.R.S.* XXXVI, 1946, 130: see most recently, on the site of the harbour, Sir Halliday Savile, *Antiquity*, 1941, 209; cf. G. Jondet, *Atlas historique de la ville et les ports d'Alexandrie*, 1921, Pl. LII.

[6] Bell, *Archiv* VII, 17.

The Greek cities in their foreign possessions were frankly subject towns and, as such, taxed, and the form of government was connected with the Egyptian form. One innovation of the Ptolemies in Egypt had been to abolish the native nomarchs and govern the nomes by Greek or Macedonian generals, as though they were satrapies; the foreign possessions were also governed by generals, as was usual in all Macedonian kingdoms, with *epistatai* (city governors) over the cities.[1] But the important thing was that the internal affairs of these Greek cities were under the control, not only of Ptolemy through the general and *epistates*, but of the finance minister (*dioiketes*) at Alexandria; for just as in each nome there stood beside the general a subordinate of the finance minister, an *oikonomos*, so there was an *oikonomos* as well as a general in provinces like Caria, exercising authority in the Greek cities.[2] No other monarchy went to this length, and it suggests an attempt to introduce the Egyptian economic system into the Greek world. How far this was really done is unfortunately unknown; but the Greek Lesbos, besides money taxes, paid a tax in corn,[3] which means that its city-land was treated as though it were King's land; at Halicarnassus there was seemingly a trierarchy to help maintain Egypt's navy[4]; and Ptolemy II attempted to replace the city-coinages in Asia by his own.[5] Syria was doubtless organised somewhat on the Egyptian model, but not nearly so thoroughly; beside the priest-state of Judaea, native chiefs like the Tobiads in Ammon (p. 212) still existed under Ptolemaic suzerainty, and perhaps even owned the lands which they administered.[6]

As regards public works in Egypt, Ptolemy I founded the Library and Museum (p. 269), while Ptolemy II completed the Library, restored the canal which Darius I had con-

[1] *OGIS* 44, 113, 134; Tscherikower however (*Mizraim* 1937, 38) doubts the existence of a *strategos* in South Syria.

[2] *P. Cairo Zen.* 59036–7. Fully in Rostovtzeff, *C.A.H.* VII.

[3] Wilcken, *Chrestomathie* no. 2.

[4] *P. Cairo Zen.* 59036; see Wilcken, *Raccolta Lumbroso*, 93.

[5] *P. Cairo Zen.* 59021; Schubart, *Z. f. Num.* 1921, 68.

[6] Tscherikower, *loc. c.*

importance in face of Alexandria[1]; and, Alexandria apart, the only activity shown by the Ptolemies in regard to cities was in their foreign possessions. These possessions were once very extensive, though they fluctuated from time to time.[2] The Ptolemies held or controlled the Cyclades, with some intermission, from 285 to 245; Samos from 281 to 201[3]; most of the coast of Asia Minor from the Calycadnus in Cilicia to Ephesus from c. 273 (or earlier) intermittently to 197, though many cities and districts often changed hands in their wars with the Seleucids; much of the Hellespontine and Thracian coasts with Lesbos and Samothrace from c. 241 to c. 202, including even Abdera in Macedonia's sphere; Southern Syria up to the Lebanon and much of Phoenicia, with a fluctuating boundary, till 200; Thera,[4] Methana in the Argolid,[5] and Itanos in Crete,[6] till 146; the Cyrenaica (except for its brief independence c. 258–246) till 96; and Cyprus, their last foreign possession, till 58.[7] They renamed many cities; Methana,[8] Patara in Lycia, some city in Ceos, all became Arsinoe.[9] But Arsinoe and Philadelphia in Cilicia[10] may be new foundations, and there were such in Syria, as Philoteria on Lake Gennesareth; while other native towns were refounded as Greek cities, Ake (Acre) becoming Ptolemais and Rabbath-Amman Philadelphia. Whether the foreign policy of the first three Ptolemies was defensive or aggressive has been much argued; one may suppose that they held southern Syria and Cyprus (with its ship-timber) for defensive purposes, but that everything beyond that was aggression.

[1] E. Marion Smith, 'Naucratis', in *Journ. Soc. Or. Res.* X, 1926, 147.

[2] Ernst Meyer, *Die Grenzen der hell. Staaten in Kleinasien*; Kahrstedt, *Syrische Territorien*; Otto, *Beiträge zur Seleukidengeschichte*; Tarn, *C.A.H.* VII, ch. 22; F. M. Abel, 'Les confins de la Palestine et de l'Égypte sous les Ptolemées', *Rev. bibl.*, 1939, 207 and 531; 1940, 55 and 224.

[3] For inscriptions of the Ptolemaic period, L. Robert, *Études epigraphiques et philologiques*, 1938, 113.

[4] *I.G.* XII, 3, Index IV.

[5] *OGIS* 102, 115.

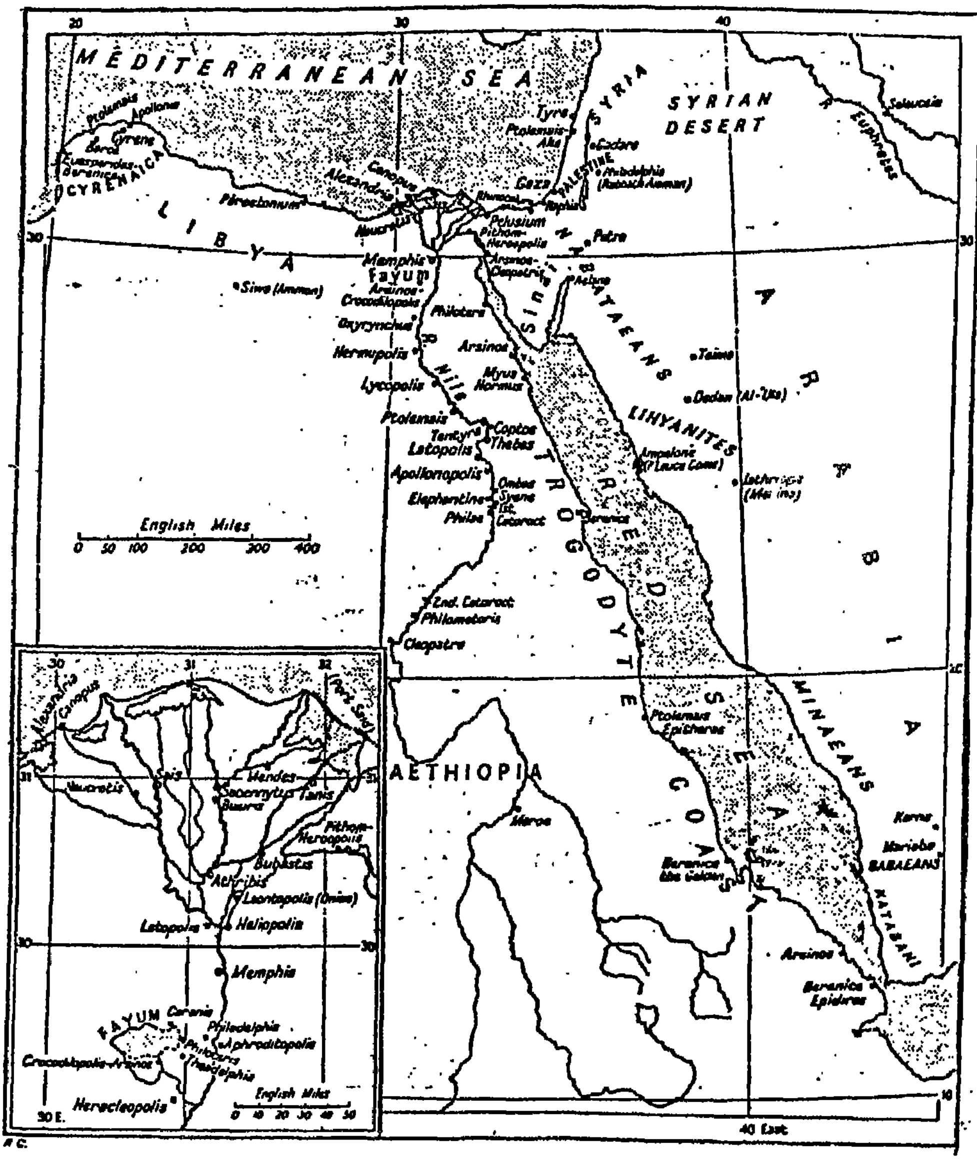
[6] Ditt.[3] 685 l. 42.

[7] Sir George Hill, *Hist. of. Cyprus*, I (1940), esp. 173 *sqq.*

[8] Hiller, *'Εφ. 'Αρχ.* 1925–6, 68.

[9] Str. 666; Ditt.[3] 562. See Tscherikower *op. c.*, index *s.v.* Arsinoe.

[10] Tscherikower 39 makes Philadelphia much later. I doubt this.



Egypt and Arabia
(inset: The Delta and the Fayum)

entrusted to Egyptians; the nomes (divisions of the country) remained under native nomarchs, and he appointed native governors instead of a Macedonian satrap. Even Ptolemy I, while satrap, did not entirely discard Alexander's idea,[1] and gave more place to natives than they subsequently possessed; the change came when he initiated a policy of over-sea conquest. His immediate successors aimed at the empire of the Aegean and its coasts, and treated Egypt as a money-making machine: and under the first three Ptolemies no native, after 312, ever bore arms. But by the end of the third century the position had altered. In 217 the newly enrolled native troops won the battle of Raphia for Ptolemy IV, and learnt their importance; and, Greek immigration having ceased, the Greek element thenceforth lost ground to the Egyptian. It will be best to give a sketch of Ptolemaic Egypt and its system as it existed in the third century, and then notice the later changes, particularly as revealed by the great series of ordinances of Ptolemy Euergetes II.

The resemblances and divergences in the political, administrative, and economic systems of the Ptolemaic and Seleucid empires show that both systems derived from common sources but did not develop in the same way; the main differences lay in their economic policies and their attitudes toward Greek city-life. The Ptolemies were certain from the first that they could not found a strong state in Egypt, as the Seleucids were doing in Asia, on the basis of the Greek city· and though Ptolemy I would have been no Successor of Alexander's had he not founded some city, in Egypt he only founded one, Ptolemais in Upper Egypt, doubtless to counterbalance the centre of priestly influence at Thebes. Ptolemais[2] was in form an autonomous Greek city, but its autonomy was presently limited by the general of the Thebaid becoming its chief magistrate [3] a measure which recalls the limited autonomy of Pergamum or Thessalonica. Naucratis continued to exist, but lost all

[1] Kornemann, *Raccolta Lumbroso* 235; cf. Tarn *C.Q.* 1929, 138.
[2] G. Plaumann, *Ptolemais in Oberägypten*, 1910.
[3] Plaumann, *op. c.* 29; cf. *OGIS* 51, 728.

papyri has been fortuitous and because their provenance (the country districts of Egypt and not the capital itself) ensures that local interests predominate and that it is only occasionally and incidentally that the high policies of the central government stand revealed in them.[1] Moreover Egypt is a world in itself, whose interest lies primarily in its economic system, a legacy (in its main principles) from the Egypt of the Pharaohs,[2] which became elaborated into the most thorough-going system of State nationalisation known prior to the twentieth century, unless conceivably the Peruvian; on Hellenism in general Egypt throws comparatively little light, and but for the Museum and Library at Alexandria would hardly have affected the development of Greek civilisation. For the Greek in Egypt remained a stranger amid the dense mass of natives, who would ultimately have absorbed him but for Rome's intervention. The country was not indeed peopled up to the limit under Ptolemy I, as there was still uncultivated land; tradition makes the population 7 or 7½ millions (excluding Alexandria) in the Hellenistic period, but some scholars have argued for higher figures.[3] Some Macedonians came with Ptolemy I and always held a privileged position, but were too few to matter; and the rule of the early Ptolemies reposed on Greeks, who flooded into the country down to the middle of the third century, whether as mercenaries or settlers. With them came Thracians and western Asiatics, most of whom, except the Jews, soon became hellenised[4]; in 252 there was a Roman in Ptolemy's army.[5]

For a time the Greeks ruled Egypt like a conquered country. This was not what Alexander had meant; in his system, while Europeans managed finance and the army of occupation, the civil government (under himself) was

[1] Cf. A. H. M. Jones, *Ancient economic history*, 1948, 2 (inaugural lecture).

[2] On the extent of that legacy opinion is divided: see Andreades, *Mélanges Maspéro* II, 1934–7, 289 *sqq.*; Préaux, *C.d'É.*, 1943, 148; Welles, *op. c. supra*, p. 177 n. 1.

[3] Discussed by Rostovtzeff, *SEH* 1137–8, 1605.

[4] Fr. Heichelheim, *op. c. supra*, p. 177 n. 1; Wilcken, *Archiv* VI, 385 (Thracians); Launey, *op. c. supra*, I, 87 *sqq.*

[5] H. I. Bell, *J.E.A.* 1922, 141. Cf. *Rev. E.G.* 1911, 400 no. 3.

EGYPT[1]

THE papyri which, during the last half-century or more, have been recovered from Egypt give a picture of that country under the Ptolemies far more detailed in some respects than anything else in Greek antiquity and, within its limitations, comparable in some ways to the picture which is made possible by the documents of modern history. But these limitations are very severe, because the survival of the

[1] Generally: besides the general histories (see p. 361), see, on the papyri, L. Mitteis and U. Wilcken, *Grundzüge und Chrestomathie der Papyruskunde*, 1912; Schubart, *Einführung*, 1918; K. Preisendanz, *Papyrusfunde und Papyrusforschung*, 1933; J. G. Winter, *Life and letters in the papyri*, 1933.

Fundamentally important are the works of M. Rostovtzeff, *C.A.H.* VII, ch. 4; *SEH* (with full notes and bibliography); and numerous special studies: and of Claire Préaux, *L'économie royale des Lagides*, 1939; and numerous studies mostly in *Chronique d'Égypte* (*C.d'É.*).

Useful surveys are those by W. Schubart, *Die Griechen in Ägypten*, 1927; P. Jouguet, *L'Égypte ptolémaique*, 1933 (in G. Hanoteaux, *Hist. de la nation égyptienne* III); and H. I. Bell, *Egypt from Alexander the Great to the Arab conquest*, 1948 (with bibliography of the papyri).

On the army, and the foreign populations: J. Lesquier, *Les institutions militaires de l'Égypte sous les Lagides*, 1911; Fr. Heichelheim, *Die auswärtige Bevölkerung im Ptolemäerreich*, and *Nachträge* in *Archiv* IX, 47 and XII, 54; W. Peremans, *Vreemdelingen en Egyptenaren in Vroeg-Ptolemaisch Egypte*, 1937 (with a summary in French); M. Launey, *Recherches sur les armées hellénistiques* I, 1949; II, 1950.

On the administration and law, besides the works of Rostovtzeff and Préaux cited above, *passim*, see: W. Schubart, *Verfassung und Verwaltung des Ptolemaerreichs*; V. Martin, 'Les papyrus et l'histoire administrative de l'Égypte gréco-romaine', *Münch. Beiträge z. Papyrusf.* 19, 1934, 102; P. Collart, 'La papyrologie et l'histoire du droit', *ib.* 186; R. Taubenschlag, *The law of Greco-Roman Egypt in the light of the papyri* I, 1944 M. T. Lenger, 'Les lois et ordonnances des Lagides', *C.d'É.* XXXVII, 1944, 108; E. Seidl, *Ptolemaische Rechtsgeschichte*, 1947; C. B. Welles, 'The Ptolemaic administration in Egypt', *Journ. Jurist. Pap.* III, 1949, 21.

For (especially) the Pharaonic background, see S. R. K. Glanville (ed.), *The Legacy of Egypt*.

[1] Ptolemaic Egypt

Part
II
Foreign Reference

1) Ptolemaic Egypt

2) Roman Egypt



تاريخ
مصر
في
البطالمة والرومان

هذا الكتاب

١ يختار وبعناية شديدة ، ومن منظور مصري وطني خالص
أهم موضوعات تلك الفترة التاريخية الهامة من المشوار
الطويل لتاريخ مصر القديم.

٢ يعرض،لأول مرة،سلبيات العصر الهيللينستي بموضوعية
شديدة ، ومن خلال المصادر الكلاسيكية نفسها.

٣ يناقش بحيدة تامة حملة الإسكندر الأكبر على الشرق
أسبابها ونتائجها.

٤ يحدد مشوار الكفاح الوطني المصري ضد المحتل
، في ضوء أحدث الاكتشافات البردية و
الأخيرة،كما يصحح بعض المفاهيم الحضارية
بين قراء العربية.

٥ يناقش بإيجاز غير مخل ، أشهر قضايا
الدور التاريخي للملكة البطلمية كليوباترا ، و
مكتبة الإسكندرية القديمة.

٦ يبرز جوانب الاستغلال الروماني لمصر
عسكريا وضمها لحظيرة الإمبراطورية
وأسباب خصوصية مصر كولاية رومانية.

٧ يوضح مظاهر الفساد والاحتكار و
للمجتمع المصري القديم من خلال البرديات

٨ هذا الكتاب هو، بحق، إضافة متخصصة للتاريخ